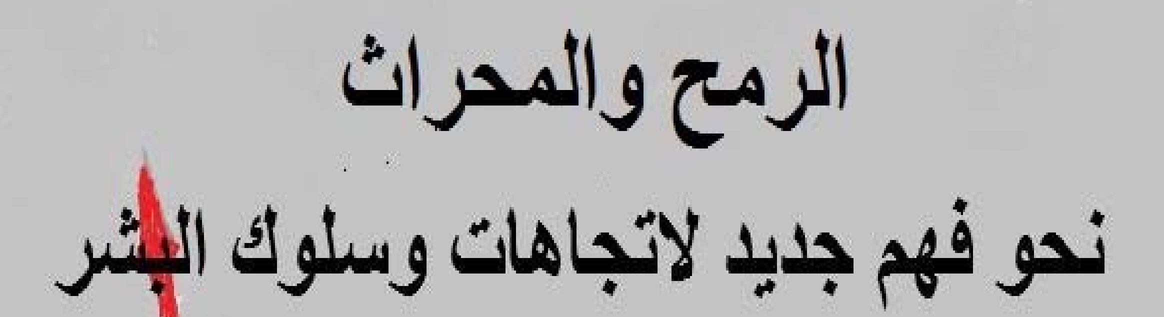


الرمح والمحراث

نحو فهم جديد لاتجاهات وسلوك البشر

د. حامد العطية

2015م

الرمح والمحراث:
نحو فهم جديد لاتجاهات وسلوك البشر

د. حامد العطية
2015م



المحتويات


محمد خطاب


محمد خطاب

مقدمة

قبل أن تنحت على باب معبد دلفي الإغريقي الحكمة الخالدة المعروفة: اعرف نفسك بزمن سحيق بدأ الإنسان بحثه عن حقيقة ذاته وأهدافه ودوافعه، وما موروثنا الثقافي الإنساني من عقائد وفلسفة وعلوم اجتماعية إلا نتاج متراكم لهذا البحث الطويل والمستمر، ولا تنفرد بهذا النشاط البشري فئة معينة من الناس، ولا هو حكر على الفلاسفة والمفكرين والأكاديميين، بل أن كل واحد منا، حتى أولئك الذين يدعون انهماكهم التام بمشاغل الحياة وهمومها، معني به وممارس له، وسيشعر بالحاجة بين حين وآخر للتفكر في هويته والتساؤل عن ماهية القوى التي شكلت شخصيته، والدوافع المؤثرة في سلوكه.

يبدأ هذا البحث التجريبي عن الذات مبكراً، ولربما منذ أول يوم من حياتنا، ويستمر طيلة العمر، وبصورة لا واعية معظم الأحيان، ولا نستمد معظم معرفتنا في هذا الحقل من كتب أو مقالات علمية وإنما من مصادر شخصية مقربة منا، فالذين نقرّ لهم بالخبرة في معرفة الذات والعلاقات الاجتماعية هم الأقربون منا والأصدقاء والأقران في المدرسة والزملاء في العمل، وبالطبع أنفسنا، فنحن أيضاً نكتسب جانباً من هذه المعرفة من تجاربنا في إدراك العالم من حولنا والتفاعل معه، ونتاج هذه العملية المتواصلة هي العقائد والقيم والعادات والأفكار والاتجاهات، التي نتصور بأنها ملكنا، ومن إبداعنا، ونذود عنها بضراوة، ولكنها في الواقع مكتسبة من مجتمعنا وبيئتنا الثقافية، وتعرف هذه العقائد والقيم والعادات أدوارنا، وتتحكم بسلوكنا تجاه الآخرين في مجتمعنا والعالم، وتشمل هذه المنظومة الفكرية معتقداتنا الدينية وقيمنا ومبادئنا الأخلاقية، ولبعضها مكانة قدسية في نفوسنا، فلا نقبل بالتشكيك في صحتها، أو حتى طرح أسئلة حولها أحياناً، ويؤمن معظم الناس بأن معتقداتهم وقيمهم عقلانية وعملية ومجدية، لذا لا يجيزون معارضتها أو الخروج عليها، وغالباً ما يرفضون تغيير حتى السطحي والمبتذل من عاداتهم وتقاليدهم، لأنها جزء أساسي وحميم من هويتهم الثقافية.

تشكل هذه المعتقدات والعادات هويتنا، وترسم شخصيتنا كأفراد أسوياء وفاعلين في مجتمعاتنا، وكلنا نحرص على تكريس وممارسة قيمنا الغالية، وبدورنا نعمل على نقل هذه القيم إلى الأجيال اللاحقة، وتشجعنا وتثيبنا مجتمعاتنا على مدى الالتزام بهذه القيم وممارستها، وتعاقبنا لو خالفناها، ولكن يوجد في المجتمعات البشرية غالباً قبول محدود وسماح مشروط بالفروق الفردية والتغيير والتطوير، وإلا لكنا نقبع في العصر الحجري حتى اليوم.

إن معرفة الذات منطلق أساسي لمعرفة الآخرين أيضاً، فمن دون إدراك وفهم شخصياتهم ودوافعهم وسلوكهم لا يمكن بناء علاقات إيجابية معهم، وإرساء قواعد متينة للاتصال والتفاهم والتعاون معهم في سبيل تحقيق المصالح المشتركة.

بعد ظهور وتطور العلوم الاجتماعية لم يعد مقبولاً الاكتفاء بالمصادر التقليدية والتجارب الشخصية وإغفال المصادر والبحوث الغزيرة حول هذا الموضوع وما توفره من معارف ونتائج مفيدة حول اتجاهات وسلوك الجماعات والأفراد في مجتمعات وبيئات مختلفة، ولكن وبسبب مشاغلنا يتعذر على غالبيتنا الاطلاع على حتى اليسير من هذه المصادر، وحتى المختصين يكتفون بدراسة جانب ضيق من هذا الموضوع، لذا تظهر الحاجة لتجميع المتفرق من هذه المعرفة الواسعة ضمن إطار شمولي ومبسط.

إن هدف هذا الكتاب تقديم إطار جديد لإدراك وتحليل أنماط الشخصية الإنسانية ونهج الحياة المرتبط بها، وبالتالي احراز فهم أفضل لأنفسنا وعلاقاتنا بالآخرين، ويصور هذا الإطار الفكري شخصية الإنسان بثنائية افتراضية من حزمتين من المعتقدات والاتجاهات والصفات، التي أطلقت عليها تسميتي "الصياد" و"المزارع"، وهذا الإطار الفكري مستوحى من حقيقة أن أسلافنا القدماء اعتاشوا في البدء ولفترة طويلة كصيادين، ومن ثم اكتشفوا الزراعة قبل حوالي عشرة

آلاف سنة، وما يزال معظم البشر يحصلون على غذائهم من الزراعة، ونتيجة عمليات التنشئة والتثقيف الاجتماعي والتجارب الشخصية والاختيار الذاتي يكتسب الفرد أسلوب حياة أقرب إلى نموذج الصياد، ولكن من دون التجرد الكامل من فكر وقيم المزارع، أو بالعكس يكون أشبه بالمزارع مع احتفاظه بمقومات من نمط الصياد، لذلك فمن الممكن أن يتصرف كل واحد منا تحت تأثير عوامل وظروف معينة وفقاً لما يمليه جانب الصياد في نفسه، ولو كانت الظروف مختلفة فلربما اختار طريق المزارع.

تعرف محتويات الفصل الأول الخصائص المميزة وأنماط السلوك لجانبي الصياد والمزارع في شخصيتنا، وللصياد كما للمزارع صفات مميزة، يمكن من خلالها التعرف على طبيعة شخصيته، ويتسم الصياد بالفردية وطلب القوة والسيطرة، بينما يبرز في المزارع الميل القوي لتكوين العلاقات الاجتماعية والإيثار والتعاون، ولأننا صيادون يحركنا دافع عارم لكي نثبت فرديتنا، وفي الوقت ذاته تلح علينا الحاجة للانتماء إلى عائلة وجماعة وأمة لأننا مزارعون أيضاً، ويؤثر التنافس والتعاون جنباً إلى جنب في سلوكنا في البيت والمدرسة والعمل، ولو نبذنا التعاون كلية لتوقفت الأعمال الجماعية، وبالنتيجة سيعتري الوهن والانحلال تنظيماتنا ومجتمعاتنا، أما المجتمع الذي يتعاون فيه الأفراد ولا يتنافسون البتة فلا يوجد إلا في مخيلة المثاليين.

يتقصى الفصل الثاني من الكتاب ظهور وتطور أسلافنا الصيادين والمزارعين، ويتبين من ذلك بأن مرحلة الصيد وجمع الغذاء من ثمار وجذور فرضت شروطها على حياة الصيادين الأوائل ومجتمعاتهم البدائية، وانطوى اكتشاف وانتشار الزراعة على تغيير جذري في العمل والعلاقات الاجتماعية، وأتاح آفاقاً أوسع للتطور الاجتماعي والتقني، وأدى إلى ظهور قيم وعادات وتراكيب اجتماعية مغايرة عن تلك السائدة في عصر الصيد، ولكن الصياد لم ينقرض، وبقيت قيمه مؤثرة، فبينما فقد الصيد أهميته كنمط وحيد لجني الغذاء بعد انتشار الزراعة استمرت طريقة حياة الصياد وقيمه بفعل ترسخها وتجذرها في الموروث الثقافي والقيمي وحتمية التنافس حول الموارد المرتبطة بالزراعة، ولم يكن بمقدور أحد الإفلات تماماً من تأثيراتها، وفي الحقيقة فإن الصياد الذي هجر البراري ليسكن داخلنا ما يزال هو المهيمن على عالمنا المادي والفكري.

وكما سيتبين في الفصل الثالث فإن ثنائية الشخصية الإنسانية انعكست في معتقداتنا الدينية ومدارسنا الفلسفية على مر العصور، وبينما انتصرت معظم الأديان الرئيسية لجانب المزارع فينا سعى الصياد داخلنا إلى تفسير النصوص الدينية لتبرير دوافعه وأساليبه وسلوكه، وسخرها وسيلة لتوطيد سلطته ونفوذه. وبدءً بفلاسفة اليونان القدماء تأمل الفلاسفة في طبيعة النفس البشرية، وخلص البعض منهم إلى وجود قوى متصارعة ومؤثرة في فكرها وسلوكها، ودافع العديد منهم عن مجموعة القيم والعقائد والسلوكيات التي ترجح كفة الصياد في نفوسنا باعتبارها ضرورية لتحقيق الأهداف الكبرى للإنسان، فيما لقي النموذج القيمي والأخلاقي الذي يمثله المزارع في نموذجنا الفكري مناصرين متحمسين من الفلاسفة، والذين هالهم ما جره على البشرية من إفراط الصياد في الطموح والأنانية والعدوانية.

تتضمن الفصول الثلاثة التالية، أي الرابع والخامس والسادس، تحليلاً للعلاقات الاجتماعية باعتماد ثنائية الصياد والمزارع، وتحتوي أدبيات العلوم الاجتماعية على دراسات ونتائج بحوث كثيرة حول العلاقات بين الأفراد وعوامل نجاحها وديمومتها وأسباب فشلها، فقد اهتم الباحثون بدراسة اختيارات الزواج وتحديد المؤثرات الرئيسية على هذه العملية الهامة، كما وجهوا الكثير من الاهتمام والموارد للتعرف على مقومات الزواج الناجح وكذلك السلبيات التي تشوب العلاقة الزوجية مثل الخيانة والعنف واهمال الابناء والتي قد تؤدي إلى تفكك العلاقة الزوجية، ويتبين من هذه البحوث أيضاً بأن نمو الأطفال ليكونوا راشدين وراشدات أسوياء معتمد إلى درجة كبيرة على تنشئة العائلة وأسلوب التربية وبيئة المدرسة، ويتبين من مراجعة سريعة لبعض نتائج هذه الدراسات والبحوث والتي شملت بعضها عينات عربية الفائدة من استخدام المنظور الثنائي في تحليل وفهم العلاقات الاجتماعية وعوامل نجاحها أو فشلها.

يعمل غالبيتنا في منظمات صغيرة أو كبيرة، حكومية أو خاصة، ويتطلب هذا منا تقمص أدوار متعددة، وأحياناً متباينة، فتارة يكون الواحد منا رئيساً وأخرى مرؤوساً أو زميلاً، وساعة مدرباً وأحياناً متدرباً، ويتضمن الفصل السابع بياناً بفوائد استخدام المنظور الثنائي في فهم خصائص أساسية في تركيب وعمل المنظمات وانماط القيادة والإدارة وكذلك دوافع وسلوك العاملين في المؤسسات على اختلاف أدوارهم، ويحتاج كافة العاملين في منظمات إلى هذه المعلومات لاكتساب مهارات بناء علاقات فعالة مع الآخرين في محيط العمل.

ما أكثر وأعلى الأصوات التي تؤمن بأنه لولا اندفاع وتنافس وجرأة الصياد لتوقفت عجلة التقدم، ولربما عاد بنا الزمن إلى العصور المظلمة، ولكن يوجد أيضاً من يحث على اتباع خطى المزارع، لأن فيها خلاصنا من الحروب والعنف والمجاعة والظلم والتلوث البيئي وغيرها من الكوارث التي جلبها الإنسان على أبناء جنسه والبيئة التي يعيش فيها، وبعد اكتمال استكشاف القارئ لهويته فقد يتساءل إن كان يتوجب عليه تغيير أسلوب حياته من خلال الميل بها باتجاه الصياد أو المزارع، ويتضمن الفصل الأخير مراجعة موجزة لمنهجي الصياد والمزارع والإجابة على سؤال حول مدى حاجة البشرية للمزيد من الذين يتبعون منهج المزارع.



الفصل الأول
رمح الصياد ومحراث المزارع

نبذة منهجية

يستعين الدارسون بنماذج فكرية أو نظرية في شرح الكثير من الظواهر المعقدة مثل الطبيعة البشرية والسلوك، وغالباً ما تتكون هذه النماذج من حالتين متباينتين حديتين أو طرفيتين، وعلى سبيل المثال يشار إلى احتواء الطبيعة على قوى بناءة مثل التمثيل الضوئي وأخرى هدامة كالطفيليات والبراكين والعواصف والحرائق، و تتبنى العديد من الأديان عقيدة ثنائية الخير والشر في الطبيعة والنفس البشرية، التي ترى في كل واحد منا جانباً خيراً وتقياً ومشرقاً وآخر شريراً وفاجراً ومظلماً، أو على حد وصف المفكر الألماني جوتة (1749-1832) Goethe: الإنسانية جمعاء مختزلة في نفوسنا، ويكمن فيها القديس والمجرم على حد سواء، أو على حد تعبير الأديب الروسي الكساندر سولزنشتاين فإن من المستحيل فصل الخير عن الشر لأن الخط الفاصل بين الخير والشر يمر عبر قلب كل إنسان.

وفسر بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع التباين في السلوك الإنساني باستعمال ثنائية الشخصيتينdichotomy : الأبولونية والداينوسية Apollonian and Dionysian persona، وتمثل الشخصية الأبولونية، نسبةً إلى أبولو رب العقل في الميثولوجيا اليونانية، الجانب العقلاني والموضوعي والانفرادي فينا، بينما يعبر الدينوسي عن الشق العاطفي والاجتماعي، ودينوسوس هو رب العاطفة لدى اليونانيين القدماء، وعلى نفس الشاكلة يقال بأن داخل كل رجل امرأة والعكس صحيح، ويقصد بذلك وجود بعض الجوانب من شخصية المرأة مثل الحب والحنان في كل رجل، وبالمقابل لا تخلو امرأة من بعض الصفات المميزة للذكور مثل الطموح والعدوانية، وكما يقال بأننا مزيج من الأبولونية والديانوسية أو الذكورية والأنثوية كذلك يمكن وصف الإنسان وفق نموذج ثنائية الصياد والمزارع المقترح هنا.

لا يولد الفرد صياداً أو مزارعاً ولكن باستعداد لتبني وممارسة الطريقتين أو المنهجين في الحياة، وأثناء حياته يكتسب من أبويه وأصدقاءه وغيرهم من مصادر التأثير عليه في بيئته الاجتماعية والثقافية عقائد وقيم واتجاهات، تصقل شخصيته، وترسم طريقة حياته، وبنفس الوقت فأن له عقل وفكر مستقلين، فهو إذن ليس مجرد كتلة من طين يصورها الآخرون كما يريدون، فهذا الفرد الواقع تحت تأثير قدواته ومراجعه الاجتماعية والعقائدية والفكرية يمتلك إرادة حرة، ولا شك بأن مجال الحرية المتاح في اختيار الفرد لطريقة حياته مختلف من مجتمع لآخر، كما تتباين ممارسة هذا الهامش من الحرية والاختيار بين فرد وآخر، وتتجه المجتمعات التقليدية والشمولية إلى فرض نماذجها "المثلى" على أفرادها، كما أن الفرد الأكثر استجابة لعوامل التأثير الخارجية Other-directed individual أشد تأثراً بها، ومن المفترض بأننا نكتسب من خلال عمليات التربية وتكوين الشخصية socialization and individuation الفكر والسلوك الخاصين بنموذجي الصياد والمزارع.

إن طريقة حياة الصياد أو المزارع نظام مركب من الدوافع والاستعدادات المؤثرة في السلوك، وكل منهما مستند إلى عدد من العقائد والقيم التي تضفي عليه المشروعية، بحيث يكون مبرراً ومقبولاً كأسلوب حياة سوي وعقلاني، ومحصناً من التشكيك والخوف وعقد الدونية والشعور بالذنب، ولأننا جميعاً نستبطن شخصيتي أو ثنائية الصياد والمزارع يمتلك كل واحد منا الطيف الكامل للفكر والسلوك البشري، وبالتالي نحن مسئولون- وإن بدرجات مختلفة- عن اختياراتنا وقراراتنا وأفعالنا، وما يجعلنا مختلفين ومتميزين عن بعضنا البعض ليس انقسامنا إلى صيادين ومزارعين بالمطلق وإنما درجة ميلنا إلى جانب الصياد أو المزارع داخلنا.

يمكن تصور شخصيتي الصياد والمزارع كامتدادين أو مقياسين متدرجين من قليل إلى كثير أو من منخفض إلى مرتفع، وتقترن بأي مرحلة من حياة الفرد نقطة أو درجة ما على مقياس الصياد وأخرى على مقياس المزارع، وميل هذه الدرجات لأي من المنهجين ليس ثابتاً وغير قابل للتغيير، بل إن من الممكن للفرد التحول من درجة إلى أخرى، وحتى من منهج إلى آخر، ولكن وبصورة عامة يتوقع من الفرد الذي يصنف مع الصيادين التصرف وفقاً لنمط حياتهم وسلوكهم، والذي يختلف جذرياً عن المتوقع والمعتاد في حالة المزارع.

كما أسلفنا لا يوجد صيادون ومزارعون بالمطلق، ولكن وفي الأحوال الاعتيادية لا يمكن الجمع بين مستويات عالية من الفكر والسلوك للشخصيتين أو شقي الشخصية في آن واحد لتناقضه مع مبدأ التجانس الفكري والسلوكي Cognitive and behavioral consistency الذي ينفي إمكانية اعتقاد وممارسة الفرد لأفكار متناقضة أو غير متجانسة، ولا يستنتج من مرونة ميلنا إلى إحدى الشخصيتين سهولة تحولنا من واحدة إلى الأخرى، ولكن من المرجح أن يتصرف معظمنا كصيادين فيما لو جابهتنا تهديدات خطيرة أو ظروف حرمان شديدة، وفي هذه الأحوال ستتقدم الحاجة الأنانية إلى البقاء على كافة الاعتبارات الأخرى، ولذلك يعتبر القتل دفاعاً عن النفس أو العرض أو الممتلكات مشروعاً بل عملاً بطولياً، ومن ناحية أخرى فقد يبدر عن الفرد الذي اختار طريقة الصياد أحيانا سلوكاً جديراً بالمزارع مثل الإيثار والتضحية والاهتمام بالآخرين، وهذا التنوع في سلوك الفرد ممكن وممارس بسبب امتلاكنا لجانبي الشخصية الإنسانية، ولكن ذلك لا يغير حقيقة استحالة أن نكون صيادين ومزارعين بدرجات عالية في ذات الوقت، والمثال على ذلك القائد النازي رودولف هوس، المسئول عن معسكر الإبادة الجماعية في أوشوتز، فالرجل كان صياداً متطرفاً في منصبه الرسمي وما نتج عنه من أفعال لا إنسانية، ولكنه لم يخلو تماماً من طبائع المزارع التي نشطت في نفسه بعد سقوط النازية، وعبر عنها في وصيته لأبنائه بالحفاظ على طيبة قلوبهم، وحتى يكون الصياد المتطرف قادراً على ارتكاب الفظائع مثل التي اقترفها النازيون وغيرهم من السفاحين لا بد له من كبت المزارع داخله، لئلا يعذبه الشعور بالذنب وتأنيب الضمير، لذا فإن عتاة المجرمين عادة ما ينكرون أو يبررون جرائمهم، ونادراً جداً ما يبدون الندم أو يطلبون الصفح، وكذلك يلجأ المزارع إلى التبرير إن اضطرته الظروف القاهرة إلى اتباع طريقة الصياد مؤقتاً، ولكن على الأغلب ستؤرقه أفعاله غير المنسجمة مع قيم المزارع.

ينبغي التذكير بان استخدام نموذجي الصياد والمزارع هنا هو من قبيل التشبية ولغرض التوضيح، لذا لا تنطبق الصفات المقترنة بنموذج الصياد هنا تماماً على القدماء والمعاصرين ممن حصل قوته بهذه الوسيلة، كما لا نتوقع من المزارعين الذين عملوا أو ما يزالون يعملون في حقولهم الاتصاف بكل السمات المبينة هنا لنموذج المزارع، ولو استبدلنا هذين المصلحين بمسميين اخرين فلن يغير ذلك جوهرياً من الموضوع.

من هو الصياد؟

لعل أبرز خصائص الصياد المميزة أنانيته المتطرفة واندفاعه المحموم وراء تحقيق مصلحته الذاتية، فلا غرابة في سعيه المتواصل لبلوغ مآربه الأنانية ولو على حساب مصالح وحتى بقاء الآخرين أحياناً، وهدف حياته الوحيد الاستزادة من كل المنافع، والأنانية وحب الذات egoism والقوة هي وسائله الرئيسية للبقاء في عالم يراه محفوفاً بالمخاطر، ولا يأمن جانب ساكنيه، لذا نجده لاهثاً وراء إشباع ولعه بالقوة والسيطرة أو ما يعرف Animus dominadi، فكلما عظمت قوته كلما قلت حاجته للآخرين، وتدنى اعتماده عليهم واهتمامه برضاهم عنه، ويرفع امتلاكه للقوة والاحتفاظ بها من مكانته على هياكل السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهمه الأول والأخير اكتساب المزيد من القوة بأشكالها المختلفة من ثروة ومناصب رفيعة وشهرة، ويخطئ ناقدوه في تصورهم بأن الصياد لا يجني الرضا من أسلوب حياته، وصحيح أن حياته

شبه خالية من العاطفة وموحشة، ولكن قد يكون ذلك بالنسبة للصياد الملتزم ثمناً مقبولاً لأسلوب حياته والفوائد التي يجنيها منه.

اندفاع الصياد طلباً للقوة

تجتذب الصياد القوة بمختلف أشكالها: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويشترك في هذه الخاصية الملوك-الأبطال في الدويلات القديمة وملوك القرون الوسطى والنبلاء والساسة المعاصرون ورؤساء الشركات الكبرى، ولعل هذا الدافع المؤثر كامن وراء ادعاء فراعنة مصر وبعض ملوك أشور وبابل الألوهية، أو التحدر من صلب الآلهة أو كونهم رسلاً للآلهة وإرغام رعيتهم على عبادتهم، كما دفع هذا الولع بالقوة المطلقة الملوك في القرون الوسطى للمناداة بالحق الإلهي للملوك وجعل طاعتهم فرضاً دينياً واجباً، وهي نفس العلة التي سولت للسلطان التركي العثماني محمد الثالث اعدام 19 من إخوته خنقاً وقتل سبعة من جواري أبيه السلطان مراد اللواتي كن حبالى، ليتخلص بذلك من أبرز منافسيه على السلطان والقوة، وتختلف أسس ومسوغات السلطة في زماننا لكن هذا الدافع ما زال مؤثراً في الفكر والسلوك، ويلاحظ ذلك على المستوى العالمي في تصنيف الدول إلى قوى عظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وقوى متوسطة مثل فرنسا والمملكة المتحدة وقوى محلية مثل الهند، وتحكم كل دولة نخبة من القادة السياسيين والاجتماعيين ورجال الأعمال، ويستقطب الأفراد الأقوياء من الساسة والفنانين المشهورين أعداداً كبيرة من المريدين والمعجبين والأتباع.

إن الشاغل الرئيسي للصياد هو الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من معين القوة قبل بلوغه الشيخوخة، ومن ثم خسارة كل شيء عند الممات، ولكن لماذا يسعى الصياد داخلنا إلى القوة بدون كلل أو ملل أو اكتفاء؟ هنالك تفسيرات عدة لدى الأنبياء والفلاسفة وعلماء الاجتماع، ومن المفيد استعراض بعضها لفهم فكر ونفسية الصياد، الذي يشغل الحيز الأكبر في فضاء حياتنا، ويمارس التأثير الأقوى على مصائرنا، ويرى بعض علماء الاجتماع أن الدافع للتعبير عن الذات من خلال القوة والسيطرة سمة طبيعية في كل إنسان، واستدل مكليلاند (1975) McClelland من نتائج دراسته الشهيرة حول الحاجة للإنجاز والقوة Need for achievement or power بأن القوة اجتذبت الإنسان على مر العصور، ويصر جرين (2000) Greene على أن كل البشر يطمحون للحصول على المزيد من القوة، ولا يوجد أحد يرفضها أو يريد التخلي عن بعض ما لديه منها، أما كوردا (1975) Korda فيرى القوة ببساطة وسيلة للحصول على الكثير مما تشتهيه النفس البشرية من المال والمتعة الجنسية والأمن والشهرة، ولولا شهوة القوة لما كدح البشر.

نتعلم أهمية أو قيمة القوة وفرض الذات assertiveness في مجتمعاتنا، المتقدمة والتقليدية على حد سواء، ويتجلى ذلك بوضوح في سلوك سكان قرية الكايه Kayah في ماينمار، الذي يبدي الواحد منهم خضوعاً واستعداداً لتنفيذ الأوامر الصادرة من شخص يفرض نفسه عليهم، ويخاطبهم بنبرة عالية، وكتب فون فورور هيمندورف (1967) Von Furer-Heimendorf بأن هؤلاء القرويين يعتبرون هذا السلوك دليلاً على امتلاك صاحبه مواهب قيادية، وقد يكون مؤيداً بقوى غيبية. كيف تعلم هؤلاء القرويون وغيرهم أهمية القوة وضرورة السعي وراءها؟ لا يحتاج الاستدلال على أهمية القوة أكثر من النظر حولنا لنتأكد بأن الأقوياء غالباً ما يكونوا أثرياء، متنفذين، مشهورين، مهابين، ولديهم معجبون وأتباع، وبالتالي فالانضمام إلى الأقوياء في برجهم العاجي أو نواديهم الخاصة أفضل من المكوث بين صفوف المحرومين والمستضعفين، ويكفيك أن خبراء الصحة النفسية وتطوير المنظمات يعزون شعور الفرد داخل وخارج العمل بالاغتراب أو التهميش إلى اقتناعه بانعدام أو قلة تأثيره، لذا فالعلاج الذي يقترحونه لهذه الحالة السلبية هو إمداد هؤلاء المستضعفين بالقوة empowerment.

قبل حوالي القرن ونصف اقترح فرانسوا جويزوت، وهو أحد وزراء الملك الفرنسي لويس فيليب علاجاً لكافة المشاكل الاجتماعية والسياسية، مختزل في كلمتين فقط: اسعوا للغنى! (Sonn, 2010)، وكل الصيادين موقنون بأن الثروة صنو القوة، ولو حصلت على أحداهما لجاءت إليك الأخرى تسعى، وإنه لا رضا ولا راحة في هذا الدنيا بدونهما، ولربما ثلة منهم قرأوا رأي نبي الرأسمالية آدم سميث في ولع البشر بالممتلكات والثروة، لقد وصفه بالخدعة، لأنه يعتقد -كما اقتبس منه إجناتييف (Ignatieff 1984: 111) -بأن السعادة لا تتأتى عن طريق جني الممتلكات، ولكنه يضيف بأن من المفيد أن تفرض علينا الطبيعة ذلك، أي الحب الجم للمال والمقتنيات الأخرى، لأن هذه الخدعة هي التي تدفع البشرية للعمل.

وهكذا يقع الصياد داخلنا ضحية لخدعة البحث عن السعادة في حفنة من الذهب، ويوجد تعبير شائع في المجتمعات الغربية بأن عند نهاية كل قوس قزح يوجد وعاء مملوء بالذهب، أما الصياد فيرى أن الذهب هو الذي يصنع قوس قزح وكل ما يمكن أن يرمز إليه من سعادة ورضا ورخاء، ونجد تطبيقاً لذلك في حكاية للأخوين جريم Grimm بطلاها صياد سمك وزوجته الجشعة، ففي أحد الايام اصطاد هذا الرجل الفقير سمكة، وبعد أن تبين له بأنها أمير مسحور أعادها إلى الماء، وبعد علم زوجته بذلك ألحت عليه بمطالبة السمكة بتلبية أمنية تلو الأخرى، كانت أول طلباتها منزل متواضع، ثم تمنت قلعة، وبعدها مملكة، ولم تتوقف عند ذلك فتجرأت على طلب إمبراطورية، وأتبعتها بسلطة بابا روما، ولأن حب القوة لا سقف له، والمصابة به لا تشبع سألته أخيراً منحها القدرة على جعل الشمس والقمر يسطعان متى ما شاءت، فانقلب السحر عليها، لتجد نفسها قابعة في كوخها القديم المزري، ومن الواضح بأن مؤلفي هذه الحكاية يحملان قيم المزارع، وحكمتها مستمدة من فكر المزارع، لذا لا يتوقع أن يكون لها تأثير يذكر على فكر وسلوك الصياد.

وقد يلجأ الصياد إلى تبرير بحثه عن القوة بالادعاء بأنها مجرد غاية لبلوغ هدفاً أسمى، ولكن ذلك لا يعدو أكثر من خداع وتمويه، وعلى سبيل المثال تذرع النازيون بأن تطلعاتهم للسيطرة على العالم ما هي إلا قدر الأمة الألمانية المتفوقة عنصرياً، كما أدعى بعض القادة الشيوعيين بأن احتلالهم لدول عديدة وقهرهم لشعوبها هو بدافع نصرة الطبقات الكادحة المسحوقة، وكذلك يلاحظ استغلال الولايات المتحدة الأمريكية للشعارات البراقة بالدفاع عن حقوق وحريات الشعوب كغطاء لتدخلها السافر في الشؤون الداخلية للدول الأخرى وسعيها لفرض هيمنتها عليها.

قد يكمن وراء ولع الصياد بالقوة الرغبة في التملص من سيطرة الآخرين عليه، ويؤكد جوتلر ومينتجر (ص1993:154) Goutler and Minninger بأن دافع الرجل لطلب القوة والسيطرة ناجم ليس عن قوة داخلية وإنما عن ضعف وخوف، وبالتحديد خشيته من الوقوع تحت تأثير وسيطرة أقرب النساء إليه، وبالأخص أمه، فالرجل بحاجة إلى القوة لكي يشعر بأن رجولته كاملة وغير منقوصة، ويحرمه افتقاره للقوة من الحرية والاستقلال، ويبقيه جاثماً في ظل أمه، وخاضعاً لسيطرتها ومشيئتها، ووفقاً لهذا التحليل فإن عدم امتلاك الفرد للقوة يجعله بالضرورة تابعاً للأقوياء، وبالتالي فإن الصيادين الأقوياء متفقون مع روبرت هوك، رئيس وزراء أستراليا الأسبق، في قوله بأن" لا غنى للضعفاء عن رعاية الأقوياء لهم، لذا فالاعتقاد بأن الأرض يرثها المستضعفون... (كلمة بذيئة معناها محض هراء)".

أخيراً وليس آخراً يطلب الصياد القوة حثيثاً من أجل القوة نفسها، فالقوة بحد ذاتها وما تمنحه للصياد من احترام وهيبة ترضي ذاته المتضخمة، لذا فالقوة المطلقة مفسدة كما تشهد على ذلك أفعال الطغاة، ويساوي أريك فروم Fromm (1947) بين طلب القوة المطلقة والسادية، إذ عرف السادية بأنها" الهوس بالسيطرة المطلقة وغير المقيدة" على كائن أخر، سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً أو حتى حيوان، ونجد تعريفاً لحب السيطرة ايضاً في وصف الملك لير لنفسه، وهو أحد شخصيات وليام شكسبير المشهورة: " كانت أهدافي تشمل ترك انطباع جيد عني لدى الغير، والحط من مكانة الآخرين، وإخافتهم، والتقليل من أهميتهم"، والشيطان بالطبع هو النموذج الأكمل للمهووس بالقوة والسيطرة megalomaniac ويتخيله الشاعر ملتون Milton في

ملحمته الشعرية الفردوس المفقود Paradise Lost مردداً: " أُفضل أن أكون ملكاً في الجحيم على أن أكون تابعاً ومحكوماً في السماء."

الصياد عقلاني ولا عاطفي

يتبجح الصياد بعقلانيته، وتفرض هذه العقلانية على الحكومات المسيرة بأمر الصياد السعي وراء مصالحها الوطنية وعلى المنظمات المملوكة أو المدارة من قبل صيادين تحقيق مصالحها المؤسسية أو مصالح مالكي أسهمها وعلى الأفراد المعتنقين لفكر الصياد بلوغ مصالحهم الشخصية قبل أي شيء آخر، ويفترض في الصيادين التصرف بعقلانية والانطلاق في اختياراتهم وقراراتهم من اعتبارات المصلحة والحقائق وتجنب التأثر بالعوامل اللاموضوعية مثل العواطف والعلاقات الاجتماعية وغيرها مما يصنف ضمن التحيزات، فلا بد من إخضاع كل شؤونهم الخاصة والعامة للمنهج العقلاني، وهي أيضاً الوسيلة الوحيدة المقبولة لحل كافة المشكلات.

وعلى النقيض من الافتراض السائد بأن المنهجية العقلانية هي وليدة العصر الصناعي والعلمي يبدو بأن الصياد عرف هذه المنهجية، على الأقل بصورتها المبدئية، منذ القدم، واستخدمها كلما اقتضت مصلحته التجرد من الروابط العاطفية والنأي بنفسه وفكره عن القيم والأخلاق الإنسانية السامية وما تفرضه من سلوكيات واتجاهات من قبيل حسن الظن والثقة بالغير ومعاملتهم بالحسنى، والمثال على ذلك معاملة أسلافنا الصيادين للطاعنين في السن والعجزة، وهي معاملة عقلانية خالصة، ولا تختلف جذرياً، وفي المضمون لا الشكل والأسلوب، عن تعاملنا معهم في زماننا الحاضر، فعندما هددت قلة الموارد الغذائية بقاء أسلافنا سولت لهم عقلانيتهم الأنانية قتل الأطفال وكبار السن والعجزة بوسائل مختلفة، مثل تشجيعهم على الانتحار أو نبذهم في العراء أو الوأد، ومن الواضح بأننا ما نزال نرى في كبر السن كل العوارض التي يخافها الصياد، وهي المرض والعجز والخرف والاتكال على الغير، وكلها صفات للحالة المناقضة لنموذج الصياد القوي والمقتدر، وما أشبهنا بأولئك الأسلاف في نظرتنا المشوبة بقلق شديد إلى ظاهرة تنامي أعداد كبار السن فوق سن التقاعد، والتي أصبحت تعرف بمشكلة "الشيب" graying problem ، وترتفع اليوم الأصوات المطالبة بإيجاد حلول لمعالجة آثارها الاجتماعية والاقتصادية السلبية، وبالأخص احتمال تقويضها لنظم الرفاهية الغربية، ولا يتوقع الآن من كبار السن الانتحار، لكن نسبة المنتحرين بينهم من أعلى النسب في المجتمعات الصناعية، والانتحار أحد الأسباب الرئيسية لوفاة المسنين الذين تزيد أعمارهم على الخامسة والستين وفقاً للباحثين توبياس وباري وليبمان (Tobias, Pary and Lippmann (1992، كما أن ما يسمى بقتل الرحمة mercy killing يلقى قبولاً أوسع، وشرعته بعض الدول، فيما يسعى ساسة في دول أخرى لذلك، وإذا لم يدخر الكثيرون من المسنين في الدول المتقدمة اقتصادياً ما يكفيهم من المال في شيخوختهم فسيكونون محظوظين لو وجدوا سريراً في بيت للعجائز.

قيم وأخلاق الصياد

هل يصبح الصياد أقل التزاماً بالقيم والأخلاق نتيجة عقلانيته؟ ليس الصياد عديم القيم والأخلاق بالضرورة، والعالم يزخر بصيادين مطيعين للقوانين وملتزمين بقيم وقواعد مجتمعاتهم، ولكن يتبنى الصياد مفهوماً مصلحياً للقيم، ولكونه مدفوعاً بمصالحه الشخصية يحكم على ما يفيده من الفكر والعمل بالجودة والأخلاقية وعلى كل ما يضره بالرداءة والشر، ولا يوجد في قواعده القيمية والأخلاقية حد فاصل واضح بين الخير والشر، لأن تقييمه للأمور يعتمد على الفائدة التي يجنيها من خواتيمها أو نتائجها، لذا فقد تتذبذب قيمه وأخلاقياته من حالة إلى أخرى، فهو يتحمس ويتمسك بمبادئ العدالة وسيادة القانون لفوائدها في استقرار نظامه السياسي

والاجتماعي واستتباب الأمن فيه لا إيماناً منه بسمو هذه القيم، وما قبوله بالقيود التي تفرضها هذه المبادئ وغيرها من القواعد المنظمة للنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية إلا لكونها آليات ضرورية لحمايته من طغيان وتعسف الصيادين الأقوياء وكضمانة، على الأقل نظرياً، لحقه في المشاركة بعملية التنافس، ويعبر برنز Prinz (2007) عن فكر الصياد عندما يبين بأن اعتبار السرقة جريمة نابع من حرصنا على حماية ممتلكاتنا من السرقة، والدافع هنا أناني ومصلحي بحت، ومن نفس المنطلق نضع العدالة على قائمة قيمنا الاجتماعية ونختلق أو ندعي تمسكنا بها عاطفياً، ويتفق الصياد مع رأي رنجر Ringer (1977) في أن القيم الأخلاقية قضية شخصية، وليس من حق أي إنسان فرض معاييره القيمية على آخر.

يؤمن الصياد بأن الغاية تبرر الوسيلة، وقد تنطوي هذه الوسائل على مخالفة للقوانين، وحتى اقتراف الجرائم، ويؤيد الكثير من الصيادين المتطرفين الرأي الوارد على لسان راسكولينكوف، إحدى شخصيات رواية الجريمة والعقاب لدستويفسكي، إذ يردد بأن البشر نوعان: خاسرون ورابحون، والخاسرون هم الضعاف الخانعون، والأقوياء هم السوبرمان كما وصفهم الفيلسوف نيتشة، ويرى بأن من حق الأفراد الأقوياء فوق العاديين ارتكاب الجرائم ومخالفة القوانين لأنهم فوق عامة البشر وغاياتهم حميدة ومفيدة، وغني عن القول بأن كافة الصيادين يرون أنفسهم فوق مستوى البشر، وبالتالي فلا ينطبق عليهم ما يسري على الغير، والبعض قد يذهب إلى أنهم من المصطفين، متفقاً مع رأي تاسيتوس Tacitus الذي عاش قبل ألفي سنة بأن "الأرباب في صف القوي"، والذي نجد صداه في قول الملك فردرك الكبيرFrederick the Great بأن" الله دائماً مع الكتيبة الأقوى"، والمهم في عرف الصياد القوة والانتصار كما أكد أدولف هتلر، وهو النموذج الأكثر تطرفاً للصياد في القرن العشرين، إذ قال:" في شن الحروب المهم هو النصر لا أن تكون محقاً."

ولأن الصيادين يعتقدون بأنهم فوق مستوى البشر الآخرين، ويحظون برعاية سماوية أو استثنائية، يرون بأنهم مستحقون لمعاملة خاصة وأفضلية أمام القضاء، وكثيراً ما يلقون مثل هذا التفضيل بالفعل، حتى يظن البعض وجود معيارين للعدالة في الواقع، أحدهما للأقوياء والآخر للضعفاء، واعتبر النبي محمد (ص) هذه الازدواجية في تطبيق القوانين والأعراف سبباً رئيسياً لاضمحلال الأمم، وقد تبينت هذه الحقيقة للملك لير في مسرحية شكسبير بعد فقدانه لملكه وقوته، واصفاً ذلك بمرارة:

أطلي الخطيئة بالذهب
فيتحطم عليها رمح العدالة
ودرعها [أي العدالة] بالأسمال
يخترقها عود واه بيد قزم.

ولاحظ فيانو وكوهن Viano and Cohn (1975) وجود مكيالين للعدالة في الولايات المتحدة الأمريكية، التي يعامل القضاء فيها أثرياءها وأقوياءها برقة، فيما يقضي على فقرائها بأشد العقوبات.

وفي كتابه المرجعي المشهور حول نظرية العدالة ميز جون راولز John Rawls (1971) بين ثلاثة أصناف من الشخصيات السلبية المنافية للعدالة: الظالم والسيء والشرير، والظالم أو غير العادل هو من يسعى للسيطرة من أجل جني منافع خاصة مثل الثروة والأمان، أما السيء أو الطالح فيطلب القوة الاعتباطية حثيثاً، لأنه يتمتع ويتلذذ بأحاسيس السيطرة، لكن الشرير يروم الحكم غير المشروع والمتعسف، لأن ذلك بحد ذاته نقيض لما يريده غيره، وهو بذلك يحقق هيمنته على حساب كرامة الراضخين له، ومن الملاحظ بأن كل النماذج السيئة الثلاثة وإن كانت تختلف في درجة ميلها عن العدالة متطابقة في سعيها وراء القوة والسيطرة والمعاملة الخاصة، وهي من صفات الصياد المميزة.

ولاحظ ديو Dews (2008) وجود تباين جلي في التعامل مع العملية الإرهابية في الحادي عشر من أيلول وما تلاها من أعمال عسكرية انتقامية، فمن ناحية تخلدت ذكرى ضحايا العمل الإرهابي من الأمريكيين بنشر وتعليق صورهم وخلاصات لسير حياتهم في الصحف وغيرها من الطقوس المهيجة للعاطفة، لكن ومن ناحية أخرى لم تبدي حكومات الدول المشاركة في القصف الجوي والهجوم والاحتلال الأمريكي لكل من أفغانستان والعراق اهتماماً بتعداد ضحايا هذه العمليات الانتقامية، وهذا المعيار القيمي المزدوج إحدى سمات شخصية الصياد، وهو يكيل بهذا المعيار كلما دعت مصالحه لذلك، ونلاحظ أبشع أشكال ازدواجية معايير الصياد في تباين قيمة حياة الإنسان في نظره، فهي ليست مطلقة بل مرتبطة بهوية الفرد، لذلك هو المخاطب بالاتهام الصريح الوارد في بيت الشعر: قتل أمرئ في غابة جريمة لا تغتفر، وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر.

وبما أن خدمة مصالحه الشخصية أهم من الاستقامة والنزاهة يكون الصياد أكثر استعداداً لتغيير معتقداته وقيمه وولاءاته كلما فرضت حساباته المصلحية ذلك، ويلاحظ حدوث ذلك بعد تغيير سياسي مفاجئ كما هو الحال في الثورات، ووفقاً لميلر Miller (1977) فإن كثيراً من الناس يغيرون عقائدهم والتزاماتهم الأيديولوجية بدون الاعتراف بذلك أو حتى إدراك ذلك أحياناً.

وقد تكون مطاطية المعايير القيمية والأخلاقية للصياد السبب وراء تضارب واضطراب أراءه ومواقفه المعلنة من بعض القضايا، فعلى سبيل المثال لم يجد الرئيس الأمريكي ترومان بأساً في إحراق طوكيو من قبل القوات الأمريكية إبان الحرب العالمية الثانية، والتي راح ضحيته ما يقارب المائتي ألف مدني ولا قصف هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية وإهلاك نفس العدد تقريباً من المدنيين العزل، لكنه كان معارضاً صلباً لهواية صيد الحيوانات، وعبر عن ذلك في قوله بعدم جواز إطلاق النار على حيوانات لا تستطيع الرد عليك بالمثل! وهذا المنطق الفاقد للاعتبارات الإنسانية مثال على فكر ومنهج الصياد، وهو ماثل أيضاً في سلوك "النبلاء" من فرسان القرون الوسطى والسادة "المهذبين" ورعاة البقر الأمريكيين، الذين ادعوا أن عرفهم القتالي يمنعهم من منازلة أو مبارزة الرجال العزل أو من هم دونهم في المرتبة الاجتماعية.

بالنتيجة يعتبر الصياد التمسك بقواعد قيمية وأخلاقية ثابتة سذاجة، وينبع هذا الاقتناع من معرفته بأن هذه القواعد استنها صيادون مثله لحماية امتيازاتهم وسلطاتهم، ولأنها أيضاً، في رأيه، غير عملية وغير قابلة للتطبيق، ولو تطلب بلوغ أهدافه ممارسة الغش والخداع والكذب لما تردد في ذلك معتبراً إياها شروراً لا بد منها، وهو أشبه بالباحث الشاب في رواية هنري جيمس Henry James الموسومة: أوراق أسبن The Aspen Papers ، الذي لم يتوانى في استعمال المكر والتملق والكذب والسرقة من أجل تحقيق أغراضه، ولا يرتاح حتى تتحقق له السيطرة الكاملة على الآخرين كما يسيطر مصاص الدماء على ضحاياه، وتنطبق على أخلاقه تسمية سنكلير لويسSinclair Lewis بـ" أخلاق الدولار"، أما لير Lair (1977:22) فقد استعمل مصطلح نزاهة صندوق النقودcash register honesty ، وعرفه بأنه مفهوم ضيق وقانوني للنزاهة، ومن المرجح أن يكون مبتدع عبارة" الكذبة البيضاء" صياد، ومن المثير للانتباه أن بيك Peck (1983) اختار لكتابه المتضمن نتائج دراسته لبعض الشخصيات الشريرة بما في ذلك الجنود الأمريكيين الذين اقترفوا مذبحة مايلاي My Lai في فيتنام عنوان: جماعة الكذبة، People of the Lie، لأن هؤلاء الأشرار يخدعون أنفسهم بالتظاهر بأنهم أخيار.

يستعمل الصياد النفاق، ويستسيغ التملق والمداهنة، وهي سلوكيات تنطوي غالباً على الكذب والاختلاق، وما أشبه الصياد بالليدي بريتومارت، إحدى شخصيات مسرحية الميجر باربرا، Major Barbara لجورج برنارد شو Shaw، التي تؤمن بضرورة التملق والمداهنة كأدوات لترطيب العلاقات الاجتماعية، وغالباً ما يستعمل الصياد هذه الأدوات الرخيصة لكسب رضا ورعاية الصيادين الأقوى منه، والذين يتقبلونها ويكافؤون عليها متملقيهم على الرغم من علم الأطراف المعنية، وبصورة واعية أو غير واعية، بأنها كلها محض زيف، ويروي ماكوبي Maccoby (1976:78) بأن النرجسية المفرطة لرجل الأعمال الأمريكي الثري أندرو

كارنيجي جعلته يحيط نفسه بحاشية من المتملقين المنافقين، وقد استنتج فروم (1947: ص 69) Fromm من ظاهرة انتشار النفاق في المجتمعات البشرية بأن من النادر أن يكون نجاح الفرد فيها بفضل مهارات أو سمات إيجابية مثل النزاهة والاستقامة والصدق.

مبدأ الصياد: تنافس أو اندثر

يعتبر التنافس الآن الطريقة المثلى لتحقيق الأفضل مما يصبوا إليه الفرد أو المجتمع، والمنهج الأنجح لتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والذي يفوق في أهميته وفائدته المعايير القيمية والدينية، والتنافس بالنسبة للصياد ومؤسساته هو جوهر الحياة والعيش الحضاري ومحركها الأساسي، وبدونه سيتوقف التطور أو حتى ينتكس، ويقاس مدى تطور النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية اليوم وفي كل المجتمعات تقريباً بمدى توفيرها للشروط والظروف الإيجابية لتحفيز وإدامة التنافس، وفي الحالة المثالية من وجهة نظر الصياد لا ينبغي فرض قيود على هذه العملية باستثناء تلك الضرورية لضمان حق الجميع في ولوج حلبة التنافس وإرساء الحدود الدنيا المنظمة لها، وما دام الفرد لا يخالف هذه القواعد فلا يجوز وضع محددات اجتماعية أو أخلاقية أو دينية عليه.

يشبه الصياد الحياة غالباً بأنها بمباراة، لا مناص للأفراد من التنافس فيها من أجل البقاء والنجاح، وبينما كان أسلافه يرثون القوة بحكم انتمائهم إلى طبقة اجتماعية يتحتم عليه اليوم التنافس عليها، وهو يفضل التنافس على التعاون، لأن التعاون يعني إشراك الآخرين في حصاده من الانتصارات والمزايا، ويجد كل منا نفسه مستهدفاً بسيل منهمر من التعليمات والتوجيهات والنصائح في البيت والمدرسة والعمل، والتي تحثه على التنافس بحماس وقوة، واكتساب الاتجاهات الفكرية والسلوكيات المنسجمة مع روح التنافس، وتلجأ الشركات إلى مستشارين مختصين لتحسين قدراتها التنافسية، ويجني هؤلاء المستشارون مبالغ ضخمة مقابل الاستشارات والتدريب في هذا المجال أما الذي يرفض المشاركة في التنافس فيوصم بالفشل، وبكونه غير متكيف اجتماعياً ونفسياً إلى درجة تستوجب أحياناً العلاج، وباختصار لا يوجد بديل في عالمنا للتنافس، فأما أن تنضم للمتنافسين أو تقبل بالتهميش والنسيان.

وعلى النقيض من ادعائهم الالتزام بمبدأ تساوي الفرص أمام الجميع في المشاركة بالعملية التنافسية سعى الصيادون الأقوياء مدفوعين برغبتهم في حماية مصالحهم إلى تقنين أو حتى تقييد مشاركة جماعات وأفراد في مجتمعاتهم، مستخدمين في سبيل ذلك شتى الطرق والأساليب المباشرة وغير المباشرة، التي تتراوح بين التمييز المستتر والعنصرية المعلنة، وعلى سبيل المثال ما يزال تسلق السلم الاجتماعي صعباً على بعض الأقليات والنساء وكبار السن في المجتمعات الغربية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد يقال بأن المكانة السياسية والاجتماعية لكل مجموعة أمريكية تتقرر حسب بعدها الإثني واللغوي من الأنجلوساكسون وطول تاريخ وجودها في البلد لا وفقاً لقدراتها وإنجازاتها، ويلاحظ الكاتبان أورنشتاين وايرليك Ornstein and Ehrlich (1989) بأن كل مجوعة إثنية مستقرة في أمريكا تعرضت للتمييز والمعاملة على أساس الأصل الإثني.

يؤثر تعصب الفرد لجماعته الإثنية أو قبيلته أو طائفته الدينية في فكره وسلوكه، والصيادون أكثر استعداداً من المزارعين للتفكير والتصرف تحت تأثير العصبية، ويتبين ذلك في التباين الحاد بين تقييمهم لجماعتهم الإثنية وما عداها من الجماعات في أذهانهم، فبينما يشيدون بجماعتهم لأنها أكثر رفعة وعظمة من الجماعات الأخرى ينظرون بفوقية إلى الجماعات الأخرى لكونها في تقديرهم أقل تحضراً منهم، وعلى سبيل المثال كان اليابانيون قبل انفتاحهم على العالم يعتبرون الأقوام الأخرى "بربرية".

استعمل الصياد العنصرية بفاعلية لإقصاء آخرين من المشاركة في العملية التنافسية، ويصف عالم النفس أدلر (1979) Adler العنصرية بأنها أسهل وسيلة للفرد لإضفاء أهمية وقيمة على

نفسه من دون صرف أموال أو جهد أو حتى تقديم برهان على عظمته وتميزه، إذ أن اعتقاد العنصري بسمو عنصره على الغير مبرر كاف بالنسبة له لتعظيم مكانة جماعته والتعالي والتكبر على غيرها، وكم واحد من الذين يجاهرون بمعارضتهم للعنصرية واحتقارهم للعنصريين قادر على ضبط مشاعره من الانحدار إلى الرد بالتعامل العنصري على أذى صادر من شخص ينتمي إلى عنصر أخر؟ ويؤكد اكسلرود Axelrod (2006) بأن التعصب الأثني أو العنصرية أحد الأسباب الرئيسية لنشوب الخلافات والصراعات.

غالباً ما قادت أفكار الصياد العنصرية إلى نتائج وخيمة، خاصة إذا وجدت طريقها للتشريع القانوني، كما يلاحظ في قوانين الهجرة الأمريكية المشرعة من قبل مجلس النواب في مراحل تاريخية سابقة، والتي خدمت أغراض الصيادين المهيمنين في الحد من أعداد المهاجرين من أصول عرقية معينة، لأنها في قاموسهم العنصري "منحطة"، كما أكد أيزنك (1973) Eysenck، ومن المعروف أن التشريعات في بعض الولايات الأمريكية ميزت عنصرياً ضد الأمريكيين السود لأكثر من قرن بعد إلغاء الرقيق، وتجاهلت الحكومات الأوروبية متعمدةً، أو حرضت على اضطهاد اليهود المنظم لقرون حتى بلغ ذروته في حملة الإبادة على أيدي الألمان النازيين، وفي التاريخ غير البعيد ذهب مئات الألاف من مسلمي البوسنة ضحايا "التطهير العرقي"، وبينما اضمحل نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا نتيجة المقاومة الداخلية والمقاطعة الخارجية يستمر نظام مماثل في احتلال أراضي الفلسطينيين وحرمانهم من أبسط حقوقهم وبحماية ودعم دولي واسع.

السبق والفوز

يتطبع الصياد القابع في قرارة كل منا على حب التنافس والتمتع بالإثارة الناتجة عنها، والرضا الذي نحصله من التنافس بدني وعقلي ونفسي، وتتحقق أعلى درجاته بالسبق والتغلب على المنافسين، ويتضح ذلك بجلاء في المسابقات الرياضية، والتي ينصب اهتمام المشاركين فيها على الفوز بالجائزة، سواءً كانت كأساً معدنياً رخيصاً أم مبلغاً كبيراً من المال والشهرة، وفي سبيل الفوز والشهرة فقد يخالف الصياد الرياضي القانون وقواعد التنافس الرياضية، والمثال على ذلك الأمريكي لانس أرمسترونج الفائز بسباق الدراجات الفرنسي سبع مرات قبل اكتشاف استخدامه منشطات ممنوعة مما أدى إلى إلغاء بطولاته، ولم تتورع إحدى البطلات الرياضية في رياضة التزلج عن ارتكاب جريمة استئجار خدمات مجرم لإتلاف عظم الركبة لمنافستها.

إن فكر وسلوك الصياد محكومان بدافع قوي للفوز وخشية من الفشل، وهو يرى العالم حقلاً غنياً بالفرص والمكاسب، والتي لا يفوز بها سوى الجسور المخاطر، فإذا لم يكن مستعداً للمخاطرة وتحمل القلق حيال المجهول وتقبل احتمال الفشل وتبعاته فلا بد له من تخفيض طموحاته إلى مستوى أدنى، يتناسب مع استعداده للمخاطرة وتحمل نتائجها، وسواء كانت مباراة رياضية أم مسابقة ثقافية أو صفقة تجارية أو حتى نقاش حول أمر ثانوي لا يقبل الصياد ولا يرضى بأقل من فوز باهر، وقد عبر عن ذلك نابوليون بأدق تعبير عندما قال بأن الموت لا شيء ولكن إن مت مهزوماً ومغموراً فإنك تموت كل يوم، وهو أيضاً وصف الصياد في قوله بأن الجندي جاهز للقتال لوقت طويل وبضراوة في سبيل شريط ملون، أي نيشان يعلق على صدره.

تهفو نفس الصياد إلى الألقاب والأوسمة والنياشين والجوائز بأنواعها، لكونها شهادات على نجاحه وانتصاراته، ومن قبل نحت أجدادنا البدائيون الرسوم على جدران كهوفهم لتوثيق وقائع الصيد، وفي بعض القبائل البدائية كان المحاربون يقطعون رؤوس أعدائهم ثم يحنطونها ويعلقونها – مثل النياشين- على رقابهم، ويبدو بأن هذه العادة ظلت مستترة في طبائع البعض، وظهرت على السطح ثانية في سلوك جنود بعض الدول "المتحضرة"، فلم يترددوا في المثلى بجثث أعدائهم، ليقتطعوا منها تذكارات على انتصاراتهم، شملت الأذان والأنوف وغيرها من رموز الانتصار الهمجية، ولا يختلف صيادو هذا الزمان عن أسلافهم في ولعهم بعرض شواهد

على قدراتهم ومهاراتهم في الصيد من خلال تعليق رؤوس حيوانات محنطة على جدران بيوتهم والتباهي بها أمام ضيوفهم، ويتصرف بطل رواية الرجل العجوز والبحر لأرنست هيمنجواي مثل أي صياد رياضي – وكان الصيد الهواية المحببة لكاتب الرواية – في تصميمه على العودة لقريته بأشلاء السمكة التي اصطادها، لا ليقتات منها بل كدليل على احتفاظه بقدراته ومهاراته في الصيد على الرغم من كبر سنه.

يحصد الفائزون في العملية التنافسية الجوائز والمكافآت المالية وكذلك الاحترام والمكانة الاجتماعية والجاه وحتى التقدير الأخلاقي، وفي معرض حديث أحد المعلقين الرياضيين على أداء لاعب رياضي أشار إلى أنه" اكتسب مؤخراً الاحترام" نتيجة تفوقه على أقرانه، فالفوز لا حسن سلوكه أو سمو أخلاقه أكسبه الاحترام في نظر المعلق. وبينما كان أفراد الطبقة العليا يحتكرون الاحترام بالوراثة أصبح اليوم رهناً بالنجاح، ومن حق هؤلاء الناجحين المعاصرين التفاخر بأنهم اكتسبوا الاحترام بفضل مهاراتهم وجهودهم، لا نتيجة مزايا طبقية متوارثة، وليس مطلوباً أو متوقعاً من الناجحين التعاطف أو حتى الشعور بالرثاء تجاه الخاسرين، الذين عليهم تقبل نتيجة التنافس بصمت والقناعة بالمكانة الاجتماعية المتدنية وفقاً لقواعد اللعبة التنافسية، أما الفاشلون مرة بعد أخرى فمصيرهم الفقر والبطالة والتهميش والاحتقار أيضاً.

يحرص الصياد المعاصر على تحقيق أهدافه والظفر بجوائزه السنية بأقصر وقت ممكن، وهو يرى الوقت قيداً صارماً عليه، يحتم عليه العمل بجد وهمة لبلوغ مآربه قبل هرمه وأفول عمره، ولا ريب في أن الوقت في نظره سيف بتار إن لم يقطعه وصولاً إلى مبتغاه فإنه قاطعه بالموت لا محالة، فالوقت في لغة الصياد يطير وقابل للنفاذ، وتفسر هذه النظرة للوقت إصراره على الدقة في المواعيد والكفاءة في استعمال الوقت، ويحرص الصياد على إدارة وقته لتحقيق أقصى استفادة ممكنة منه في حياته الشخصية والعملية، وفي سبيل اكتساب المهارات الخاصة بذلك يشارك الكثير من المديرين والعاملين في المؤسسات الحكومية والخاصة سنوياً في دورات تدريبية في إدارة الوقت.

ترى الصياد يبحث دوماً عن أي وسيلة تساعده في أداء مهمة أو قضاء حاجة أو خدمة في أقصر وقت ممكن، ومن الأمثلة على ذلك وسائل الاتصال الحديثة وأجهزة الحاسب السريعة والقراءة العاجلة والقهوة الجاهزة والأطعمة المطبوخة سلفاً، وأعماه هذا الهوس بالسرعة عن سطحية الوصفات الجاهزة للكفاءة والحلول المعلبة لمشكلاته الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية، والتي تروج لها الألاف من المطبوعات المنشورة سنوياً في الغرب، وكما سنرى في فصل لاحق من فصول هذا الكتاب فقد لا يتوانى في تسريع عملية نمو ونضج أولاده عبر مرحلتي الطفولة والمراهقة من أجل ايصالهم بسرعة إلى مرحلة الرشد، حيث يبدؤون التنافس مع الآخرين من أجل المكاسب، وكثيراً ما نسمع عن أمثال هؤلاء الصيادين الذين ساقوا أنفسهم وجلدوها بأسواط الأنانية واستعجال النجاح والشهرة على حساب عافيتهم ورضاهم النفسي فانتهى بهم المطاف إلى "الاحتراق الذاتي" وميتة مبكرة.

أدوات الصياد

يحتاج الصياد إلى أدوات صيد، وفي الماضي السحيق كانت أسلحته البدائية مقتصرة على الفأس والرمح والسكين والقوس، أما الأن فلديه ترسانة من الأسلحة الفتاكة تكفي لقتل كافة الكائنات الحية على الأرض، ومن أدواته أو وسائله الفعالة أيضاً العقائد والنظم الاجتماعية، التي ابتدعها أو طوعها على مر العصور لتخدم أغراضه ومصالحه، وما زال يعتبر امتلاك الاتجاهات الفكرية المناسبة وخلق انطباعات إيجابية عن نفسه لدى الآخرين شرطان لازمان لبلوغ غاياته.

تعلم الصياد الدروس حول أهمية المظاهر والسمعة، وغيره من الدروس المفيدة للبقاء والتكاثر والسيطرة من أكبر وأعرق مدرسة في الحياة، إلا وهي الطبيعة، فقد تعلم من الأسد أن

السيطرة والسيادة يتحصل عليها أحياناً من لا يستحقها بجدارة ولا يبذل من أجلها جهداً كبيراً، والفيل أضخم وأقوى وأذكى من الأسد لكنه لا يضاهيه في الشراسة، وما تبختر الطاووس بريشه الملون سوى زهو فارغ، لكنه مثير للإعجاب والحسد، ولا شك بأن الصياد فينا هو الذي أطلق لقب سيد الغاب وملك الحيوانات على الأسد إعجاباً منه بمكانته وشكله المهيب، وعلى غرار ذلك فقد لا يكون الصياد بيننا هو الأذكى والأجدر، لكن ولعه بالقوة وسعيه الدؤوب للاستزادة منها تمنحه ميزة كبيرة على غيره، وبما أن الانطباع الذي يتركه الفرد قد يكون بقوة وتأثير الواقع الفعلي، أو حتى أشد تأثيراً منه أحياناً، فقد يكفي ترك انطباع يوحي بالقوة والمقدرة للحصول على رضا وإعجاب الآخرين والنجاح.

يعتقد أريك فروم (ص1947:68) Fromm بأن الإنسان المعاصر الذي يعتبر نفسه مجرد سلعة يركز جهده على تسويق نفسه، وتسويق الذات مهارة يتقنها الصيادون، ففي العصور السحيقة تقمص الصيادون مظاهر الأبطال والأفراد الخارقين، ولم يتورع البعض منهم من ادعاء الألوهية، ووصف مريدوهم شخصيات هؤلاء الصيادين بأنها كاريزمية وفذة، وعدوا أقوالهم حكمة بالغة تستحق الحفظ والتطبيق، ومجدوا سيرهم المعصومة من الخطأ، وأقرب مثال على ذلك صورة الزعيم النازي هتلر، التي روجها أتباعه من أمثال جوزف جوبلز ورفاقه الحزبيون، والتي أكدت على كونه قائداً ملهماً ومعصوماً، تتماثل وتتطابق أفكاره وقراراته مع مصالح الأمة الألمانية تماماً، وفي هذه الأيام يستعين الباحثون عن وظيفة بمحترفي صياغة السير الذاتية لإعدادها وتنظيم محتوياتها بصورة تبرز مؤهلاتهم وقدراتهم ومهاراتهم، وتجتذب اهتمام أصحاب ومديري المؤسسات، وأسرني أحد المهاجرين إلى كندا بأنه اختلق مناصب وخبرات وهمية في سيرته الوظيفية ليضمن حصوله على وظيفة في مؤسسة كندية، وهو متيقن بأنه لولا الكذب والتزوير لبقي عاطلاً عن العمل.

يدرك العقلاء من الصيادين بأن الانطباع الذي يتركونه لدى الغير مزيج من الواقع والمظاهر، ومن المحتمل أن يترسخ هذا الانطباع في الأذهان نتيجة التكرار، وتكرار الكذب حتى يصدقه الغير ممكن أيضاً، ولكن هل يخدع الإنسان نفسه ويصدق ما يتظاهر به؟ خداع الذات مشكلة محورية في شخصية قابيل في مسرحية برنارد شو العودة إلى متوشالح Return to Methuselah ، أدت به إلى الاقتناع بانتمائه إلى فصيلة عليا من البشر، ونجد مثالاً على ذلك من الواقع في سلوك الثري الأمريكي الراحل أندرو كارنجي، فقد وضع نفسه فوق المجتمع الذي جنى منه ثروته الضخمة مدعياً استغناءه عن الآخرين عندما وصف نفسه بالزهرة البرية التي تنمو في الغابة لوحدها دون حاجة لمعونة الآخرين.

غالباً ما تكون صور الصياد الذهنية لذاته وللآخرين واقعية، لكنه لا يتورع عن تشويه صور منافسيه عامداً ومتقصداً لاكتساب ميزة أو أفضلية عليهم، ولسان حاله يردد المثل الغربي: كل الوسائل مشروعة في الحب والحرب.

ولا يقف الصياد عند أي حد في سعيه لتحسين وتجميل صورته في أذهان الآخرين، فهو يطمح إلى التخرج من أفضل وأشهر المدارس والجامعات، والحصول على أرفع الدرجات العلمية، والتفوق في المباريات الرياضية وغيرها من المسابقات، وتبوأ مناصب رفيعة بين أقرانه. وتوفر له الدراسة في المعاهد المرموقة التميز على غيره، وتتيح له أيضاً الفرص للتعرف على نخبة المجتمع ومرافقة الأقوياء والأثرياء من جيله، وحتى وقت قريب كانت الدراسة في جامعات بريطانية وأمريكية مثل أوكسفورد وكمبردج وهارفرد ويال حكراً على أبناء القادة والأثرياء وأصحاب النفوذ.

الصياد وحسن البيان

إن من أهم المهارات التي يكتسبها الصياد في مؤسسات النخبة التعليمية المهارات اللغوية والاتصال، ويصف عالم اللسانيات روبن لاكوف Lakoff (1990) اللغة بالقوة، ويعرفها بأنها

القوة الصانعة للتغيير لذا ينبغي الخشية منها، وتبوأ مالكو القدرات اللغوية العالية مثل الخطباء والشعراء مكانة رفيعة في المجتمعات القديمة في اليونان وفارس والجزيرة العربية، وكانت مهارة الخطابة من أهم المهارات القيادية في الإمبراطورية الرومانية، وتكلم الشعراء العرب في القدم باسم قبائلهم مطنبين في مدح أصولهم القبلية وشيمهم وخصالهم الراقية وتمجيد بطولاتهم، ومشنعين في ذم وهجو أعدائهم، ويثمن القادة السياسيون الغربيون القدرات اللغوية عالياً في دفعهم أجوراً باهظة لمؤلفي خطبهم وتصريحاتهم، ويجتذب بعض الوعاظ المسيحيين في الغرب – سواء كانوا مستقيمين وورعين أم لا- الملايين من الأتباع ومبالغ طائلة من التبرعات سنوياً بفضل شخصياتهم الكاريزمية الطاغية وسحر عظاتهم وخطبهم، ولا يخفى على مشاهد البرامج التلفزيونية بأن مقدمي برامج المقابلات وغيرها يركزون على بلاغة وجمال تعابيرهم بنفس الدرجة أو أكثر من محتواها، وكل هذه النماذج من حولنا شواهد على صحة القول المأثور للسياسي البريطاني المعروف ديزرائيلي Disraeli بأن الرجال يحكمون بقوة أقوالهم وكلماتهم.

أيتها المرآة من أجمل من الصياد؟

يهتم الصياد الباحث عن الإعجاب والنجاح بشكله ومنظره إلى حد كبير، وهو في ذلك أشبه بنرسيسوس الأسطوري، الذي انشغل بالتأمل والإعجاب والوله بصورته المنعكسة في بركة ماء إلى حد الامتناع عن الأكل والشرب حتى هلك، وفي علم النفس كما يبين جونسون وزملاؤه Jonason et al. (2012) يشير مصطلح النرجسية إلى الشخصية غير السوية المتصفة بهوس العظمة والحاجة للإعجاب وتدني مشاعر التعاطف مع الغير، ولهذه الشخصية وصفاتها جذوراً في المجتمعات، وقد ثبت لمجموعة من الباحثين (Dion, Berscheid, and Walster, 1972) بأن الناس يضفون صفات إيجابية على الأفراد الجذابين وأخرى سلبية على غير الجذابين، كما وجد فريق آخر من الباحثين بأن تقييم الناس للأفراد الجذابين عادة ما يكون إيجابياً، ويعاملونهم بطريقة ودية، فلا غرابة في حصول المرشحين الوسيمين في الانتخابات الكندية لعام 1974 على ضعف الأصوات التي أعطيت لمنافسيهم الأقل وسامة وجاذبية، وهذا يفسر اهتمام الصياد الفائق بتجميل منظره وتحسين شكله على مر العصور، وما التماثيل الرومانية التي تزخر بها حدائق روما وغيرها من مدن إيطاليا سوى شواهد باقية على ولع الرومان، الذي وصل حد الهوس، بكمال وجمال الأجسام، والصياد هو الذي يرى في الرجل مفتول العضلات نموذجاً للقوة والجمال، ومستحقاً لإعجاب الجميع.

توجد في كل مجتمع مواصفات ومقاييس للجمال، تتفاوت بين مجتمع وآخر، وقد لا يتفق اثنان على نفس المواصفات تماماً، لأن الناظر هو من يقرر، وعادة ما يكون القول الفصل للصياد في تحديد مواصفات الجمال في مجتمعه، وهو حريص على اكتساب هذه المواصفات الجمالية من اجل أن يكون مثار إعجاب من حوله، وقد يحلم بالتربع على قلوب الملايين مثل نجوم السينما.

الصياد مستعد لصرف مبالغ طائلة وبذل جهود مضنية في سبيل تحسين مظهره، وتقدر قيمة صناعة الجمال في العالم بالمليارات من الدولارات سنوياً، ولا يكاد يخلو جدول مشاغل الصياد اليومي، من الأناث والذكور على حد سواء، من نشاط تجميلي، مثل صبغ الشعر ووضع مساحيق التجميل والرياضة العنيفة، وعند الحاجة سيستعمل الأدوية القوية ذات الأعراض السيئة والخطرة لإيقاف تساقط الشعر، وإذا لم تفد الرياضة والحمية في إنزال الوزن فهنالك أدوية لسد الشهية، ولعل ثراء الجراحين المختصين بعمليات التجميل دليل سافر على أهمية التجمل لصيادنا، الذي يسعى لكسب المزيد من الإعجاب والمكانة وبالتالي القوة نتيجة ذلك، ويرى أورنشتاين وإيرليك Ornstein and Ehrlich (1989) بأن وسامة أوليفر نورث، بطل فضيحة إيرانجيت، أثرت في النفوس إلى درجة ترشيحه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من اعترافه باقتراف مخالفات جسيمة مخلة بقواعد السلوك الإداري.

قد يدفع فقدان الصياد للصفات الجمالية به إلى الكآبة والإحباط ولربما الانتحار، ويصور أدموند روستاند في روايته المشهورة سيرانو دي برجراك Cyrano de Bergerac الأثر النفسي العميق لقباحة بطل الرواية سيرانو، وبالتحديد ضخامة أنفه، والذي أدى به إلى كتمان مشاعره تجاه محبوبته وتحمله العذاب النفسي بسبب ذلك، وكان محتماً عليه الشعور بالفشل والضعة وفقاً لمعايير الصياد السائدة آنذاك وحالياً، وأمثال هذه الشخصية الخيالية، كما يؤكد باخ وتوربيت (1983:14) Bach and Torbet يعتقدون بأن سعادتهم رهينة بامتلاكهم للصفات الجمالية المطلوبة.

ولكل الصيادين، مثل زوجة أب سنووايت الشريرة، مرآة سحرية يقفون أمامها بانتظام ليطرحوا السؤال التالي: من هو الأقوى والأثرى والأجمل بيننا؟ وبالطبع لن يرضى الصياد عندما يرى أو يسمع الصوت الخفي في عقله يذكر اسم شخص آخر أو أولئك المدرجين على قائمة مجلة فورتشن السنوية للأكثر ثراءاً في العالم، أو نشرة صحيفة نيويورك تايمز لأكثر الكتب رواجاً أو رابحي جوائز نوبل أو الأوسكار، وعلى العكس من زوجة الأب الشريرة لا يمتلك الصيادون قوى سحرية أو تفاحة مسمومة للتخلص من المنافسين.

الصياد المحترم

الاحترام ركن من أركان شخصية أو صورة الصياد ودرعه الواقي، يخفي وراءه تصنعه وضعفه وإخفاقاته، وعلى مر العصور فرضت قواعد الصياد على الأتباع الضعفاء تقديم آيات الطاعة والاحترام للأقوياء من الحكام وأفراد الطبقات العليا والكهان والقادة العسكريين، ووضع الحكام لأتباعهم طقوساً خاصة بذلك، تشتمل على صيغ محددة للتخاطب وتقبيل اليد والانحناء وحتى السجود، ومن أخل بهذه الطقوس اعتبروه عاصياً مستحقاً لأقسى العقوبات، كما تعارف أفراد الطبقات العليا على قواعد للسلوك، وتعرض المخالفون للجزاء الرادع، تراوح بين السجن والجلد لأفراد العامة إلى المقاطعة الاجتماعية أو التحدي للمبارزة بين الأرستقراطيين، وانتقلت المبارزة كطريقة لفض النزاعات إلى أثرياء جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كانوا يدافعون عن الشرف والاحترام بحد السيف أو الرصاص، ولم يختلف الطغاة العرب عن الصيادين في كل مكان في فرض احترامهم وتوقيرهم قسراً على الناس بقوة القانون، وكانت عقوبة من يهين الرئيس العراقي صدام حسين علناً الإعدام، ويظهر العراقيون القبليون في جنوب العراق حساسية مفرطة لأي انتقاص لكرامتهم واحترامهم، وتتضمن أعرافهم القبلية أحكاماً متطرفة في قضايا رد الاعتبار، وقد يفرض قاضي بالعرف القبلي على رجل أهان شخصاً آخر بتقديم امرأة من بناته أو أخواته أو قريباته كرد اعتبار للفرد المهان، ليتزوجها هو أو أحد افراد عائلته، ويروى بأن رؤساء العصابات الإجرامية كذلك حساسون لكل ما يمس احترامهم من قول أو فعل، ولا يترددون عن قتل كل من يتجرأ على مس اسمهم وسمعتهم بسوء، حتى لو كان من أكثر أتباعهم إخلاصاً.

تُدلّل أسطورة البطل الإغريقي أجاكس على أهمية الاحترام بالنسبة للأقوياء الحريصين على مكانتهم بين الناس، وفي مسرحية سوفوكليس التي تحمل اسمه غضب أجاكس لأن سادة قومه رفضوا اعطاءه سلاح البطل أخيليس، وكان أجاكس رجلاً فخوراً معتداً بنفسه، فاستفزته تلك الإهانة فأفرغ غضبه في تقتيل ماشية قومه، بعد أن أوهمته الآلهة بأن تلك الماشية هم القادة الذين أهانوه وأذلوه، وعندما أفاق من سورة الغضب، وأدرك شناعة فعلته، والتي كلفته احترام قومه أقدم على الانتحار.

يخص الصيادون باحترامهم صيادين آخرين، وخاصة الأقوى والأكثر نفوذاً منهم، أما الصيادون الأقل قوة ونفوذاً فنصيبيهم التجاهل أو حتى التعالي عليهم لكي يدركوا مكانتهم المتدنية على هرم القوة في عالم الصيادين، وفي الماضي كان مقبولاً أن يهين صياد أقوى من هو أدنى منه مكانة وقوة، أما الآن فقد استبدلت الإهانة الصريحة بالسخرية والاستخفاف، وعادة ما ينفس

الصياد الأقوى عن عدوانيته المكبوتة من خلال السخرية من عقائد وعادات وتقاليد الأقوام الأخرى، وقد يلجأ الصيادون الأقل قوة لهذه الممارسة لتفريغ شحناتهم العاطفية السالبة من خلال ما أسماه كولنز (1975) Collins بطقوس الإذلال، وتلاحظ هذه الطقوس بين الأقليات المستضعفة في الدول الغربية، وتشمل استعمال السباب والألفاظ النابية وكذلك الاعتداء بالاغتصاب والقتل.

عدوانية الصياد

تدل العلوم الاجتماعية والبايولوجية على أن الفرد نتاج مورثاته ونشأته وبيئته الاجتماعية، وكما يكون هذا المجتمع يكون الأفراد فيه، مع وجود الفوارق الشخصية، ويوجد اليوم مختصون من أمثال أوكلي (2008) Oakley الذين يرون بأن الاستعداد للعدوانية والعنف متأصل في بعض البشر نتيجة مورثات أو جينات "شريرة"، أما دوتون (2008) Dutton فيعيدنا إلى ميراث مرحلة الصيد في تاريخ البشرية عندما كان استعمال العنف المتطرف ضرورياً للبقاء.

يجب التذكير بأن الصياد ليس حالة استثنائية ناتجة عن أبوين مهملين أو منحرفين أو لصحبة أقران سوء، بل على العكس من ذلك إذ يعتبر الصياد منهجه الأسلوب الأمثل لبلوغ النجاح في كافة نواحي الحياة، وهو أنموذج للفرد السوي والمقتدر في نظر مجتمعاتنا، وما طريقته في الحياة إلا محصلة لتنشئته من قبل عائلة ومؤسسات اجتماعية، تريد له الخير والنجاح والاستمرار لاختياراته وتفضيلاته الشخصية، ولا بد من التنبه أيضاً بأن الفرد لا يكون صياداً بالكامل، بل هو صياد ومزارع في نفس الوقت ولكن بمقادير ونسب مختلفة.

قال الشاعر: ما فاز باللذة إلا الجسور، فإن كان قائله مؤمن بقيم الصياد فذلك لسان حاله، وهو قول ينطبق تماماً على مجتمع الصيادين، والأصح بأن الجسور هو وحده الذي يفوز بكل ما هو ثمين ومرغوب – عند الصياد بالطبع وفي المجتمعات التي يهيمن عليها، والجسارة أحد عناصر العدوانية، بمفهومها الواسع الذي يشمل أيضاً الإقدام والجرأة والسبق وأحياناً استعمال العنف.

يرى لورينز (1969) Lorenz بأن الإنسان، مثل كل الحيوانات الاجتماعية، عدواني وميال إلى الصراع والعنف، ويوافقه مكليلاند (1975) McClelland في ذلك بإن الإنسان ينتمي إلى فصيلة تمارس العنف، وتتباين مستويات العدوانية بين البشر، وبصورة عامة لا يستوي الذكر والأنثى في درجة العدوانية، ويشير وينر (2004) Wiener إلى وجود عدد كبير من المصادر التي تؤكد بأن الذكور ومنذ الولادة يبدون مستويات عالية من العدوانية والمخاطرة مقارنة بالإناث، ولهذا السبب هم أقل استعداداً للتفاعل والتواصل الاجتماعي من الإناث، ولكن الجميع من ذكور وإناث يعيشون في مجتمعات تشجعهم على العدوانية، وبينت دراسة منشورة لفيليب رودكن وآخرين (2000) .Rodkin et al بأن اليافعين العدوانيين قد يصنفون ضمن المجموعة الأكثر شعبية والأنشط اجتماعياً في المدارس الابتدائية، فإذا كان هذا هو الحال في المدارس الابتدائية فليس من المستغرب رسوخ هذه الأنماط والاتجاهات السلوكية لدى الراشدين.

يشير الباحثان برنشتين وسيلسين (2003) Prinstein and Cillessen إلى نتيجة مهمة توصل إليها عدد من الباحثين وهي أن المنتمين للطبقة العليا أو الأعلى مكانة في المجتمع هم أكثر عدوانية من غيرهم، وهي نتيجة منطقية في ظل هيمنة قيم الصياد، فهؤلاء الأفراد يمتلكون القوة ويسيطرون على مجتمعاتهم، وحرصهم الشديد على الحفاظ على هذه السيطرة يقودهم إلى السعي للاستحواذ على مصادر القوة من سلطة وثروة وغيرها، فهم أساساً بلغوا مكانتهم العالية بالعدوانية ولأنها وسيلة ناجحة فسيداومون عليها، وبالنتيجة سترتبط العدوانية بالسيطرة والقدرة والمكانة العالية والنجاح في المجتمع.

ولا بد لنا من الاتفاق مع دوتون (2008) Dutton بأن الجنس البشري أكثر المخلوقات تدميراً في التاريخ، كما اعتبر العالم الأنثربولوجي المعروف كلايد كلوكهوهن (1949) Kluckhohn الحرب أوضح تعبير عن نزعتنا للعدوانية، وعلى مر التاريخ شن البشر الحروب

على بعضهم البعض، ويجزم لورنس كيلي Keely (1997) في كتابه المعنون: الحرب ما قبل الحضارة وخرافة الهمجي النبيل بأن الحروب ظاهرة تعود إلى ما قبل تكون الحضارات، ويتفق معه فيريل Ferrill (1997) مجادلاً بأن تكوين التجمعات البشرية وتحصينها داخل قرى مسورة حاجة فرضتها الحروب ودفعت القاطنين داخل هذه التجمعات المحصنة إلى اكتشاف واعتماد الزراعة، وما تاريخ الكثير من الأمم سوى سجل لحروبها كما كتب كوهن(Kohn (1986 ، ولم تثنهم خسائرها المرعبة من تمجيدها والثناء عليها باعتبارها تجارب لتقوية عزائم البشر وحثهم على الإبداع، ومهما كانت ذرائعها وشعاراتها فهي كلها في جوهرها ليست سوى صراعات عنيفة حول القوة والسيطرة، يفجرها ويسوغها ويقودها الصياد القابع داخل كل واحد منا، وتتمثل هذه النزعة العدوانية في شخصية قابيل في مسرحية جورج برنارد شو: العودة لمتوشالح Return to Methusaleh، والتي دفعته إلى الطلب من أمه حواء أن تلد أبناءاً آخرين ليقاتلهم، ولو لم تكن حرب طروادة صراعاً بين صيادين أقوياء على السيطرة والمكاسب لأمكن حسم النزاع على الفاتنة هيلين بمبارزة بين زوجها ومختطفها.

على مر العصور طوعت ثقافات متنوعة، شملت شعب الأزتك القديم وحتى الأريين بزعامة هتلر، أفرادها على العدوانية والعنف بأنواعه، ومن الواضح بأن الأكثر عدوانية هو الأوفر حظاً بالنصر، وفي مجتمع الأزتك كان المتوقع من الرجال ممارسة العدوانية من خلال المشاركة في الحروب ضد الأعداء، والذين يتخلفون من بينهم تعرضوا للسخرية والإهانة، خاصة من قبل النساء، وقد استعملت شعوب أخرى مثل القبائل العربية طقوس إذلال مشابهة لنفس الغرض، وجرت العادة لدى بعض القبائل العربية على اصطحاب نسائهم إلى سوح القتال لإثارة حماس المقاتلين واستنهاض هممهم، واستبسل المقاتلون حياءاً من النساء اللواتي وقفن وراء الصفوف بانتظار الناكصين منهم، ليكيلن لهم السباب ويرجمنهم بالحجارة، وكذلك خوفاً من الهزيمة وما يمكن أن تجره على نسائهم من استعباد واستباحة، وحتى تاريخ قريب كانت القبيلة البدوية في جزيرة العرب المتوجهة إلى قتال أعدائها ترسل أمامها امرأة على ظهر بعير سريع العدو، وتعرف بالعيارة، مما يدفع المقاتلين إلى اللحاق بها قبل أن تصل إلى صفوف الأعداء، ويكون مصيرها الأسر، وبالإضافة إلى تمجيد بطولات المحاربين ساد الاعتقاد بين بعض الجماعات البدائية بأنه عندما يقتل المحارب عدوه فإنه وبقدرة سحرية يكتسب قوته.

يرى الصياد في الحروب قيمة عليا، ويعتقد بأن ما يحصل عليه المحاربون من مزايا معنوية تبرر التضحيات العظمى التي يقدمونها من أجلها، ويلاحظ هذا الاتجاه في القول المأثور عن تشرشل: كانت الحرب قاسية ومجيدة لكنها اليوم قاسية ومبتذلة، فهو يتحسر على الحروب الغابرة التي يصفها بأنها عظيمة ومجيدة على عكس الحروب في أيامه، ولكنه لا يرفض فكرة الحروب بذاتها وما تتسبب به من قتل ودمار.

قبل أكثر من نصف قرن بقليل نجحت الحركتان النازية والفاشية في اجتذاب الملايين من الأتباع من شعوب أوروبا "المتحضرة"، وأقنعتهم بشرعية وضرورة قتل الملايين من البشر لأنهم طاعنون بالسن أو عجزة أو لكونهم ينتمون لأعراق صنفوها بالمتخلفة وفقاً لمقاييسهم اللاإنسانية، وشارك هؤلاء الأتباع طوعاً في هذه الجرائم، ويرجع تايلور Taylor(1945) هذه الأفعال الهمجية إلى طبيعة الألمان النازيين المتصفة بالتسلط والقسوة، وقد بلغت بهم هذه النزعة كما يروي جولدهاكن Goldhagen (1997) إلى الحد الذي دفعهم إلى اصطحاب زوجاتهم لحضور عمليات الإبادة الجماعية، وكأنها حفلات رقص أو غيرها من أنشطة التسلية والترفيه، وصرح الجنرال الكندي روميو دالاير قائد قوات الأمم المتحدة في رواندا في مقابلة صحفية (Thompson, 2000) بأن أكثر ما يخيفه أن يهون في أعين الناس مقتل مليون فرد لأنهم أفارقة سود، والدليل هو أن حكومات الولايات المتحدة وفرنسا وبلجيكا عرفوا بالمجزرة في رواندا ولكنهم آثروا تجاهلها.

وتمثل شخصية أندروماخ في مسرحية إيروبيديس Euripidis التي تحمل اسم بطلتها Andromache والتي كتبت في القرن الخامس قبل الميلاد، مأساة الناجين من الحروب، فبعد

عشر سنين من انتهاء حرب طروادة كانت أندروماخ تعسة، لكونها تيتمت وترملت واستعبدت من قبل الأعداء، ولكن الصياد الكامن فينا لا تهزه هذه المآسي، ولا تضعف نزعته العدوانية، ولم يفتر حماسه للحرب حتى اليوم، وبالإضافة لعشرات الملايين التي قضت نحبها في حروب القرن المنصرم، هلك الملايين ضحية أعمال عنف إجرامية أو حوادث طرق تحت تأثير المسكرات، وقد بلغت نسبة جرائم القتل في الولايات المتحدة الأمريكية، التي تعد أثرى دول العالم والأكثر تقدماً في التقنية، أعلى معدل في التاريخ على الإطلاق، ويقتني الأمريكيون وبصورة مشروعة كفلها لهم الدستور أو غير مشروعة حوالي 300 مليون قطعة سلاح شخصي، ويصف فيانو وكوهن (1975) Viano and Cohn الثقافة الأمريكية بأنها نسيج تتخلله خيوط العنف، كما أن هذه الثقافة في نظر الأدجم (2008) Aladjem شوهت مفهوم العدالة لدى الامريكيين الذين يركزون على الانتقام، ولا يبدون أي تفهم لظروف مخالفي القانون، ويؤيدون وبأغلبية عالية عقوبة الإعدام، ولولا ترسخ هذه الاتجاهات لديهم لما استطاع الرئيس بوش التمادي في حملته الانتقامية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول والتي طالت غير المسؤولين عنها.

وتوجد أنواع أخرى من العنف بالإضافة إلى العنف البدني أو المادي، ويتطرق زيزيك Zizek (2008) إلى عدد منها مثل اللغوي والنظامي والأيديولوجي أو الفكري، ويستعمل العنف اللغوي لتأسيس سيطرة فرد على آخر من خلال اللغة، أما العنف النظامي فيتمثل في الهيمنة السياسية والاستغلال الاقتصادي، أما العنصرية والتمييز في معاملة المرأة فيعدها ضمن العنف الأيديولوجي.

لم ينجو شيئاً من عدوانية الصياد التي طالت البشر والحيوان والطبيعة، وبينما اصطاد أسلافنا للحصول على غذائهم، يمارس الإنسان المعاصر الصيد لأغراض تافهة كالتمتع بما يسمونه الرياضة الدموية مثل صيد الثعالب في بريطانيا، أو لصنع الملابس والحقائب من فرائها وجلودها أو لطحن أنيابها وقرونها لاستخراج ما يعتقده البعض منشطات للغرائز الجنسية، أو لنحت تماثيل وأوعية إطفاء السجائر من عظامها وقرونها وأسنانها، ويعتقد بأن عدد الفصائل البرية التي انقرضت أو شارفت على ذلك في القرن العشرين نتيجة عدوانية بني البشر أكثر من مجموع التي تعرضت لذلك فيما سبق من التاريخ.

حروب من دون دماء

ليس مستغرباً أن يبتكر الإنسان المعاصر ألعاباً قتالية، ترضي نزعته للحرب والصراع، وتفرّج عن عدوانيته، ومن أكثر هذه الألعاب انتشارا ما يعرف بلعبة كرات الصبغ Paintball، ففي كل أسبوع يتهافت للمشاركة فيها الألاف من الصغار والكبار، ويقدر مصدر غير موثق عدد لاعبيها في العالم بأكثر من 15 مليوناً، يتوزعون بين 110 دولة، واللعبة في جوهرها صراع شبه عسكري بين فريقين، يستخدم اللاعبون فيها بنادق، تقذف كرات مليئة بسوائل ملونة، ويرتدون بزات خاصة مثل الجنود، تتكون من خوذة وأقنعة وملابس مموهة، لكي يستشعروا أجواء القتال والمعارك، وكما في الحروب الحقيقية يسعى المشاركون أو المقاتلون إلى الانتصار على الخصوم، والاستحواذ على علمهم، وإلحاق أكبر عدد من "الإصابات" بين صفوفهم، وبينت دراسة لكون وآخرين (2004) Conn et.al. بأن عدد الإصابات الناجمة عن ممارسة هذه اللعبة في الولايات المتحدة الأمريكية ما بين 1997م و2001م قارب 12 ألفاً، استدعت إصاباتهم علاجاً في أقسام الطوارئ بالمستشفيات.

يستمتع الصياد بمشاهدة الألعاب العنيفة مثل هوكي الجليد وكرة القدم الأمريكية والملاكمة والمصارعة، ويصف باخ وجولدبرج Bach and Goldberg(1974) المباراة الرياضية بأنها أشبه بحرب مصغرة، نوجه فيها عدوانيتنا تجاه الطرف الأخر "المكروه"، ونتلذذ باندحاره وإذلاله وهزيمته، وليس مستغرباً إعجاب الدكتاتور الفاشي موسوليني بالملاكمة لأنها على حد قوله وسيلة مميزة لكي يعبر الفاشي عن نفسه، والكثيرون يدفعون مبالغ كبيرة لمشاهدة مباريات

الملاكمة، التي يتبادل فيها رجلان أو امرأتان اللكمات، حتى ينسحب أحدهما منهزماً، أو يسقط مغميا عليه بضربة قاضية، قد تفضي إلى عجزه أو موته أحياناً، ويبدو بأن منظر الدماء وهي تسيل من وجهي الملاكمين لا ينفرنا، بل على العكس من ذلك يحرك فينا شغفاً بالعنف ومتعة غير سوية، والملايين من النظارة المتحمسين يقصدون سنوياً حلبات مصارعة الثيران في إسبانيا وأمريكا الجنوبية لمشاهدة مصارعي الثيران ومعاونيهم في حللهم الزاهية، يختبرون شجاعتهم ومهاراتهم ضد ثيران، فيما هو أشبه بمسرحية صيد بدائي، فمن ينكر حقيقة أن المشاهدين يتابعونها حتى النهاية الدموية ليتلذذوا تخيلاً بالإثارة المصاحبة للمجابهة والتي تنتهي بالقتل؟ وهي مشاعر تقترن بالصيد، ويمكن القول بأن هؤلاء المشاهدين يشاطرون المصارع أحاسيسه في سعيه إلى إثبات تفوقه المطلق على الثور، الذي يرمز في هذا الصراع لمملكة الحيوان، ولا عجب أن يحصل ماكليلاند McClelland (1974) على نتائج تؤكد بأن الذين يتمتعون بمشاهدة الألعاب العنيفة يتصفون بدرجة عالية من احترام القوة والسعي للحصول عليها.

تجتذب الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية التي يشكل العنف محور أحداثها الحقيقية أو الخيالية أعداداً غفيرة من المشاهدين، كما يقبل الناس على شراء الروايات العنيفة والكتب التي تروي سير حياة عتاة المجرمين، مما يبرهن على أن مناظر الدماء السائلة والأعضاء المبتورة واحتضار بشر تستهوي الكثير منا، وهذا الذوق المنحرف هو السبب وراء تهافت وسائل الإعلام وراء تغطية أخبار القتلة والمجرمين، وما علامات التحذير التي تبنتها صناعة البرامج التلفزيونية إلا تنازل رمزي ودليل آخر على أن العنف الذي غزا منازلنا لا ينوي الرحيل أبداً، ولو لم يجد عيوناً متشوقة وأذاناً صاغية لما حدث ذلك، والقليل منا يكترث بتعجب وحيرة يوسن وسانتراك Yusin and Santrock (1978) من إصرار الكثيرين على مشاهدة مناظر العنف على الرغم من أن ذلك وكما بينت نتائج بحوث عديدة تجعلنا أكثر تقبلاً للعنف.

الثلاثي المظلم

يستعمل علماء النفس والاجتماع مصطلح الثلاثي المظلم Dark Triad للإشارة إلى ثلاث شخصيات غير سوية وهي: النرجسي والماكيافلي والسيكوباتي أو المضطرب نفسياً، وهؤلاء الأفراد غير السويين متواجدون في كل المجتمعات ويعيشون بيننا، ويتصف كل واحد منهم بخصائص متميزة في الفكر والسلوك أقرب إلى فكر وأسلوب حياة الصياد، فالنرجسي مغرور ومتخايل ومتكبر وأناني ومولع بالمديح والاطراء، وهو كما تبين للباحثين بوشمان وبوميستر Bushman and Baumeister (1998) حساس بإفراط تجاه كل ما يخدش صورة ذاته البراقة فهو لا يطيق الانتقاد، وقد يرد على ذلك باستعمال العنف، والنرجسي متواجد بكثرة في كل المجتمعات وفي الروايات والأفلام السينمائية، وينطبق وصف النرجسي على شخصية جيمس بوند على سبيل المثال.

يسعى الماكيافلي لبلوغ غاياته بكل الوسائل، فالغاية تبرر الوسيلة في اعتقاده، ولأنه أناني مثل النرجسي لا يتورع عن استعمال الخداع والتلاعب بالآخرين في سبيل مصالحه الأنانية، لذلك يوصف بأنه لا أخلاقي، وهو شغوف بالمنافسة ولا يقبل بأقل من الفوز على منافسيه، كما أنه مستعد لاستعمال العنف إذا تطلب تحقيق أهدافه ذلك.

لا يقصد بالسيكوباتي هنا أولئك المختلين عقلياً والمحتاجين لعلاج مناسب في مصحات، ولو تركوا من دون علاج وطلقاء فقد يقترفوا الجرائم والاعتداءات، فالشخص المعني هنا يكون عند درجة متدنية من السيكوباتية، وأبرز صفات هذا السيكوباتي الانجراف وراء نزواته والأنانية والقسوة والنرجسية، ولا يشعر السيكوباتي بالإثم ولا يؤنبه ضميره ولا يندم على أفعاله، ولو تعرض للاستفزاز أو تهديد مباشر فسيرد بعنف، كما قد يبادر إلى استعمال العنف بصورة متعمدة ومقصودة ومخططة.

ويشترك الثلاثة المظلمون في عدد من الصفات، من أبرزها العدوانية والغش ويعرفون أيضاً بالجلافة واستغلال النساء (Jonason, Webster, Crysel, Schmitt and Norman, 2012) ومن المثير للانتباه ظاهرة ازدياد عدد الثلاثي المظلم في المجتمعات، ففي دراسة لفريق من الباحثين(Twenge, Konrath, Foster, Campbell and Bushman ،2008) حول الموضوع تبين بأن درجة النرجسية بين طلاب الجامعات والكليات في أمريكا قد ارتفع بنسبة 30 بالمائة بين 1979م و2006م، كما يشير فريق البحث ذاته إلى نتيجة أخرى مؤكدة لوجود هذه الظاهرة، ففي الخمسينات من القرن الماضي اتفق 12 بالمائة فقط من عينة من المراهقين مع الجملة التالية: " أنا شخص مهم" وعندما أعيد طرح السؤال على عينة مشابهة في أواخر الثمانينات كانت نسبة المتفقين مع هذه العبارة 80 بالمائة، وتعكس هذه النتائج المستوى المرتفع للنرجسية في المجتمع الأمريكي بصورة عامة، وقد يفسر هذا نزعة أمريكا للهيمنة على العالم وفرض ثقافتها ونظمها السياسية والاقتصادية على شعوب العالم بما فيهم الأمة العربية.

الشاطر والعيّار والفتوة والبلطجي والفهلوي

أفرزت المجتمعات العربية والإسلامية في مراحل مختلفة من تاريخها شخصيات منحرفة أو غير نمطية، تكونت بفعل ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية، وكان لها تأثيرات متباينة على هذه المجتمعات، وهي كلها أقرب إلى نمط الصياد في صفاتها وسلوكها، ففي العصر العباسي الأول ظهر الشطار والعيّارين، وكان لهم دور مشهود في الصراع حول الخلافة بين الأمين والمأمون، وهم في الأصل مجموعات من المتشردين الذين امتهنوا اللصوصية والابتزاز، واستعملوا القوة لإرهاب ضحاياهم وقسرهم على الامتثال لمطالبهم، وهم أشبه بالعصابات المنظمة أو شبه المنظمة في المجتمعات الحديثة.

وكان للفتوة في بداية نشأتها أهداف نبيلة وسامية، من أهمها الدفاع عن بلاد العرب والمسلمين ونصرة المظلومين ومساعدة المحتاجين، وبمرور الزمن وتغير الظروف أصابها الانحراف، وكما يذكر جواد (1958) فقد أدى انحطاط الفتوة في عصورها المتأخرة إلى فقدانها لقيمها الأصيلة حتى صار العيّار في مصر يعرف بـالفتوة، وتوصل إيروين (2004) Irwin إلى نتيجة مماثلة حول صورة الفتوة في الوقت الراهن.

وتطلق صفة البلطجي على الفرد الذي يستخدم القوة أو التهديد بها في تحقيق أهدافه وفرض مشيئته على الغير، ويبتز البلطجي الناس الأضعف منه ويفرض الإتاوات عليهم، ومن لا يدفع يتعرض لانتقام البلطجي وأعوانه، واستعمل ولاة العثمانيين في البلاد العربية البلطجيين في مهام متنوعة مثل اغتيال أو معاقبة المناوئين وجمع الإتاوات، وبعد زوال الحكم العثماني استمر هذا النمط العدواني المنحرف بصورة أو أخرى في المجتمعات العربية.

الفهلوي صياد أيضاً، لكن وسائلة مختلفة عن الفتوة والبلطجي، فهو غالباً ما يستعمل الاحتيال والخداع والنفاق والمداهنة في التوصل إلى أهدافه المشروعة وغير المشروعة، ويلجأ البعض للفهلوة كبديل للوسائل الأخرى المشروعة بسبب الظلم الاجتماعي وضعف الالتزام بمبادئ العدالة والمساواة والجدارة، وهي أكثر انتشاراً في المجتمعات العربية من الأنماط الأخرى التي تعتمد العنف.

صفات المزارع

تخيلوا عالماً تكون فيه الروابط الأسرية ضعيفة والعلاقات الاجتماعية محدودة ومضطربة، ولا تزدهر فيه سوى التنظيمات أو المؤسسات الهيكلية الرسمية، هكذا سيصبح شكل العالم بدون المزارع، والعنصر المفقود في هذا العالم المرعب هو ما يؤديه المزارع من أدوار في مجتمعاتنا، وبالتحديد إسهاماته الاجتماعية واستعداده للتعاون مع الغير وحرصه على الحفاظ على مصالحهم،

وفي عالم ينقصه المزارع سيلاقي الجميع صعوبات كأداء في العيش والعمل المشترك، حتى لو انتموا إلى مجتمع وعرق واحد، ونطقوا بنفس اللغة واللهجة، واشتركوا في نفس الموروث الثقافي، فالمزارعون هم بالتأكيد لحمة المجتمع الطبيعية العفوية والتلقائية.

الدافعية الاجتماعية لدى المزارع

لا تختلف أهداف المزارع كثيراً عن تلك التي يسعى خلفها الصياد، فالاثنان يطمحان إلى الأمن والسعادة، ولكنهما يفترقان بصورة حادة في اختيارهما لوسائل بلوغ الأهداف، فالصياد يؤمن بأن القوة والثراء هما الضمانتان الوحيدتان للأمن والسعادة في عالم عدواني، يقطنه صيادون أنانيون وجشعون مثله، بينما المزارع يعتقد بأن أمنه ورفاهيته وتحقيق تطلعاته مرتبطة جذرياً بأمن ورفاهية الآخرين في مجتمعه، ومن خلال التعاون مع الغير ومساعدتهم في بلوغ أهدافهم الخيرة أو على الأقل تركهم ليعيشوا بسلام من دون أن يستغلهم أو يظلمهم، لذا يصبح التواصل مع الغير والتعاون معهم والفرح معهم في السراء والتعاطف معهم ومساعدتهم في الضراء طبيعة ثانية لدى المزارع، وعندما أجاب أحد المديرين لسؤال للباحث ماكوبي Maccoby (1976) عن هدفه في الحياة قال: المساهمة في إسعاد عدد محدود من الأفراد على الأقل، وفي هذه الإجابة تعبير دقيق وموجز عن طبيعة المزارع واهتمامات حياته المحورية، وهذا هو الهدف المعلن أو غير المعلن لكل مزارع، ولا نستغرب عندما يتضح من البيانات الأخرى التي أدرجها الباحث في تقريره بأن هذا المدير يعيش حياة بسيطة، مكملاً راتبه الضئيل بدخله من ممارسة الزراعة.

هل المزارع حقيقي وموجود في العالم أم هو مجرد نموذج فكري مثالي لا يوجد إلا في أذهان نفر من الفلاسفة المتفائلين أو صورة خيالية للإنسان يرسمها على سبيل الجدل أصحاب النظرة المتشائمة تجاه الطبيعة البشرية ليثبتوا بأنها طوباوية وغير واقعية؟ وهل كان الفيلسوف الإغريقي ديوجينس يهيم على وجهه في وضح النهار وبيده مصباح باحثاً عن إنسان نزيه تعبير تهكمي عن عبثية ذلك؟ تؤكد نتائج بعض البحوث وجود المزارع وطريقته في الحياة، ويشير ويلسون Wilson (1993) إلى عدد من الدراسات التي أجريت على سلوك الأطفال في اللعب، والتي يتضح من نتائجها بأن الأطفال القاطنين في مناطق ريفية أكثر تعاوناً واكتراثاً بغيرهم من أطفال المدن، فالأطفال في الريف يساعدون ويتعاطفون مع جيرانهم بدرجة أكبر من أطفال المدن، والسبب وراء ذلك كما يرى الباحثون هو أن الحاجة لمد يد المساعدة وقيمة الإيثار أعلى في المجتمعات الزراعية منه لدى سكان المدن، الذين يركزون على الإنجازات الفردية والتميز عن الغير.

إن صورة وخصائص الجماعة لدى المزارع أقرب إلى الصورة المثالية في ذهنه أو ما يود أن تكون عليه منها إلى الواقع، ووفقاً لهذه الصورة ينبغي أن تتوثق علاقات الجماعة بعرى التعاون والثقة والاهتمام المتبادل، ولكن وللأسف غالباً ما يكون الواقع مغايراً لتوقعاته ورغباته، لذا يتهم أحياناً بالمثالية، ويرد المزارع على ذلك عادةً بالتأكيد على أن نموذجه ليس طوباوياً بل قابلاً للتطبيق لو اِلتزم ومارس الجميع المبادئ البسيطة التي يؤمن بها، ويرى المزارع بأن معظم الناس يشاركونه الاعتقاد بسمو هذه المبادئ، أو على الأقل يتظاهرون بذلك، ولكنهم يدعون بأن تطبيقها صعب أن لم يكن غير ممكن بسبب حالة العالم من حولنا، أي ما دامت قيم ومبادئ الصياد هي المهيمنة.

قيم المزارع

يعيش المزارع في نفس بيئة الصياد، لكن قيمه ومبادئه الأخلاقية مختلفة، والمنبع الأساسي لقيمه وأخلاقه وعواطفه هو إيمانه الراسخ بالطبيعة الخيرة لبني البشر وتفاؤله تجاه حالة ومستقبل

الجماعة وكون العالم مكاناً صالحاً للعيش، وهو يرى الناس جميعاً على اختلاف أعراقهم وألوان بشرتهم وعقائدهم شركاء متساوين في هذا العالم، والجميع لهم الحق في الحياة الآمنة والمرفهة والسعيدة، وبالتالي فلا يوجد تباين في القيمة بين نخبة وناس عاديين أو بين متعلمين وغير متعلمين أو بين أقوياء وضعفاء، وهو يشاطر الشاعر والمفكر ويليم موريس (1834-1896) Morris رأيه في انتفاء وجود أسباب أو مبررات أو مؤهلات تسوغ لإنسان أن يكون سيداً لآخر، وكل إنسان قادر على إدراك وممارسة القيم التي يعظمها المزارع، وما يدفع بالبشر لمخالفة فطرتهم الطيبة هي التنشئة والضغوط الاجتماعية، لذا يدعوا بعض حملة أفكار المزارع إلى تحرير الفرد من القيود الاجتماعية لكي يتمكنوا من ممارسة فطرتهم الخيرة، أما الطريق لبلوغ ذلك فبالحجة والإقناع فقط لا بالقسر.

يعتمد المزارع العمل والتعاون والتواصل مع الناس لتحقيق أهدافه، ولا يرى تناقضاً أو تميزاً بين مصلحته الشخصية ومصالح الجماعة، ويعتبر كافة القيم والمبادئ والمشاعر التي تساند وتشجع على ذلك إيجابية، ولعل من أهم هذه القيم الإيثار altruism وهي ما يدفع الفرد لمساعدة الآخرين على تحقيق مصالحهم ولو على حساب موارده ووقته وراحته، وتعرف أيضاً في مجتمعاتنا بعمل الخير من دون توقع مقابل أو أجر أو حتى كلمة شكر، وقد اهتم علماء النفس وغيرهم بتحري أصل قيمة الإيثار في النفس البشرية، واجروا العديد من البحوث حول الموضوع، ويرى البعض بأن كون الإنسان أناني ويسعى إلى الحصول على مكاسب من كل عمل يقوم به يحتم أن يكون الإيثار تبادلي reciprocal، أي أن الفرد لا يقدم على مساعدة آخر إلا إذا كان هنالك مقابل مباشر أو غير مباشر، فوري أو مؤجل، وحتى الفرد الذي يضحى بحياته في سبيل بقاء جماعته يفعل ذلك لسبب أناني وهو الحفاظ على جيناته أو مورثاته التي يشترك بها مع جماعته، وفي الحد الأدنى فقد تكون المصلحة الأنانية التي يجنيها الفرد من فعل الإيثار هي مجرد التخفيف من شعوره بالألم والكدر الناجمين عن مشاهدته لمعاناة الفرد الذي يساعده.

يقدم باتسون Batson (2011) تفسيراً مختلفاً للإيثار، فهو مقتنع بأننا جميعاً وليس فقط الأبطال والقديسين والأولياء نمارس الإيثار، لأنه خاصية مغروسة فينا بفعل النشوء والتطور، ومنبعها ضرورة تطبع الأبوين على العناية بأطفالهما، ومن دون هذا التطبع لانقرضت البشرية، وفي مجموعة مقالات جمعها سوسمن وكلونينجر Sussman and Cloninger (2011) تأكيد على أن خاصيتي التعاون والإيثار من طبائع البشر وهما ضروريتان لجمح التطرف في التنافس، وللباحثين أولينر وأولينر Oliner and Oliner (1988) موقف مشابه فهما يؤكدان بأن هنالك ما يمكن تسميته بالشخصية الإيثارية، التي تتميز بصلاتها الوثيقة بالآخرين من غير أفراد العائلة أو الاصدقاء والشعور بالمسؤولية عن أحوالهم.

ومن مشاعر المزارع الأصيلة المودة والتعاطف والتسامح والمغفرة والصبر، ومودة المزارع هي نتاج استعداده الفطري وتنشئته الاجتماعية على التعاطف ومشاركة الأخرين مشاعرهم وأحاسيسهم، وهي ما أطلق عليه عالم الاجتماع دوركهايم Durkheim (1858-1917) مشاعر التعاطف والتضامن، وبفضل قدرته على تقمص مشاعر وأحاسيس ودوافع الآخرين وإدراك دوافعهم وكذلك معرفته واعترافه بنواقصه وعيوبه مثل أي إنسان آخر يكون المزارع أكثر استعداداً للتغاضي عن إساءاتهم والصفح عنها والتخلص من الضغائن والأحقاد والرغبة بالانتقام التي قد تخلفها هذه الإساءات في النفس، فهو لا يجد في الانتقام لذة شفاء الغل، ويراه انجرافاً أرعناً وراء أسلوب الصياد في الحياة وتهديداً وإضعافاً للوشائج الاجتماعية.

والسلام والمودة بالنسبة للمزارع شرطان ضروريان لبلوغ الدرجة المطلوبة من التوافق والتجانس والتعاون بين البشر، كما أن هذه العلاقات الوطيدة بينهم غير ممكنة بوجود الأنانية والحقد والقسر والقهر، وليس المقصود بذلك الحب الرومانسي وإنما محبة البشر قاطبة، كما نجدها لدى شخصية السجين جان فالجان والكاهن في رواية البؤساء Les Miserables لفكتور هيجو، وهذه المودة هي عاطفة إنسانية وعالمية ومؤثرة في السلوك.

وفي مقارنتها بين نفسها وقيصر تصف كليوباترا في مسرحية جورج برنارد شو (قيصر وكليوباترا) قيصر بصفات تجعله أقرب إلى المزارع منه إلى الصياد، فهي تجده مغايراً لها والآخرين الذين يصنفون البشر إلى أصدقاء وحلفاء يستحقون مودتهم أو أعداء ينبغي كراهيتهم والحذر منهم، إذ تصف قيصر بأنه محب للجميع –حتى الأطفال والكلاب، وتضيف: "أن عطفه وحنانه علي عجيب إذ لم تعاملني أمي أو أبي أو مربيتي بمثل هذه العناية ولم يصارحوني ويكشفوا لي أفكارهم مثله"، وهو وصف مناقض تماماً لتاريخ يوليوس قيصر الحقيقي، الذي تفاخر يوماً بأن قواته كبدت قبائل الهلفتيا أكثر من ربع مليون ضحية، وكثير منهم مدنيون عزل.

يخلص المزارع لقومه ومجتمعه كل الإخلاص، ولكنه لا يرى نفسه مقيداً بذلك إذ يمتد انتماؤه الفكري والعاطفي الفعال للبشرية جمعاء، ويرى العالم كله موطناً له، وكل الناس أخوة له في الخلق، تؤلمه مآسي البشر أينما كانوا، حتى الذين لا يريدون له ولقومه الخير، وهي مشاعر تلقائية وعفوية من دون تصنع، وغالباً ما تتجاوز ردود فعله إزاء مصائب الآخرين مجرد التعبير اللفظي عن التألم والحزن والتعاطف، فقد يبذل من ماله ووقته للتخفيف عن معاناة إخوانه في الإنسانية، فالتبرع للأعمال الخيرية والعمل التطوعي وغيرها من أشكال المساعدة هي بعض الطرق العملية التي يعبر من خلالها عن تضامنه مع الجماعة والبشرية، ولأنه سامري خير فهو يساعد الجميع، ولا يميز في ذلك بين أصدقائه ومعارفه وكذلك الغرباء دون أن يتوقع منهم مقابل ذلك جزاءً أو شكوراً، وهو يكتسب من أعمال الإيثار الرضا عن النفس، ويأمل من ممارستها انتشار قيمه ومبادئه بين الناس، فهو يرى الأرض وكذلك المجتمع البشري كتلة واحدة، وكل ما يعمل الفرد فيه من خير أو يقترف من شر، سيرتد ويعود بالمثل عليه وعلى الجماعة والعالم.

ولا تمنع قلة موارد المزارع وصوته المضطهد من التعبير عن عدم رضاه عن مجتمع الصياد وعن النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، التي ابتدعها وطورها وفرضها الصياد، وعلى الرغم من امتعاضه وسخطه على حالة العالم من حوله فليس من المحتمل أن ينفس عن ذلك من خلال العنف، وعلى العكس من ذلك ستلقاه مشاركاً في مسيرة تنادي بالسلام ونبذ الحروب، أو ينظم حملة احتجاج ضد التمييز العنصري وهضم حقوق البشر وإساءة معاملة الحيوان أو تلويث الطبيعة، كما قد يرفض التجنيد الإجباري، ويتحمل التبعات القانونية والاجتماعية السلبية لذلك، ليس جبناً أو تكاسلاً، فالجبن ليس من صفات المزارع، وإنما لكون قتل الآخرين يتناقض جذرياً مع معتقداته، إلا دفاعاً عن النفس، ولا يلجأ عادة للتقية وإخفاء معتقداته إلا إذا كان ذلك ضرورياً لتجنب خطر داهم وأذى محقق، ويمكن الاعتماد عليه في الأحيان الأخرى للإدلاء برأي صادق وإعطاء نصيحة مخلصة والوفاء بعهوده.

وعلى النقيض من ادعاء الصياد بالفضل في معظم إنجازات البشرية المتحققة حتى الآن فإن المزارع هو الصانع الحقيقي للحياة المستقرة في المجتمعات، وما يدور داخلها من تعاون وتعاطف، ويمارس فيها من الأخلاق السامية، وكلما أشعل الصياد فتنة وصراعاً سعى المزارع جاهداً لإطفائها وفض النزاعات سلمياً وحقن دماء البشر، وبالتالي كلنا ندين له بالشكر على بقائنا وتطورنا وتقدمنا.

هل المرأة صيادة ومزارعة أيضاً؟

إن لشخصية المرأة أيضاً جانبان: صياد ومزارع، والفرق الوحيد بين المرأة والرجل هو، وحتى وقت قريب، قلة فرص المرأة في الحصول على تنشئة اجتماعية وحوافز تدفعها لاختيار أسلوب الصياد في الحياة، وتُعوّد المرأة في المجتمعات التقليدية على الإذعان للرجال في عائلتها، أي الأب والأخوة والأعمام والزوج، وتُنهى عن محاولة السيطرة عليهم لئلا يتخنثوا ويفقدوا صفات الصياد، وفي الوقت نفسه تدرب المرأة على أداء دور راعية البيت في كونها زوجة وأم، وأن تتقبل دور التابع والمرؤوس في الأمور العامة والخاصة، ونتيجة تطبيق هذا المعيار المزدوج نجح الصياد في إقصاء المرأة من العملية التنافسية في المجتمعات، وكان الاستثناء على

ذلك في بعض المجتمعات القديمة المندثرة matriarchal societies التي تحكمت فيها المرأة اعتماداً على احتكارها للكهانة والطقوس الدينية والسحر، وما يزال باستطاعة الكثير من الرجال، وحتى الذين يشغلون أدنى المراتب في هياكل سلطة الصياد، إشباع نزعتهم للقوة من ممارستها على النساء من أهل بيتهم.

وفي الماضي تمثل التمييز ضد المرأة في استثنائها من المناصب الهامة ذات السلطة العالية في الحكومة والإدارة والجيش والكهنوت، تحت ستار من المبررات مثل الضعف الجسماني وانخفاض مستوى الذكاء وغيرها، واضطرت النساء المحرومات من التنافس على قدم المساواة مع الرجال إلى اللجوء إلى الغواية والإغراء والمكر لحماية أنفسهن من شركائهن المتجبرين في البشرية وكذلك لإشباع نزعتهن للقوة والسيطرة لأن لهن أيضاً جانباً يهيمن فيه الصياد وفكره وقيمه.

ومن المثير للاهتمام أن العديد من العقائد الدينية والحكايات التراثية تضع المسئولية عن التهالك وراء القوة والسيطرة وعن معظم الشرور في حياتنا على المرأة، وهذا الموقف مثال على رفض الصياد للاعتراف بنقاط ضعفه وعيوبه، وبدلاً من تحمل المسئولية عنها يرمي بها على الآخرين، ووفقاً لهذه العقائد فإن جانب الصياد في حواء، أي نزعة السيطرة لديها، دفعها إلى إقناع آدم بعصيان أوامر ربه وشاركته في ذلك، وفي الميثولوجيا الإغريقية اقترفت امرأة وهي بندورا خطيئة العصيان أيضاً في إقدامها على فتح الصندوق الذي أطلق عليه أسمها، أي صندوق بندورا، وبذلك أخرجت كل أنواع الشرور من حبسها داخل ذلك الصندوق الخرافي، ودلالة الحكاية واضحة في إلقاء المسئولية عن الشر على المرأة العاصية، وما يزال الرجال يضربون المثل باحتيال الشريرة دليلة على شمشون الطيب وسلبه قوته، كما أن القول بوجود امرأة وراء كل رجل عظيم إشارة واضحة إلى النساء الطموحات، اللواتي يسعين من خلال تحريض وتشجيع أزواجهن أو أبنائهن على تحقيق ما لا تسمح لهن القيود الاجتماعية بلوغه، وترى ليرنر (1989) Lerner بأن المهارات الاجتماعية التي تتعلمها المرأة ضرورية لـ"اصطياد" رجل يتزوجها ويوفر لها ما تصبو إليه من مكانة اجتماعية وعيشة مرفهة.

يحذر الموروث الاجتماعي من حكايات وأمثال في العديد من المجتمعات التقليدية الرجال من الوقوع ضحية لأحابيل النساء، اللواتي يرمين شباكهن حوله للسيطرة عليه وإخضاعه بالمكر والخداع والغواية، ومن المثير للانتباه مساهمة النساء في حفظ ونقل ونشر هذا الموروث المشكك بنواياهن تجاه الرجال، وفي هذه المجتمعات تناصر الأم ابنها، وتحرضه على زوجته، محذرة إياه من الوقوع تحت سيطرتها، على أساس افتراض سائد بأن كل النساء يسعين للسيطرة على الرجال، وغالباً ما يحتدم الصراع بين الأم والكنّة حتى ينتهي بانتصار إحداهن، وتؤكد هذه السلوكيات في المجتمعات التقليدية على أن النساء لا يختلفن عن الرجال في نزعتهن نحو الحصول على القوة والتسلط، ولكن باستعمال وسائل مختلفة.

ولعل السبب الرئيسي وراء كبت نزعة المرأة للقوة والسيطرة هو حرص الصياد على تقليل منافسيه، وسعيه الحثيث لحرمان الآخرين من الفرص لمزاحمته على المكاسب، فبالمقارنة بالرجال الذين يتوجب عليهم الاقتداء بنموذج الصياد القوي والمستقل قيدت مجتمعات الصيادين دور المرأة داخل العائلة والمجتمع، وفرضت عليها طاعة الرجل والاتكال عليه، ولا شك بأن تشبه النساء بأمهاتهن ودورهن الرئيسي في رعاية الأبناء والأزواج وربما الأبوين في الكبر يضع النسوة في موضع أقرب لفكر وسلوك المزارع منه إلى الصياد، وهذا يفسر أيضاً أهمية العواطف لديهن وتمسكهن بالثوابت من القيم واستعدادهن للتضحية والإيثار، وقد تجعل هذه الصفات النساء أقل ميلاً للانتحار، وتبين المعلومات الإحصائية في المجتمعات الغربية أن نسبة الانتحار بين الرجال تزيد على ضعف معدلاته بين النساء، كما أن مظاهر العدوانية المنتشرة بين المراهقين الذكور الأقرب لنموذج الصياد مثل تكوين العصابات وتناول الخمور وتعاطي المخدرات أقل انتشارا لدى المراهقات، ولكن يخشى أن تكون هذه الفروق السلوكية في طريقها للزوال، ويتنبأ فشبين (1992) Fishbein بتنامي معدلات الانحراف والجريمة بين النساء نتيجة

التغير في الأدوار داخل العائلة، وهو ما تؤكده البيانات المتوفرة عن حقبة الثمانينات من القرن الماضي، ومن الواضح بأن المرأة قد تجاوزت أدوارها المرسومة في المجتمعات التقليدية، وتطورت مشاركتها في المجتمعات الحديثة خلال القرن العشرين، واكتسبت المزيد من الحقوق، ودخلت معترك الأعمال والوظائف، مما يحتم عليها التنافس مع الرجال والنساء حول المناصب والمكانة الاجتماعية وغيرها من الغايات المرغوبة، التي كانت وحتى تاريخ قريب حكراً على الذكور الصيادين، وهي ماضية في إثبات وجودها وقدراتها في مجتمعاتنا التي يهيمن عليها الصيادون، وهي جادة ومصممة على اللحاق بالرجل في كل المضمارات، وتفرض المنافسة شروطها على المرأة، ولكي تتنافس بفعالية لا بد لها من اكتساب مهارات واتجاهات وقيم الصياد، وهذا يتطلب منها أن تتحرك لتكون هي أقرب إلى نموذج الصياد وخصائصه المميزة مثل حب الذات والعدوان.



الفصل الثاني
تاريخ مختصر لنشوء شخصيتي الصياد والمزارع

إن الحاجة الأساسية للإنسان هي البقاء، والغذاء هو أول مستلزمات البقاء، وحتى الآن لم يعرف الإنسان سوى وسيلتين للحصول على غذائه: أولاً الصيد والِتقاط الغذاء وثانياً الزراعة، واعتمد الإنسان الحديث homo sapiens على صيد والِتقاط الغذاء لمعظم الفترة التي انقضت على ظهوره، والتي تقدر بين أربعين إلى تسعين ألف سنة، أما اكتشاف الزراعة فهو حدث متأخر نسبياً، إذ يعود لعشرة آلاف سنة خلت، ولقد كان التحول في طريقة تحصيل الغذاء من الِتقاط وصيد الغذاء إلى الزراعة انعطافاً مصيرياً في تاريخ البشرية وتطور المجتمعات البشرية، نتجت عنه تغييرات كبيرة في التراكيب ونظم القيم الاجتماعية، فالعديد من تقاليدنا الثقافية مثل الطبقات الاجتماعية والمعتقدات الطوطمية تحددت أو تأثرت جذرياً بهذا التطور، ولكن، وكما سيتضح في هذا الفصل، لم يغادرنا الصياد حتى بعد أن أصبحت طريقته في جني قوته بالية، بل أنه استطاع من خلال قدراته ومهاراته الفعالة على التكيف مع التغيير التقنو-اجتماعي والمحافظة على هيمنته الاجتماعية، وحقق لنفسه مكاسب جديدة، ويؤيد الكاتبان تايجر وفوكس
Tiger and Fox (1971) هذا الاستنتاج بتأكيدهما على أن الحضارتين الزراعية والصناعية لم تضيفا شيئاً يذكر على التصميم الأساسي للإنسان، فنحن مصممون للصيد وللمشاعر والمحفزات والاهتمامات والمخاوف والعلاقات الاجتماعية التي كان يتطلبها العيش والبقاء كصيادين، ويرى الكاتبان بأن وصف الإنسان بالصياد ليس مرتبطاً بـ" حقبة من تاريخه الموغل في القدم لأننا ما نزال صيادين" (ص 21)، و بحسب رأي فايفر Pfeiffer (1972) ما تزال بصمات ذلك التاريخ راسخة في نفوسنا، وما سلوك وفكر الإنسان المعاصر سوى تركة أسلافه شبه المتوحشين في زمن موغل في القدم، ويتفق نيلسون وجرين Nelson and Greene (2003) مع هذا الاستنتاج في ملاحظتهما لتأثر سلوك البشر بمتطلبات البقاء من مرحلة الصيد وجمع الثمار، في حين أن المرحلة اللاحقة للصيد لم تدم بالمقارنة فترة زمنية طويلة لكي تكون مؤثرة بنفس الدرجة.

في البدء كان الصياد

لم يبقى سوى عدد قليل من الجماعات التي تعيش على الصيد والِتقاط الغذاء في عالمنا اليوم، ولكن بالنسبة للإنسان القديم كان الصيد وجمع جذور النباتات والثمار وغيرها من اللقط الغذائية الطريقة الوحيدة للحصول على غذاءه، وكان توزيع العمل في تلك المجتمعات البدائية بسيطاً للغاية: فبينما ذهب الرجال للصيد تولت النساء الِتقاط ما يؤكل، ويبدأ يوم نمطي في حياة هذه الجماعات الصغيرة بخروج الرجال للصيد، والصيد حكر على الرجال، بينما تقبع النساء في بيوتهن للعناية بأطفالهن، أو يخرجن لجمع ما تيسر من جذور أو ثمار، وبعد عودة الرجال محملين بطرائد الصيد يجلسون لتناول طعامهم، ولابد أنهم كانوا يتسامرون برواية وقائع الصيد وما حفلت به من مشقات وبطولات، وتؤشر الرسومات البدائية التي خلفها أسلافنا لمناظر صيد على جدران الكهوف التي سكنوها أهمية هذا النشاط بالنسبة لهم.

كانت العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء الصيادين بدائية، وتتحكم بها على الأغلب قاعدة التبادل أو التعامل بالمثل reciprocity، وما زالت اليوم أساساً للتعاون بين البشر، فبعد أن يحتفظ الصياد الأقوى لنفسه بأفضل الطرائد أو الأجزاء المفضلة من الطريدة يوزع المتبقي منها على أفراد أسرته والصيادين الأدنى مهارة والأقل توفيقاً، ومقابل ذلك حصل هذا الصياد الناجح على مكانة خاصة بين الجماعة، وإن كانت لا ترقى إلى قيادتها والتسلط على مقاديرها في كل

الحالات، وقد تكون له حظوة خاصة لدى نسائها، وهذا ما تؤكده نتائج الدراسات على بعض القبائل والجماعات البدائية التي ما تزال تصطاد وتلتقط غذاءها، فالصياد السخي بين قوم الأجي Ache في أمريكا الجنوبية، كما لاحظ رايت (1994) Wright، يجني ثمار سخائه بصورة علاقات أكثر مع النساء، وله ذرية أكثر عدداً من غيره، وأضاف نفس الكاتب بأن رئيس الصيادين أو الكومبيتي بين أقزام الأكا Aka pygmies يحتفظ لنفسه بالحصة الأكبر من الطرائد، وله عدد أكبر من الزوجات والأولاد، ويشير الكاتبان ترومان وترومان (1982) Trueman and Trueman إلى أن المقاتلين من رجال قبيلة اليانومامي Yanomami التي تستوطن الأمازون يحصلون على زوجات ولهم أبناء أكثر من الذين لم يمارسوا القتل، ولاحظ كلاجنون (1983) Clagnon أن ربع تعداد هذه القبيلة يتوفون نتيجة العنف، كما أن من الطبيعي أن يكون أفراد القبيلة من الذكور الأقوياء والماهرين في الصيد والقتال من أوائل المرشحين لقيادة الجماعة، وأفاد ألفارد وجلسيبي (2004) Alvard and Gillespie أن مستعملي الحربات المستخدمة في صيد الحيتان بين جماعة لاماليرا في أندونيسيا يتميزون عن غيرهم بالزواج المبكر والذرية الأغزر.

يتطلب الصيد امتلاك المهارات الخاصة بذلك وقوة بدنية وحداً أدنى من الذكاء وصبراً وأناة، ولا صيد ناجح من دون درجة كبيرة من الإقدام والجسارة، وقد اختلف علماء الأنثربولوجيا حول استعمال العنف بين تلك المجتمعات البدائية، إذ يرى فريق بأنهم كانوا مسالمين بشكل عام، ويستدلون على ذلك من مسالمة بعض القبائل التي حافظت على نمط حياتها العائد إلى عصر الصيد والالتقاط مثل قبيلة السيماي في ماليزيا (روبارشيك وروبارشيك Robarchek and Robarchek 1998) بينما يؤكد فريق آخر على عدوانية أسلافنا ولجوئهم للعنف والقتال، ومن دون التعمق في جوانب هذا الجدل توجد أدلة كافية على انتشار ظاهرة العنف والقتل بين تلك الجماعات البدائية، وخلص هاريس (1977) Harris إلى نتيجة مفادها أن معظم جماعات الصيادين وملتقطي الغذاء التي حافظت على نمط حياتها حتى اليوم تمارس نوعاً ما من القتال مع جماعات أخرى.

وفي تقدير كيلي (1996) Keeley كان أسلافنا الصيادون أكثر دموية منا وفاقت أعداد ضحاياهم نسبة إلى عدد السكان أعداد القتلى في أشد الحروب والمعارك ضراوة في العصور التالية لزمانهم وحتى وقتنا الحاضر، ويذهب لي بلانك (2004) Le Blanc في كتابه الموسوم الحروب الدائمة Constant Battles إلى أن فرضية الهمجي النبيل خرافة وأن العنف والحروب نزعة ثابتة وموجودة منذ القدم، ويرى جات (2006) Gat بأن مجتمعات القدماء الذين عاشوا على الصيد وجني الثمار لم تخلوا من الصراع، وهنالك أدلة كثيرة على اقتتال الصيادين، ويقدر بأن نسبة جرائم القتل إلى عددهم في جماعات الصيد القديمة أعلى بكثير من معدلاتها في المجتمعات الصناعية الراهنة.

يرى رانجهام وبيترسون (1996) Wrangham and Peterson بأن عدوانية الجنس البشري والمتمثلة في غزواته وحروبه التي يشنها على جيرانه ظاهرة موروثة من أسلافه الصيادين القدماء ، وما تزال هذه العدوانية عنصراً رئيسياً في نمط حياته وتفكيره وسلوكه، ويعيد تايجر وفوكس (1971) Tiger and Fox إلى الأذهان ماضينا كصيادين عندما يؤكدان بأن صيحات الحرب ما زالت تؤجج في النفوس الحماس، لأننا ما نزال في قرارة أنفسنا صيادين من العصر الحجري، ومشاعرنا واهتماماتنا لم تتغير منذ ذلك الحين، ويتفق معه دوتون Dutton (2008) إذ ينقل عن علماء الأحياء الاجتماعية بأن العنف المتطرف هو تركة متوارثة، ترتكز على ثلاثية الألم-الدم- الموت، وتعود في الزمن إلى مرحلة الصيد في الماضي السحيق، ويؤكد دوتون على ضرورة اقرار البشر بامتلاكهم النزعة للعنف المتطرف، وأن يحاذروا من خداع أنفسهم بافتراض كونهم متحضرين.

يؤدي الصيد المستمر إلى قلة الطرائد في منطقة معينة، مما يدفع بالصيادين إلى توسعة منطقتهم المحمية، أو الانتقال إلى منطقة جديدة، كما أن الحاجة لمطاردة الحيوانات المصابة

تستوجب السيطرة بالقوة على منطقة واسعة نسبياً، ويضطرون للتصدي للمعتدين على ديارهم ومناطق صيدهم، وربما اضطروا للقتال للاستحواذ على مناطق صيد جديدة، ومن المحتمل أن يكون ميلنا إلى الاستقلال بمساحة خاصة لكل منا territoriality لا نسمح للغير بالتجاوز عليها - والمثال على ذلك الممتلكات والحدود بين الدول – خاصية مكتسبة من تلك المرحلة في تطورنا الاجتماعي.

وقد يكتسب العنف مسوغات عقائدية طوطمية كما هو الحال لدى قبيلة الهيفاروا Jivaro، وقد اشتهرت هذه القبيلة التي تسكن مجاهل الأمازون في أمريكا الجنوبية بعدوانيتها المتطرفة وغزواتها المتكررة وقسوة محاربيها الذين يعمدون إلى قطع رؤوس أعدائهم وتحنيطها، وينطلق هذا العنف المفرط من اعتقاد القبيلة بأن الذكور يكتسبون أرواحهم خلال صباهم، وتمكث هذه الأرواح في أجسادهم لأربع أو خمس سنوات ثم تغادرها، ووفقاً لوصف ربيكا ماركوس Marcus (1980) لطقوس وعادات هذه القبيلة ينبغي على أفراد القبيلة قتل آخرين لكي يحصلوا على أرواح جديدة.

يفضل الانتخاب الطبيعي الصياد القوي والمقدام، ووفقاً لنظرية التطور Evolutionary Theory فقد غرست عملية الصيد الخشونة في طبائعنا، فالبقاء كان من نصيب الصياد الأصلح، أي الأكثر مهارة والأقوى والأشرس، وهو الأوفر حظاً في كثرة نسله، ولديه فرص اكثر لنقل مورثاته genes أو صفاته الموروثة إلى الأجيال اللاحقة، ولم تكن للصياد الضعيف فرصة تذكر في البقاء وسط تلك الظروف القاسية، حتى غدا البقاء للأقوى عرفاً ثابتاً بين تلك الأقوام البدائية، وكان ممارساً إلى فترة قريبة بين هنود الكاريبو في منطقة خليج هدسون بكندا، فعندما لا يجدون ما يصطادونه من غزلان الرنة، وتواجه الجماعة خطر المجاعة، يقدم كبار السن طوعاً على الانتحار، وبعد انتحار كافة المسنين يأتي دور صغار الإناث، اللواتي يقتلن على أيدي أقرب الناس إليهن، وجرت العادة بين هنود الأسكيمو إذا شح الغذاء على ترك كبار السن والعجزة والمرضى والرضع في العراء ليقضوا نحبهم بفعل البرودة القارصة والجوع، كما كتب كولنز Collins (1975) .

ومن المرجح أن تعيش الجماعة المعتمدة على الصيد وإلتقاط الغذاء حياة بداوة، فعندما تقل الطرائد نتيجة الصيد المكثف والمتواصل، ولا يجدون ما يسد رمقهم من جذور وثمار النباتات في ديارهم تشد الجماعة رحالها لتبحث عن منطقة أكثر عطاءً، وهكذا لم يتح لهم الصيد الاستقرار في مكان واحد وإنشاء مدن وحضارات.

وبالإضافة إلى حياة البداوة فرض الصيد سقفاً منخفضاً لحجم الجماعة الواحدة، فكانت الجماعة تقتصر على عدد قليل من الأسر، ويؤكد هذه الاستنتاج ما نعرفه عن الجماعات التي ما تزال تعتمد الصيد وجمع الغذاء في معيشتها، ففي جماعة الجنجي في الهند تراوح عدد الأسر ما بين ثلاثة وأثني عشر، وكانت قبيلة الشيشوني من هنود النيفادا في أمريكا منقسمة إلى جماعات أسرية صغيرة، ولا تتجمع القبيلة بأعداد أكبر إلا في موسم صيد غزال الأنتلوب أو للتزاوج فيما بينها، وتشير الأدلة المتوفرة إلى أن الصيادين عاشوا واصطادوا في مجموعات صغيرة معتمدين على قواهم البدنية وأسلحتهم البدائية، وباختصار فقد حال الاعتماد على الصيد دون تكوين جماعات كبيرة أو مجتمعات مدنية، كما نمى هذا النمط من الحياة وطلب الرزق في النفوس العدوانية، ويرى كولنز Collins(1975) بأن العيش تحت تلك الظروف القاسية كان محفوفاً بالمخاطر إلى درجة بثت في نفوس الجميع، حتى الصيادين الأقوياء، الريبة والقلق والخوف.

ظهور المزارع

قبل حوالي عشرة ألاف سنة اكتشفت الزراعة، ومن المرجح أن يكون الفضل في ذلك للنساء اللواتي كن يلتقطن الجذور والثمار، ويصفه ماكنيش MacNeesh (1992) بأعظم اكتشافات البشرية التي حررت الناس من الانشغال الدائم بطلب الغذاء، ومكنتهم من توجيه طاقاتهم إلى

مآرب جديدة، ولم يقتصر هذا التطور على طريقة تحصيل الغذاء، بل تعدته إلى أسلوب حياة البشر وتنظيماتهم وعلاقاتهم الاجتماعية.

أعادت الزراعة تكوين ارتباطات الإنسان ببني جنسه وبالطبيعة كذلك، ومن المؤكد بأن الزراعة جمعت الناس سوية، وشجعتهم وعودتهم على العيش والعمل في جماعات، وما يتطلب ذلك من تغيير في القيم والعادات والسلوكيات، فبدلاً من نظرة الارتياب وحتى العدوانية التي كان يرمق بها الصياد الآخرين باعتبارهم منافسين له في الصراع المرير على البقاء عاملهم المزارع كأعوان وشركاء له في طلب الرزق، ولاشك بأنه كان تحولاً صعباً ومؤلماً بالنسبة للصياد الذي تعود على نمط حياة دام عشرات الألاف من السنين، ولكن غريزة البقاء والخوف من الجوع أقنعت الصياد في النهاية بمزايا الزراعة.

تطلب بقاء الجماعات الزراعية الناشئة بعد اكتشاف الزراعة مستوى أعلى من التعاون مما كان مطلوباً وممارساً في عهد الصيد، وسرعان ما أدرك البشر أن التعاون في إنجاز بعض المهام الزراعية ضروري لزراعة مساحات أكبر وجني محصول أوفر وأجود، وتقتضي الأساليب الزراعية التقليدية، والتي ظلت مطبقة حتى القرن العشرين في بعض المجتمعات، تعاون جماعات منظمة من الأفراد لأداء بعض الأعمال الزراعية مثل تجفيف المستنقعات واستصلاح الأراضي البور وإقامة السدود وشق قنوات الري ومكافحة الأوبئة والحصاد، وحتى وقت قريب كان الفلاحون في جنوب العراق القبلي ينظمون تحت إشراف رؤسائهم القبليين ما يعرف بالحشر، بهدف تنفيذ العمليات الجماعية التي يعجز عن أدائها الفرد في الوقت المناسب الذي تفرضه الدورة الزراعية، وكان هؤلاء القبليون الذين ما زالوا يحملون قيم البداوة الأقرب لنموذج الصياد كثيري التذمر من عمليات الحشر التعاونية.

استدعت المرحلة التقنية المرتبطة بالزراعة درجة أعلى من التكاتف والتكامل بين أعضاء الجماعة، واستدعت بروز أهمية ومعاني جديدة للعضوية في الجماعة والانتماء والولاء، وكان من أهم نتائج هذه الطفرة التقنية اضمحلال حياة البداوة واستبدالها بالتجمعات المستقرة في قرى ومدن، ويرجح ممفورد Mumford (1961) أن يكون نشوء القرى نتيجة اتحاد مستوطنات زراعية صغيرة طلباً للأمن والإنتاج الأوفر ضمن الجماعات الأكبر حجماً، وبأن للنساء اللواتي اكتشفن الزراعة دور أساسي في إنشاء هذه القرى أيضاً كمراكز للعناية بصغارهن، ويجد الدليل على هذا التأثير النسوي في كثرة الأواني المنزلية من قدور ومواعين ودوارق وغيرها، والتي تحفل بها المواقع الأثرية لتلك الحقبة من التاريخ البشري، وشهدت بلاد ما بين الرافدين ظهور أول تلك القرى، التي نمت فيما بعد لتصبح مدناً، ومن ثم تكونت فيها أولى دويلات أو حكومات المدن في التاريخ المعروف.

طورت تلك الدويلات الزراعية لنفسها نظماً سياسية وقانونية وإدارية، وعلى الأغلب كان مجلس السكان باكورة المؤسسات السياسية التي عرفتها تلك المستوطنات الزراعية، وشرعت بعض القواعد الأساسية التي تلبي الاحتياجات التنظيمية والقانونية الأساسية للسكان، وبالترافق مع نمو هذه التجمعات ظهرت عقائد دينية، أكثر تفصيلاً وتعقيداً من عقائد الصياد الطوطمية القديمة، وأكثر استجابة وملائمة لاحتياجات المزارع لعقائد وقواعد وطقوس تنظم وتوجه العلاقات والسلوك داخل الجماعة، وتضمنت هذه الأديان قيم المزارع مثل التعاون والتكاتف والتضامن الاجتماعي وأضفت الشرعية عليها، ولا شك بأن للدين دور رئيسي في تمتين العلاقات الاجتماعية، فلا غرابة أن يعمد الفاتحون والمستعمرون، وعلى مر العصور، إلى استهداف الأديان في المجتمعات المحتلة والمستعمرة لإضعاف المجتمع المحلي وتسهيل مهمة السيطرة عليه وإخضاع أفراده.

طرأت تغييرات جذرية وشاملة على جوانب الحياة الاجتماعية والعملية في التجمعات البشرية المنظمة الأولى، التي غدت أكثر تنوعاً وتخصصاً وتعقيداً، فظهرت مهن جديدة وصناعات بدائية لتلبية احتياجاتها المتنامية من السلع والخدمات، مثل الحرف المتخصصة بصنع وصيانة أدوات

المزارع وأواني وأثاث منزله القليلة، واشتغل التجار والوسطاء وأصحاب الدكاكين بشراء وبيع الفائض من محاصيله.
لم ينقرض الصيد كوسيلة للعيش تماماً، كما لم تختفي قيم الصياد بعد انتشار الزراعة وتكوين التجمعات البشرية الأكبر حجماً، وأتى البديل الأكثر تجانساً مع ميول الصياد في مهنة الرعي بعد تدجين الحصان والجمل، وقد حافظت بعض القبائل التي تمتهن الصيد أو الرعي على طرقها التقليدية في العيش وأعرافها حتى القرن الواحد والعشرين، ونجحوا في العصور القديمة والوسطى في تشكيل قوات موحدة ضاربة، كما هو الحال بالنسبة لقبائل الهون والمغول، تمكنت من إسقاط دول أكثر تحضراً وتخريب مدن عظمى وتدمير مجتمعات زراعية غنية.
ووصف الروائي الفرنسي فيكتور هيجو تأثيرات حياة المدن على سكانها مقارنة بغيرهم بكلمات رائعة في روايته المشهورة البؤساء فكتب: تنتج المدن أفراداً شرسين، وتولد بشراً فاسدين، أما الجبال والغابات والبحار فتحولهم إلى بدائيين أشداء من دون محو إنسانيتهم، فهل ينطبق هذا الوصف على مدن المزارعين الأوائل؟
أدت الزراعة وأهميتها لحياة السكان إلى رفع قيمة الأراضي بدرجة لم تكن معروفة أيام الصياد، وقد غدت هذه الأصول الزراعية ذات القيمة العالية محط تنافس وصراع بين المزارعين، الذين ورثوا الكثير من تركة الصياد من الفكر والقيم والعادات والسلوك، ونتيجة للصراع حول ملكية الأراضي، الذي يحمل بصمات نفسية الصياد التنافسية والعدوانية، توزع الناس بين مالكي الأرض ومزارعين وأقنان، ويذكر إجناتيف Ignatieff (1984) بأنه لم ينقض وقت طويل على تحول البشرية من الصيد إلى الزراعة حتى توزع المشتغلون بالزراعة بين مالكي أراضي وأقنان أو عمال أجراء يعملون لديهم.
وجد الصياد الذي تحول مكرهاً إلى الزراعة، وبعد تكييف بعض جوانب تفكيره وأساليبه لمقتضيات الحياة الجديدة، فرصاً جديدة لممارسة أنانيته وولعه بالقوة وعدوانيته في الميادين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الزراعي، وكانت وما تزال الهياكل السلطوية الاجتماعية والدينية والسياسية قاعدة ثابتة في عالم وفكر الصياد، فهو المسؤول عن إحداث الطبقية في المجتمعات، واحتكار السلطات من قبل أفراد أو فئات اجتماعية، واستعباد الإنسان لبني جنسه، وحرمان الغالبية من السكان المستضعفين من التأثير في القرارات السياسية والمشاركة في الأنشطة الاقتصادية وامتلاك الأراضي وغيرها من وسائل الإنتاج، وهكذا هيمن الأفراد الذين هم أقرب لصفات الصياد منه إلى المزارع على مقاليد الأمور في هذه المجتمعات، وأصبح منهم الحكام وكبار الكهان والقادة العسكريون والإقطاعيون، وحافظوا على مراكز قوتهم ومصالحهم من خلال نشر وفرض العقائد الخرافية والطقوس والقواعد الدينية والقوانين الوضعية والمؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وطمحوا إلى زيادة مصادر قوتهم وتنمية مصالحهم من خلال الفتوحات وبناء الإمبراطوريات، وعلى الرغم من المخاطر العديدة الناتجة عن الحروب على حياته وممتلكاته لم يرتدع الصياد في المجتمعات الزراعية عن شنها وبضراوة أحياناً على جيرانه، لأنه وكما يحلل شخصيته لينسكي ولينسكي Lenski and Lenski (1978) لم يكن قادراً على التخلص من أسلوب حياة الصياد التي تعتمد الصيد والإغارة، واستناداً إلى هذه الحقائق والتحاليل نستنتج بأن المزارع وطريقته الأصيلة في الحياة لم تكن متكافئة في القوة والتأثير مع الصياد وأنانيته وشراسته، لذا كانت هزيمة المزارع محتمة وأفضت إلى سيطرة الصياد على التجمعات السكانية الأولى، واستمرت هذه السيطرة عبر التاريخ وحتى يومنا الحاضر.

مسيرة الصياد الظافرة

ما التاريخ إلا سجل لسعي الصياد الحثيث خلف القوة والسيطرة والمجد، وتوثيق لانتصاراته على كل التحديات لسلطته، وباختصار فإن التاريخ سيرة حياته وصحيفة أعماله وبالذات حروبه،

أو كما يقول جون دوكر Docker (2006) فإن تاريخ البشرية ما هو إلا سجل للعنف بمختلف صوره من حروب واحتلال واستعمار ومذابح. فقد كان وما زال الصياد مهيمناً على المجتمعات البشرية ومؤسساتها على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الأنبياء والأولياء والمفكرون والمصلحون الاجتماعيون، الذين حاولوا إسماع صوت المزارع، واعطاءه دوراً أكبر في حياتنا.

تسلط الصياد على المدن والدول القديمة

تشير الوثائق التاريخية للعصر الأول من ظهور الزراعة في بلاد ما بين النهرين بأن التجمعات السكانية لم تعرف نظاماً رسمياً للحكم والسياسة، ففي بلاد سومر كانت المجالس المحلية تحكم المدن، وقياساً على نماذج ومعايير الديمقراطية الحديثة فقد تحققت فيها درجة مدهشة من الديمقراطية البدائية، ومن ممارساتها المستحقة للاهتمام انتخاب ما يسمى باللوجال أو رئيس المقاتلين، إذا ما طرأت أزمة تستدعي ذلك، مثل اقتراب عدو خارجي أو افتراس حيوان لماشيتهم، وكانت سلطات اللوجال ومدة نفاذها محددة، وما أن تنتهي الأزمة حتى يعود مجدداً إلى صفوف المواطنين العاديين، وكما يورد روكس Roux (1964)، ولاشك بأن هذا العرف السياسي القديم لن يلقى تأييداً بين معاصرينا من محترفي السياسة في بلاد ما بين النهرين وغيرها، وفي مرحلة ما دفع الطموح اللوجال إلى احتكار السيطرة والحكم في هذه المدن، ولعلهم في البدء احتفظوا بمجالس السكان كمؤسسات استشارية لكنهم ما لبثوا أن استغنوا عنها، ولأنهم كانوا "ملوثين برغبة سادية جامحة بالسلطة"، كما يصفهم ممفورد Mumford (1961) فقد نصبوا أنفسهم ملوكاً، كما أنهم ابتدعوا فكرة الحكم الإلاهية، والمتمثلة في ادعاء نزول الملك أو سلطة الحكم من السماء في مدينة أريدو في بلاد الرافدين، كما كانت تلك الدويلات أولى الثيوقراطيات، التي تولى فيها الحكام أو الملوك أعلى السلطات الوضعية والدينية على حد سواء، وبذلك محق الصياد أول البذور الديمقراطية في تاريخ البشرية، وأرسى محلها حكمه المطلق.

لم يكتفي الصياد بالسيطرة على الحكومات والأديان بل سعى إلى بسط هيمنته على كافة المؤسسات الاجتماعية من خلال إنشاء الطبقية الاجتماعية وغيرها من التنظيمات الاجتماعية المتوافقة مع أهدافه ومصالحه ونظام القيم الخاص به، ويذكر كولينز Collins(1975) بأن أول طبقة أرستقراطية من النبلاء ظهرت في بلاد ما بين النهرين أيضاً، وتكونت هذه الطبقة من الكهنة الذي امتلكوا ما لا يقل عن ثلث الأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة، وقد وفرت لهم سلطاتهم وسيطرتهم على الطقوس الدينية وممارسة السحر والشعوذة وسائل فعالة لإضفاء الشرعية على ممتلكاتهم ومكانتهم، وعندما لم يكن ذلك كافياً لردع التحدي أو العصيان استعملوا القوة الغاشمة ضد مناوئيهم.

ولا شك بأن أبرز إنجازات تلك الدويلات الزراعية القديمة القوانين التي استنتها، ويعتقد بأن قوانين حمورابي هي أولى تلك القوانين، وتدعي رواياتهم بأن هذه القوانين أنزلها الاله مردوخ على الملك حمورابي، الذي كان الملك يعتبره راعياً له، وتتضمن تلك القوانين القاعدة المشهورة: السن بالسن والعين بالعين. وقد فصلت تلك القوانين الحقوق والواجبات، ونظمت حقوق الملكية والمعاملات التجارية، وأقرت إجراءات فض المنازعات، وحددت العقوبات للمخالفات والجرائم، وفي جوهرها حمت تلك القوانين النخبة الجديدة من الصيادين ومواقعهم وامتيازاتهم الاجتماعية وممتلكاتهم وغيرها من مصادر ووسائل قواهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والدليل على ذلك هو عدم ضمان تلك القوانين معاملة الجميع بالتساوي وعدم توفيرها الحماية القانونية لفئات كبيرة من المجتمع، مثل العبيد وصغار الإناث، وقد اعتبر النبي محمد (ص) فقدان العدالة والمساواة في تطبيق القوانين والأعراف السائدة في مجتمعات ما قبل الإسلام، والمتمثل في غض الطرف عن مخالفات السادة والأقوياء ومعاقبة المستضعفين بشدة، السبب الرئيسي في تدهور واضمحلال تلك المجتمعات.

كانت الدول القديمة في بلد ما بين النهرين ومصر عسكرية وعدوانية وتوسعية في طبيعتها ومنهجها، وغالباً ما كانت في حالة صراع أو توتر مع جيرانها، وقد نشأت الخلافات بينها عادةً حول السيادة على الأراضي، في الوقت الذي لم تنقطع فيه تهديدات الصيادين الغزاة لبلادهم، والذين أصبحوا قوة ضاربة بعد تدجينهم الحصان والجمل، وغالباً ما تكونت جيوش تلك الدول من مرتزقة وعبيد، سخرتهم للدفاع عن أراضيها وللاستحواذ على أراض جديدة، وعندما سلطوا تلك الجيوش على الأعداء المحليين أو الأجانب اقترف أفرادها الفظائع من قتل واغتصاب ونهب وحرق وتدمير دون هوادة ولا رحمة، وكان مصير المدن المفتوحة التدمير، والمساواة بالأرض أحياناً، فيما ذبح سكانها أو استعبدوا.

وللحرب تكلفة باهظة، أدت إلى تدهور بعض الحضارات، وكان من بينها المملكة الجديدة في مصر، التي تسببت متطلبات حروبها في اضمحلالها وفقاً للكاتبين ترومان وترومان، Trueman and Trueman (1982).

مجدت الأساطير والموروثات المقدسة لشعوب تلك الحقبة التاريخية الحرب وما يرتبط بها من قيم الصياد مثل القوة البدنية والعدوانية والشجاعة الخارقة، ويتشابه أبطال أسطورتي جلجامش السومرية والإلياذة اليونانية في اندفاعهم وراء المجد والعظمة والشهرة، ولقد تحملوا مشاقاً جمة، وأنجزوا أعمالاً خارقة، وقاتلوا بضراوة مخلوقات طبيعية وأخرى خرافية ذات قوى استثنائية دفاعاً عن ديارهم، وانتقاماً من تعسف أو إهانة من ظالم، أو لكسب رضا آلهة أو حاكم أو امرأة فاتنة، وبالإضافة إلى القوة والمجد التي حصلوا عليها في الحياة الدنيا استحقوا مكافآت عظمى في الآخرة، كالخلود والمكانة الرفيعة بين مصاف الآلهة أو التحول إلى كواكب ونجوم ترصع جبهة السماء.

حكم الصياد الكامن في عقول وشخصيات البشر الدول القديمة، وتحقق له ذلك من خلال الطبقية الاجتماعية والعقائد الدينية والقوة الاقتصادية والتهديد بالعنف واستعماله عند الحاجة، وفي كافة أرجاء بلاد اليونان القديمة احتكر الأمراء القوة بحكم امتلاكهم الأسلحة، فقد كانت أسعار الأسلحة مثل الرماح الطويلة والدروع المعدنية والعربات العسكرية باهظة جداً، بحيث لا يقدر على شرائها سوى الأثرياء، ويضيف جايلد Childe (1942) بأنهم حرّموا على الشعوب المقهورة امتلاك أو صنع الأسلحة لمنع نشوء أي عصيان ضدهم.

تمثلت في سبارطة كما وصفها كارتلدج Cartledge (2002) كافة صفات الدولة التي تحكمها نخبة تحمل أفكار وعقائد وقيم الصياد، وكرّس سادتها القوة البدنية كقيمة عليا، وطبقوا قاعدة البقاء للأقوى، وهي القاعدة التي عاش بموجبها الصياد مئات القرون من قبل ذلك، واقتنعوا بأن شعباً قوياً مدرباً على فنون ومهارات القتال هو الضمان الوحيد لمنعة وأمن مدينتهم وممتلكاتها، فأقدموا على فرض نظام عسكري صارم على رعاياهم، وأجبروا الرجال على السكنى في معسكرات حتى يولد لهم أبناء، وكان لزاماً على رجال سبارطة إنجاب أبناء أقوياء وسليمي العقل ليصبحوا مقاتلين أشداء في جيش المدينة، وينبغي على الأزواج غير القادرين على ذلك إيجاد رجال بديلين للحلول محلهم في أداء هذا الواجب أو السماح لزوجاتهم بالبحث بأنفسهن عن هؤلاء الفحول، وهكذا تحول الزواج في سبارطة إلى مؤسسة للتوالد فقط، ولم يرحموا الأطفال الضعفاء أو المرضى الذين كان مصيرهم الترك في العراء ليموتوا من البرد أو الحر والجوع، وعند بلوغهم السابعة نقلوا الأطفال من بيوتهم ليسكنوا ويتدربوا في معسكرات، ولم يستثنوا الإناث من ذلك.

وفي الإمبراطورية الرومانية سيطر الحكام المتسلطون والنخبة على مقاليد الأمور، وأفتى مشرعو وقضاة روما بأن قرارات هؤلاء الحكام واجبة التطبيق كالقوانين المشرعة، ولم يضاهي سلطات الحاكم الروماني المطلق على رعيته سوى سلطات رب الأسرة على أفرادها، إذ أقروا للآباء في روما بسلطات مطلقة على أفراد أسرهم بلغت حد قتلهم كما يورد المؤرخان بوك وسنيجين Boak and Sinnigen (1969)، ولم يحكم العديد من حكام روما بالعدل والرحمة، ومن أكثرهم تعسفاً وقسوة الامبراطور كاليجولا، وتبعث قراءة سيرة حياته كما دونها

سويتونيوس Suetonius (1931) الغثيان في نفس أي إنسان سوي، وتلذذ كاليجولا بمشاهدة مناظر تعذيب السجناء، وتناول طعامه مع ضيوفه على مرأى من قطع رؤوس محكومين بالإعدام، وطالت شروره أقرب الناس إليه، ولم يكن الامبراطور نيرو أقل عنفاً وقساوة، فبعد أن فشلت محاولاته الثلاث لاغتيال والدته أمر بقتلها، واستعمل حكام روما القوة العسكرية في السيطرة على شعوب عديدة وأراضي واسعة، ولذلك اعتبروا الخدمة العسكرية ميزة وتأهيلاً ضرورياً لتسنم أي منصب سياسي أو إداري، فلا يجوز لمواطن الترشح لمنصب رسمي قبل المشاركة في عشرة حملات عسكرية، وتقدمت أهمية المناصب السياسية ومهنة الجندية على غيرها من المهن والأعمال، فاستنكف الكثير من الرومانيين عن العمل في الزراعة، واستعانوا بالعبيد في زراعة أراضيهم، وكان العديد من هؤلاء المسترقين مثل الثائر الشهير سبارتاكوس ضباطاً وجنوداً هاربين من الخدمة في الجيش الإمبراطوري أو من مواطني الدول المقهورة مثل قرطاجة، والذين استعبدوا بدلاً من القتل، و تضخمت نفقات الحفاظ على الإمبراطورية من الغزاة والتي وقع عبئها على المزارعين، وأرهقت عسكرة المجتمع موارد الدولة، وبعد تسرب الوهن للدولة والمجتمع بدأت مرحلة الانحدار والاحتضار (Reade،1945).

الصيادون ملوك ونبلاء القرون الوسطى

تواصل استغلال المزارعين في أوروبا طيلة القرون الوسطى، وفي ذلك الركن من العالم، كما في غيره، أنتج المزارعون الثروات، التي سارع النبلاء المتسلطون المرفهون إلى تبذيرها على أدوات ترفهم ومتعتهم، ولو تقصينا أصول الطبقة الأرستقراطية الأوروبية المالكة للأراضي لتبين أن أسلافهم محاربون، شهدت لهم سوح القتال في أوروبا بالمهارة والجرأة، ويؤكد كورفيزيير Corvisier (1979) بأن القيم الاجتماعية في ذلك الزمن خصت القوة والمهارات العسكرية بأرفع تقدير وأعظم تبجيل بين كل الصفات والقدرات البشرية، لذا فقد كان من الطبيعي مكافأة القواد العسكريين، الذين برهنوا على مقدرتهم وولائهم لأمراء أوروبا، بإقطاعهم مساحات شاسعة من الأراضي، وبسبب ضعف السلطة المركزية احتفظ هؤلاء القادة بقوات خاصة بهم لحماية إقطاعاتهم وللاستحواذ على أراضي المزارعين المجاورة لهم، وعجز هؤلاء المزارعون عن الذود عن ممتلكاتهم وعوائلهم أمام الإقطاعيين الجشعين القساة وقواتهم المحترفة والمدججة بالسلاح، وكان مصير قرى المزارعين التي لم تذعن لرغبات الإقطاعيين الحرق والنهب والتدمير وقتل السكان، وفي الوقت نفسه تهددت المزارعين غارات القبائل الهمجية الغازية مثل الساكسون والهون، الذين احترفوا الغزو والقتل والنهب، ولدرء كل هذه الأخطار أضطر المزارعون إلى اللجوء إلى الإقطاعيين، ولكن ثمن حماية الإقطاعيين كان باهظاً، كما يوضح هيرليهي Herlihy (1970) في كتابه حول تاريخ الاقطاع، فقد اضطر المزارعون إلى التخلي عن ملكية أراضيهم لأسيادهم الجدد، وتحولوا إلى أقنان يفلحون أراضيهم السابقة، ويتضح الموضع الذي انحدر إليه هؤلاء المزارعون البائسون من إطلاق الإقطاعيين مصطلح precarium على ترخيصهم للمزارعين بالعمل في أراضيهم، فأصل الكلمة يعني الاستجداء أو التوسل، وهكذا تحول القادة العسكريون (الصيادون) إلى مالكي الأراضي الشاسعة في أوروبا، وبحلول القرن الثاني عشر أصبحوا طبقة نبلاء، يحتكرون ويتوارثون أملاكهم وألقابهم ومزاياهم.

ومن الملاحظ أن مجتمعات أخرى شهدت تطورات مماثلة، ففي الإمبراطوريات الإسلامية المتعاقبة، بدءً بالأموية وانتهاءً بالعثمانية، كان للقادة العسكريين مكانة متميزة، ومارسوا أدواراً هامة في المجالات السياسية والإدارية والاقتصادية، وبلغت قوتهم ذروتها في فترات ضعف وانحلال هذه الدول، عندما أقدموا على خلع وتعيين الخلفاء، وجرت العادة على الإنعام عليهم بإقطاعيات ضخمة، وبالتالي فقد أصبحوا طبقة من ملاك الأراضي. وفي اليابان أيضاً تحول محاربو الساموراي، الذين كانوا جنوداً مخلصين للإمبراطور ولطبقة النبلاء إلى شريحة

اجتماعية من كبار الحكام المحليين والإداريين، وأثبتوا جدارتهم في السيطرة على ريف البلاد وفي تحصيل الضرائب والعوائد من المزارعين.

أوجدت الطبقات الأرستقراطية نظماً عقائدية وتراكيب اجتماعية لإضفاء الشرعية على انفرادها بالتسلط السياسي والاجتماعي والاقتصادي ومنع الآخرين من منافستها على ذلك، وتمثل ذلك في أوروبا بالنظام الطبقي، والذي عرف أيضاً بنظام الشرف، وساد الاعتقاد في أوروبا العصور الوسطى بأن مكانة الفرد تتحدد بالولادة، أي أن المولود لعائلة من الطبقة الدنيا ينتمي بالضرورة إلى تلك الطبقة بغض النظر عن أي عوامل أو اعتبارات أخرى، كما أن الأرستقراطي يولد ويموت أرستقراطياً نبيلاً ولو افتقر أو اقترف أبشع الجرائم، ونتيجة ذلك يعرف مصير الفرد عند الولادة، إن كان منتمياً إلى طبقة الحكام وأصحاب القوة والنفوذ أم سيعيش في ضنك وبلا حول ولا قوة، وقد ساندت المعتقدات الدينية في ذلك الزمن هذا الفكر والسلوك، ووعظت الناس بتقبل مراكزهم الاجتماعية الطبقية كواجب ديني وأخلاقي، فالملك مختار ربانياً، وهو بدوره يمنح المكانة والمزايا لطبقة الأرستقراطيين، ولأنهم الأقربون للملك فقد ادعى الأرستقراطيون بأنهم وحدهم في المجتمع يحظون بالشرف، وهكذا ارتبط مفهوم الشرف بالمكانة العالية والثروة، كما يبين ستيوارت (1994) Stewar، أما الفقراء والمستضعفون فواجبهم الصبر على أوضاعهم المزرية واستغلال السادة لهم حتى يفوزوا بالسعادة الأبدية في الآخرة، وهم في عرف تلك المجتمعات لا يمتلكون شرفاً، وبهذه الطريقة تحددت مكانة الفرد الاجتماعية الثابتة، وغير القابلة للتغيير، فقد ندر أن يرتقي فرد من الطبقة الدنيا إلى طبقة الأرستقراطيين، وبينما أستبعد الفقراء من نظام القوة في المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى أفسح النظام مكاناً ضيقاً للطامحين إلى الفوز برعاية فرد قوي وشريف، ووفقاً لنظام الرعاية patronage system يبسط الأرستقراطي رعايته على فرد يقر بمكانته الأدنى، ويرضى بأداء الواجبات والمسئوليات التي تفرضها عليه هذه العلاقة، ويحصل طرفا العلاقة على منافع منها، فالأرستقراطي القوي يزداد قوة بازدياد عدد رعيته، ويستفيد التابع من صلاته بهذا الارستقراطي المتنفذ في المجتمع.

استمر احتكار الأرستقراطيين المنحدرين من القادة العسكريين للقوة في أوروبا حتى ظهور منافسيهم من مالكي القوة الاقتصادية التجارية والصناعية وحلفائهم من المفكرين، ولم يكن ممكناً حسم هذا الصراع من خلال القوة العسكرية أو المبارزة لذلك أفضى إلى إدخال هذه الطبقة الطموحة الجديدة ضمن دائرة القوة والنفوذ في المجتمع، فغدا بمقدور البورجوازيين شراء الألقاب النبيلة، ولم يعد مستهجناً انعقاد زواج مصلحة بين البورجوازيين الأثرياء وفقراء الأرستقراطيين، ولا عجب في عرف الصياد أن ينبري هؤلاء البورجوازيون، حديثو العهد بالثروة والنفوذ، والذين كانوا بالأمس القريب معارضين لاستئثار الأرستقراطيين لها، للدفاع بضراوة عن مكاسبهم الجديدة أمام المنافسين من الطبقات الأدنى، فشرعوا القوانين التي تقصر حق الترشيح والانتخاب على أصحاب الأملاك، أي الأرستقراطيين والبورجوازيين.

أثبتت سجلات التاريخ صحة القاعدة الاجتماعية والسلوكية التي تؤكد بأن الطبقات والنخب المتسلطة لا تتخلى طوعاً عن سلطاتها وامتيازاتها، وعلى الذين يريدون مزاحمتها على ذلك الاستعداد للصراع، وبعد تآكل قواعد البنيان السلطوي والعقائدي والقيمي للطبقة الأرستقراطية الأوربية حان دور الصراع الطويل والمرير للطبقة العاملة للفوز بحقوقها السياسية والاقتصادية من الرأسماليين وحلفائهم من الساسة. أما في البلدان التي عانت فيها أغلبية السكان من الحرمان وبطء عمليات التغيير من داخل الأنظمة فقد اتخذ التعبير عن الرفض للنظم السياسية والاقتصادية طابعاً ثورياً عنيفاً، فاستهدفت الثورات الفرنسية والأمريكية والروسية إحداث تغيير جذري في أنظمة الحكم المحلية أو المفروضة استعمارياً.

حرمت المرأة من حقوقها الأساسية في المجتمعات الغربية حتى بداية القرن الماضي، ولم تحصل عليها إلا بعد صراع طويل، ولجذب الاهتمام لمطالبهن لجأت المدافعات عن حقوق المرأة في الغرب إلى تنظيم المسيرات الحاشدة، وتقييد أنفسهم إلى أسوار الأماكن العامة، والإضراب عن الطعام، وتحمل آلام ومهانة صب الطعام في أفواههن قسراً، وحتى الإقدام على الانتحار،

والعديد من الناشطات في الحركة النسائية مقتنعات كل الاقتناع بأن بنات جنسهن ما زلن ضحايا للتحرش والعنف والحرمان من الحقوق من قبل الذكور، شركائهن الأقوى في الإنسانية.

الصياد المستعمر

تعلمت الشعوب المُستعمَرة درساً بليغاً من الدول الاستعمارية حول أهمية القوة والثروة في العلاقات بين الأمم وفقاً للنظام الغربي، واستيقنوا من خلال التجربة بأنهم لم يكونوا في حساب المستعمرين سوى ممتلكات أو بالأحرى منهوبات، وبأن الاستقلال يسترد بالقوة والتضحيات الباهظة، ولكن لم تستطع كافة الشعوب المقهورة الاتعاظ والاستفادة من هذا الدرس، فبحلول القرن العشرين بسط المستوطنون البيض هيمنتهم الكاملة على أمريكا الشمالية والجنوبية وأستراليا وأجزاء كبيرة من أفريقيا، وأخضعوا سكانها الأصليين، وجردوهم من ممتلكاتهم وحقوقهم الأساسية، وحتى ذلك الوقت كان تجار العبيد الاوروبيون قد تاجروا بأكثر من عشرة ملايين من الأفارقة، وقتلوا مثل هذا العدد، ولاحظ توينبي Toynbee (1947) بأن الغربيين اعتبروا السكان الأصليين في المستعمرات أشباه الحيوانات البرية، وينبغي ترويضها وتدجينها أو إبادتها، واستند الإنكليزي جيمس كوك في إلحاقه قارة أستراليا بالتاج البريطاني على القاعدة القانونية: terra nullies أي الأرض الخالية، متجاهلاً بذلك سكانها الأصليين البالغ عددهم حينئذ ثلاثة أرباع المليون، وشرع المستوطنون البيض في إبادة أصحاب الأرض بالقتل وتسميم أبارهم، ومن ثم قسرهم على العيش في تجمعات سكنية تحت سلطة مبشرين.

يؤكد كيل Keal (2003) بأن المستوطنين البيض لم يعترفوا للسكان الأصليين في المستعمرات بنفس الحقوق، وعمدوا إلى محو ثقافاتهم وهوياتهم، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف أجبرت الحكومتان الأمريكية والكندية أبناء السكان الأصليين على الالتحاق بمدارس خاصة، استبدلت إداراتها أسماءهم القبلية بأسماء غربية، ومنعتهم من التخاطب بلغاتهم الأثنية، وأحلت محلها اللغة الإنكليزية، وأكرهتهم على الارتداد عن دياناتهم وعقائدهم المتوارثة واعتناق الديانة المسيحية، وفرضت عليهم ارتداء ملابس أوروبية بدلاً من ملابسهم التقليدية، وتعرض الطلاب في هذه المدارس لمعاملة قاسية، وتوفي البعض منهم نتيجة سوء المعاملة، كما تشير بعض المصادر إلى مقتل العديد منهم عمداً من قبل إدارات المدارس، ولم يكن الهدف من ذلك "تحضير" السكان المحليين كما ادعت سلطات الحكومتين بل القضاء على ثقافات وهويات السكان الأصليين وقطع صلاتهم بتاريخهم، وعلق الفيلسوف الفرنسي ميشيليه Michelet (ص1846:142) في القرن التاسع عشر على المصير المفجع للسكان الأصليين لأمريكا الشمالية بأن "الأنجلوأمريكيين الجهلة من التجار وأتباع المذهب التطهيري انتهوا من تجويع وإبادة أولئك الأقوام الأبطال الذين تركوا فراغاً على الكرة الأرضية وشعوراً بالأسى عند البشرية جمعاء."

وفي بداية القرن العشرين ضم نادي الدول الاستعمارية والإمبريالية الرئيسية بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وروسيا واليابان وتركيا العثمانية، وكان التنافس بين الأمم الأوروبية على المستعمرات على أشده، لما تدر عليهم من منافع سياسية واستراتيجية واقتصادية، وأيضاً لأهميتها كمؤشر على عظمة الدولة المستعمرة وحكامها ونظمها، وحاول هؤلاء المستعمرون جهدهم إخفاء دوافعهم الأنانية وعنصريتهم وراء أقنعة من الشعارات والواجهات الجوفاء، فراح البعض منهم يصف المستعمرات وشعوبها بأنها " أعباء على العنصر الأبيض"، ولكن التاريخ يشهد بأنهم حرموا شعوب مستعمراتهم من أبسط الحقوق، بما في ذلك حق استعمال لغاتهم المحلية وممارسة شعائر دياناتهم، أضف إلى ذلك نهب مواردهم الطبيعية واستغلال قواهم البشرية وتدمير صناعاتهم التقليدية نتيجة فرض منتجاتهم المصنعة في أوروبا، وعندما تجرأت الشعوب المستعمرة على المطالبة بحقوقهم لاقت قمعاً شديداً، وعوقب قادتها بالسجن والتعذيب والنفي وحتى الإعدام، واضطرت معظم الشعوب المستعمرة، التي بلغ عدد سكانها قرابة المليار في منتصف القرن العشرين، إلى اللجوء إلى العنف لنيل استقلالها وحريتها، ولعل جسامة

التضحيات البشرية والاجتماعية والاقتصادية سبباً رئيسياً في بروز قيادات عسكرية أو مدنية ذات نزعات تسلطية وحب للقوة بعد استقلال هذه الدول.

يمكن إدراك حجم التأثيرات المأساوية للاستعمار من حالتي الكونغو والجزائر، ففي نهاية القرن التاسع عشر وافقت القوى العالمية على منح ملك بلجيكا ليوبولد صك ملكية الكونغو، كما يروي رنتون وسيدون وزيلج Renton, Seddon and Zeilig (2007)، وتصرف بالفعل وكأنه يملك الأرض وما في بطنها وعلى ظهرها من بشر وموارد ثمينة، واستخدم موظفو الملك البلجيكي أساليب همجية في معاملة السكان، وفرضوا عليهم تسليم كميات محددة من المطاط، ومن يتخلف عن ذلك يلقى جزاءاً قاسياً، يصل إلى حد قطع اليد أو حتى القتل، وتقدر بعض المصادر عدد ضحايا جشع وأنانية وقسوة الملك ليوبولد بعشرة ملايين كونغولي، أما في الجزائر فقد قتل فيها المستعمرون والمستوطنون الفرنسيون أكثر من مليون مواطن، وحدث ذلك بعد انقضاء أقل من عقدين من السنين على تعرض الفرنسيين أنفسهم لإذلال وظلم الاحتلال النازي.

الصياد في التاريخ القريب

تأثرت حياة البشر في القرون الماضية القريبة بثلاثة عوامل رئيسية: الثورة الصناعية والصراع حول الموارد والتطور العلمي، وكان من نتائجها بصورة عامة تعزيز دور ومكانة الصياد في المجتمعات البشرية، ويرى ألتون مايو Mayo (1960) بأن التطور الصناعي أضعف العلاقات الاجتماعية القديمة، والتي يصفها بأنها ضرورية جداً، وتنطوي على تضافر جهود الفرد مع آخرين بطريقة ذات معنى وقيمة، ولم يترك هذا التطور في نظره للفرد من خيار سوى السعي وراء منافع مادية، ويستنتج بأن رغبة واقبال الأفراد على العمل الجماعي تناقصت باضطراد مع التطور الصناعي.

طمحت الدول القوية مدفوعة بنوازع الصياد المتوارثة ثقافياً ليس فقط للسيطرة على الأمم الضعيفة بل على بعضها البعض، وفي تنافسها المتواصل على الهيمنة العالمية لجأت هذه الدول إلى الوسائل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية وللقوة العسكرية أيضاً، وكانت الحروب بينها في القرن العشرين غير مسبوقة من حيث نطاقها وضخامة القوات المشاركة فيها، وكذلك من حيث عدد ضحاياها وشدة الدمار الذي خلفته، وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية السلبية، وتعرف اثنتان من هذه الحروب بالعالمية لتمييزهما عن الحروب الإقليمية والثنائية، وفيهما هلك عشرات الملايين، ومحيت مدن عن وجه الأرض في حمى تدميرية، لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل، وفي هاتين الحربين وما تلاهما من صراعات أصبح القتال شاملاً العسكريين والمدنيين، ففي الحرب العالمية الأولى منع الحصار البحري وصول إمدادات الطعام إلى المدنيين، وقتلت الغارات الجوية المدمرة ملايين المدنيين في الحرب العالمية الثانية، وشهدت آخر سنتين من الحرب مجازر بشرية مفجعة، هلك نتيجتها أكثر من مليون شخص كل شهر، ويقدر مجموع ضحايا الحروب في القرن العشرين بأكثر من مائة مليون، ولعل أبلغ شهادة على طبيعة تلك الحقبة من تاريخ البشرية تلك التي دونها المفكر الصيني ين فو، Yen Fu والذي كان يعد من المعجبين بالحضارة الغربية ، وكما نقلها عنه كاهن وينر (Kahn and Wiener (1967:

> يبدو لي بأن شعوب الغرب وبعد ثلاثة قرون من التطور توصلت إلى أربعة مبادئ: كن أنانياً، اقتل الغير، لا تكن أميناً وصادقاً إلا بأقل الحدود، ولا تكترث كثيراً بالعار.

وفي منظورنا الذي يميز بين مبادئ الصياد والمزارع فإن هذه المبادئ الأربعة كانت وما تزال الخصائص الرئيسية للصياد، الذي يكمن في نفوسنا وثقافتنا الجمعية منذ القدم.

هل غدا البشر أكثر تحضراً مما كانوا عليه عندما كتب الصيني ين فو تشخيصه المرير لعلة شعوب الغرب؟ ينفي دوتون (Dutton (2008: xii ذلك إذ كتب:

لو خدعنا أنفسنا واقتنعنا بأننا متحضرون، كما نتظاهر بذلك على السطح فسنكرر أخطاء الماضي، ولكن بأسلحة أكثر قوة وفتكاً.

ويبدو بأن الصياد غير مكترث بهذه التحذيرات الجادة، وهو مصر على مواصلة نهج الحياة الذي اختطه لنفسه والاحتفاظ بما لديه من وسائل القوة، واستعمالها للهيمنة على المجتمعات البشرية، ومهما كلف ذلك من ثمن باهض للبشرية جمعاء، وآخر ما توصل إليه الصياد من وسائل للسيطرة ما يعرف بمجتمع المؤسسات الكبرى corporate society، وفي هذا المجتمع تحتكر فئة صغيرة كل وسائل السلطة والقوة والثروة وتهيمن على بقية السكان، وجميعنا كما يصفنا بيرلمان (2005:2) Perelman مسخرون لخدمة أغراض ومصالح هذه المؤسسات الحكومية والخاصة.

ويحذر فوكوياما (1999) Fukuyama من النتائج المدمرة للفردية المتطرفة على المجتمعات، فبينما أثمرت في مجال الاقتصاد نمواً كبيراً وفي مختبرات البحوث إبداعات غير مسبوقة أدت إلى تآكل كل أنواع السلطة وأضعفت الروابط داخل العائلة والمجتمعات المحلية والأمم، فهل الصياد مستعد لدفع هذا الثمن الباهظ والمضي قدماً في تعريض المجتمعات البشرية والدول للمزيد من هذا التدهور؟

وكما سيتبين في الجزء التالي من هذا الفصل فقد منعت أو عطلت هيمنة أفكار وقيم الصياد على تفكيرنا وسلوكنا الفردي والجماعي نشوء ونمو وبقاء نظم اجتماعية بديلة مبنية على قيم المزارع.

هل نشأت مجتمعات ساد فيها المزارع وقيمه؟

حددت أعراف الصياد، المستمدة من قيم القوة والتنافس والسيطرة، قواعد البقاء الأساسية للفرد والجماعة على حد سواء، وتعرضت الأمة أو الجماعة التي لم تمتثل لهذه القواعد لتهديدات ومخاطر من أعدائها الخارجيين، الذين اعتبروها هدفاً سهلاً للسيطرة والتوسع، وباستثناء الجماعات التي تعيش في مناطق نائية، بعيداً عن الصيادين الغزاة، ويجادل ممفورد (1961: 43) Mumford بأن افتقار الفرد المتصف بخصائص المزارع إلى مقومات البقاء والتنافس رشحه للانقراض منذ البداية:

> طبقت قاعدة الانتخاب الطبيعي بدقة، وخلال الخمس أو الست آلاف سنة تعرض الكثير من بني البشر الطيبين والمتعاونين للإبادة، ومنعوا من التكاثر بينما تكاثرت وازدهرت أحوال الأنواع من البشر الأكثر عدوانية في المراكز الحضارية.

ظهرت ومورست بعض من قيم المزارع وجوانب من طريقة حياته في كل المجتمعات وعبر كل الأزمنة، إلا أنها لم تصبح ولفترات طويلة قواعد لبناء مؤسسات وروابط اجتماعية، وحتى في الحضارات القديمة مثل الفرعونية والهندية وحضارة ما بين النهرين حيث حكم الصيادون وطبقوا شريعتهم ترك المزارعون تأثيراتهم على القوانين من خلال إعلاء حكم القانون ومبدأ العدالة والقيم الأخلاقية، وعلى سبيل المثال ألزم قسم الوظيفة قضاة الفراعنة بتطبيق القانون حتى لو تعارض مع أوامر الملك كما يفيد ريد (1945) Reade .

وتأسست جماعات المزارعين في أرجاء مختلفة من العالم، ولكن غالباً لفترات قصيرة من الزمن، وكانت إحداها حضارة المينون Minoan، والتي نشأت في جزيرة كريت بالبحر الأبيض المتوسط، واستمرت حتى عام 140 بعد الميلاد، وتميز سكانها باحترامهم سلطة القانون ورفضهم الطغيان ونبذهم الحروب.

استمدت مجتمعات المزارعين شرعيتها واستدامة مؤسساتها وطريقة حياتها من العقائد والقيم، وحضت قيمها وقواعدها الأخلاقية على العدالة والمساواة والأخوة والتعاون، كما أدى مفهومها وتطبيقها للمساواة إلى منع احتكار القوة ومصادرها من قبل فرد أو قلة من الأفراد، وبالتالي فقد حالت دون نشوء طبقة من الصيادين الطغاة، ولم تكنز الثروات فيها لأنها استعملت للصالح العام، وقد فرضت عادات المزارع على الثري منهم مشاركة الآخرين من خلال تقديم القروض للمعسرين منهم، وبذل المنح والهدايا واقامة الولائم للأقربين والجيران.

وأدرك الصيادون الذين حكموا مجتمعات المزارعين أهمية الثقافة والقيم والمؤسسات الاجتماعية كوسائل للسيطرة عليهم، ولاحظ المفكر ماكس فيبر (1864-1920) Max Weber بأن مكانة الفلاحين في المجتمعات التي تسلطت عليها إمبراطوريات ودول توسعية تدنت إلى الأسفل تحت طبقتي الارستقراط والمحاربين، كما فرضت عليهم معتقدات جديدة تبرر وتضفي شرعية على النظام الاجتماعي الجديد، وانتبهت القوى الاستعمارية الأوربية لأهمية الدين كرابط اجتماعي، لذا مهدت لفتوحاتها بإرسال المبشرين، ويرى جايلد (1942) Childe بأن طمس أديان الشعوب البدائية عامل رئيسي وراء اندثار هذه الشعوب بعد احتكاكها بالعنصر الأبيض.

وحتى مجتمعات المزارعين التي نجت من هيمنة وتدمير جيوش الأقوياء الصيادين تعرضت للتخريب من الداخل على أيدي غرباء سكنوا بينهم، ففي هذه الجماعات المترابطة حيث وفرت التراكيب الاجتماعية الإطار القيمي والتنظيمي للتبادلات الاقتصادية داخلها أدت التعاملات الاقتصادية والتجارية الغريبة التي طرأت عليها إلى تقويض نظمها الاجتماعية والاقتصادية التقليدية، ونجد أمثلة على هؤلاء الأغراب في جماعات الأوربيين والهنود الذين حلوا بشرق أفريقيا، وقد استوطن هؤلاء الغرباء في مجتمعات السكان الأصليين، لكنهم قاوموا الاندماج بالمجتمعات المحلية والالتزام بقيمها وقواعدها الأخلاقية، وقد تكسب معظمهم من التجارة والبقالة، وكان هدفهم الرئيسي، بل الوحيد، جني الأرباح، وقد ساهم هذا الاستغلال في التآكل التدريجي للنظم الاجتماعية والاقتصادية المضيفة، ولا غرابة أن تشترك المجتمعات التقليدية في إبداء مشاعر عدم الثقة والاحتقار للمرابين والتجار.

اجتماعياً لم يخفي هؤلاء الغرباء الأثرياء والأقوياء عدم اكتراثهم وتعاليهم على العادات والتقاليد المحلية، ولم يتورعوا أحياناً من استغلالها بأنانية مفرطة، مما سارع بإضعاف النظام الاجتماعي التقليدي، وعلى سبيل المثال لم يمانع السكان الأصليين في استراليا من مخالطة نسائهم للرجال البيض بشرط احترام الروابط الزوجية، لكن هؤلاء المستوطنين الذين يمارسون تقاليد زوجية مختلفة، ويؤمنون بتفوقهم العنصري استغلوا هذه العادات، واعتبروها دليلاً إضافياً على دونية سكان البلاد الأصليين، كما أفادت ميد (1970) Mead .

بالإضافة إلى قمع وتدمير مجتمعات المزارعين التقليدية سعى الصيادون الأقوياء إلى منع نشوئها في العصور الحديثة، وفي أوروبا وأمريكا رفض البعض نمط العيش السائد في مجتمعاتهم، وما يفرضه من تنافس وعدوانية ونزاعات، واختاروا تكوين مجتمعات صغيرة خاصة بهم أو كوميونات communes، تؤسس لروابط اجتماعية وعلاقات إنتاج مختلفة، قوامها التعاون والتكافل والملكية المشتركة، ومن أبرز الأمثلة عليها في أمريكا حركة أونيدا Oneida Movement ومزارع هوبديل Hopedale وبروك Brook ، ولم تصمد الكثير من هذه التجارب أمام الضغوط الخارجية وعوامل الضعف الداخلية.

لا يؤذن فشل محاولات المزارع في تأسيس مجتمعات مبنية على قيمه ومبادئه بانتصار كامل ونهائي للصياد، فما يزال المزارع حاضراً في نفوس جميع البشر، وإن بدرجات مختلفة، ولم يغب صوته تماماً عن أسماعنا، وهو لا يتردد في تقريع الصياد وانتقاد أنانيته وميله للعنف

واستغلاله وتلويثه للبيئة، ويسعى لمنعه من تحقيق أهدافه بوسائل متنوعة، ويضغط عليه من خلال الرأي العام، وينظم المظاهرات الاحتجاجية، غير مبال بما يجره ذلك عليه من حرمان وقمع واضطهاد وحبس، وقد يشجع هذا التصميم المتواصل والنشاط الدائب لحاملي فكر وقيم المزارع المتفائلين منهم على توقع تحول تدريجي في المجتمعات والأفراد، سيؤدي بالنتيجة إلى اقتناع الكثيرين بأفضلية نمط حياة أقرب إلى نموذج المزارع، ويستبشر هؤلاء المتحمسون للمزارع بأي ظاهرة مؤيدة لأمانيهم وتوقعاتهم المتفائلة، ومن هذه الظواهر المشجعة تحرك بعض المجتمعات التي كانت في الماضي تطبق عرف الصياد نحو نموذج المزارع، وبالتحديد فإن الدول الاسكندنافية، التي روع أجدادهم الفايكنج مدن أوروبا وسكانها يفضلون اليوم دور المحافظة على السلام العالمي والفصل بين المحاربين، ولكن هذا لا يغير من حقيقة أن العالم كان وما يزال محكوماً بفكر ومبادئ الصياد المتجذرة داخل كل واحد منا.



الفصل الثالث
موقف الأديان والفلسفة والعلوم الاجتماعية من ثنائية الشخصية البشرية

قال الفيلسوف الإغريقي ابيقيورس: لا جدوى من كلام الفيلسوف الذي لا يعالج بعض علل البشر. وكما أن لا فائدة من دواء الطبيب الذي لا يطرد المرض من الجسم فلا قيمة للفلسفة التي لا تخلصنا من معاناة العقل.

عالمنا مليء بالغموض، وكثيرة هي الأمور التي تحيرنا وتبلبل عقولنا، ونقف أمامها محتارين، وقد تثير في نفوس البعض منا القلق وحتى الخوف، وما يزال هنالك عدد لا محدود من الظواهر الطبيعية والاجتماعية مبهمة وبدون تفسير، وقد وضع الإنسان المعاصر ثقته بالعلم والمنهجية العلمية للتوصل إلى إجابات على أسئلته الكثيرة وشرح ظواهر الطبيعة المحيرة وحل كافة مشاكله الاجتماعية والشخصية المعقدة، ونتيجة ذلك ضعف إيمانه بالحقائق المطلقة والوصايا والتعاليم الثابتة التي تتضمنها الأديان، كما حل العلم محل الفلسفة كمصدر ومستودع للمعرفة، ولكن بقي الدين والفلسفة ولحقب طويلة من تاريخ البشرية المدون المنبعين الرئيسيين للمعرفة في الأمور الاجتماعية والسياسية والشخصية، والذي يهمنا هنا موقف الدين والفلسفة ومن ثم العلوم الاجتماعية الحديثة من التجاذب الظاهر والخفي بين جانبي الصياد والمزارع في النفس البشرية.

هل ناصرت الأديان المزارع؟

تدعوا تعاليم الكثير من الأديان والمعتقدات للتعاون والتواد والتراحم والإيثار، وتمجد حياة العمل والكفاح والتآزر والتكاتف بين البشر، وتأمر بالرحمة والتعاطف والإحسان، وتنهى عن الأنانية المفرطة والعدوان واللهاث خلف القوة والثروة والمكانة الاجتماعية، وتتوعد الظالمين والقتلة والحكام الجائرين بأشد العقاب إذا لم يتوبوا ويصلحوا أعمالهم، وحتى لو لم ترتد عليهم أفعالهم الشريرة في الدنيا فسيعذبون في الآخرة ويخلدون في جهنم، أو تتناسخ أرواحهم في مخلوقات أدنى أو غيرها من أنواع العقوبات، أما المؤمنون الصالحون فتحضهم التعاليم الدينية على الصبر والمثابرة على فعل الخيرات في هذا العالم المليء بالشرور حتى يفوزوا برضا الله والخلود في الجنة أو غيرها من أشكال المكافآت الإلهية، وهي كما يبدو تقف صفاً واحداً مع المزارع.

ونجد أمثلة على بعض هذه القيم السامية في الديانات القديمة، ففي الوثيقة المعروفة بنصائح الحكمة Council of Wisdom، والتي تعود في تاريخها إلى أيام البابليين في العراق يوجه المؤمنون لعمل الخيرات (Roux، 1964: ص 102):

ارحم الضعفاء
لا تهين البؤساء
عليك بفعل الخير، وقدم الخدمات طيلة أيام حياتك
لا تذم الآخرين، واذكرهم بالحسنى
لا تتفوه بأمور شريرة، واذكر حسنات الغير.

وضمنت قوانين حمورابي البابلي التي اعتقدوا بنزولها من الاله مردوخ درجة من الحماية للضعفاء من سطوة الأقوياء في المجتمع.

تنص تعاليم البوذية على أن الناس يولدون سواسية، وتدعوهم للعيش بسلام ومحبة مع الجميع، ويورد يوتانج Yutang (1937) نصيحة مثلى لكونفوشيوس: على اليافعين أن يبروا أهلهم ويحترموا الآخرين في مجتمعاتهم، وليحيوا ضمائرهم، ويتحلوا بالأمانة، ويحبوا الجميع، ويتآلفوا مع الرجال المحترمين العطوفين، وبعد أدائهم لكل هذه الواجبات فلو فضلت في نفوسهم طاقة فلينصرفوا لقراءة الكتب. وفي العقيدة الطاوية Taoism ينظر إلى الأنانية على أنها مصدر كل أنواع الشقاق والصراع، وهي بالتالي العامل السببي الرئيسي لكل معاناة البشر، ولذلك تحث أتباعها على السعي للتخلص من أنانيتهم، لتطمئن نفوسهم، وتتحرر من صراعاتها الداخلية.

وتشجع تعاليم التوراة الناس على توطيد علاقاتهم الاجتماعية، وتمتدح أولئك الذين يعاشرون الناس ويتآلفون معهم، ويؤكد الإنجيل على أهمية تطبيق القيم السامية والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وفي شرحه للعقيدة المسيحية قارن المفكر القديس أوغسطين Saint Augustine بين ما أسماه مدينة الله أو الإيمان ومدينة البشر، وبينما يتصف سكان مدينة البشر بالأنانية والطموح والتكبر تتحكم محبة الله والتقيد بالفضائل بفكر وسلوك سكان مدينة الإيمان، واعتبر أوغسطين التهافت على القوة من أسوء الخطايا المهلكة.

كان نشوء حركة الإنجيل الاجتماعي Social Gospel في أواخر القرن التاسع عشر حدثاً مفصلياً في تاريخ المذهب البروتستانتي في أمريكا الشمالية، وساهمت الحركة في تطبيق العديد من الإصلاحات الاجتماعية، مثل المعاش التقاعدي ودفع أجور منصفة للعمال وتبني حد أدنى للأجور والرعاية الصحية (White and Hopkins, 1976). وفي كتابها عن حركة الكويكرز أو الأصدقاء المسيحية أشارت هيرست Hirst (1923) إلى دعوتهم في المؤتمر المنعقد في 1920م لكافة البشر بضرورة عدم الاتكال على التطور العقلاني فقط واستبدال الأنانية بقيم الإيثار والتعاون والثقة.

وتؤكد تعاليم الإسلام على أخوة المؤمنين، وبأنهم متساوون كأسنان المشط والواجب عليهم التآخي والتعاون، وينبغي على المؤمن الذي يريد الفوز برضا الخالق ورحمته والخلود في الجنة التطبع على التواضع والصبر والمغفرة، وممارسة العدل والصدق والإحسان، وأن يكون مستعداً للتضحية براحته وحتى حياته في الدفاع عن الجماعة، ونتيجة الأوامر والنواهي الشرعية الإسلامية والتي حرمت على المسلم القتل والنهب والسلب وألزمته بالتقيد بالفضائل وممارسة الشعائر اليومية مثل الصلاة والوضوء أصبح من غير الممكن للبدوي الساكن في الصحراء الاستمرار في نمط حياته السابقة التي تعتمد على الغزو والعدوان والسلب، وهو نمط حياة أقرب إلى نموذج الصياد، ونتيجة لدعوتها إلى المساواة ومنع الاستغلال الاقتصادي وتكنيز الأموال والإسراف والصيد من أجل المتعة سعت الشريعة الإسلامية إلى إبطال دوافع وغايات ووسائل الصياد في النفوس والمجتمعات.

ودافع العديد من المفكرين عن التأثيرات الإيجابية للدين على الفكر والسلوك، وكان من بينهم الروائي الروسي المعروف دستويفسكي Dostoevski ، الذي كتب على لسان شخصية إيفان كارامازوف محذراً بأنه إذا لم يكن هنالك إيمان بالله فكل شيء يصبح ممكناً، وللعالم النفسي أدلر Adler (1937) موقف مشابه في تأكيده على إيجابية الاعتقاد بوجود الخالق والنماذج الحميدة التي تشتمل عليها التعاليم الدينية، والتي يمكن أن تكون لها تأثيرات بناءة على سلوك الفرد.

الوجه الآخر للأديان

تبدو بعض الأديان بوجهين متناقضين، فمن جهة تدعو للمساواة والعدل والتآخي والتآلف والمودة والسلام بين الناس، ولكن من ناحية أخرى يبرر بعض الناطقين باسمها الظلم والتفرقة والحرب والعدوان في سبيل الدين، وفي تقديري فإن الوجه الأول هو رباني أما الثاني فيختفي وراءه الصياد ودوافعه العدوانية ومصالحه الأنانية، فالأديان مثل كل عناصر المجتمعات البشرية

لم تسلم من تأثيرات الصياد، وبصماته ماثلة في تفسيراته لتعاليمها، والتي وفرت لطريقته في الحياة التبرير والشرعية والتأييد، وتوجد أمثلة كثيرة على ذلك، ومنها الاعتقاد بأن أمة المتدينين مختارة من قبل خالقها، وهي مفضلة على بقية الأمم، وتتميز على غيرها بالفضائل والقيم، وينتج عن هذه العقيدة هيكل ترتيبي تفاضلي للأمم، تكون للأمة المختارة فيه حقوق ومزايا على غيرها، مما يتنافى مع مبدأ المساواة بين البشر، كما أن الاعتقاد بتوارث الخطيئة الأولى، وهي خطيئة آدم في عصيانه لأمر الله، مناقض لمبدأ الفطرة الخيرة للبشر، ويرسخ الاعتقاد بأن جميع البشر يولدون خطاة، وهم أكثر استعداداً لاقتراف الشر منه إلى فعل الخير، كما أن السبيل إلى التطهر من هذه الخطيئة والوصمة المتوارثة هو من خلال الطقوس والاستغفار والصلاة، ويعتبرون الاعتراف للكاهن بالخطايا وما يفرضه عليهم من صلوات كافياً للتكفير عن الذنوب ولنيل المغفرة من الرب من دون الحاجة لتصحيح الأخطاء وإنصاف المظلوم.

وانتقد ثوماس باين Thomas Paine (1737-1809) بعض الروايات الواردة في التوراة أو العهد القديم لأنها في رأيه "تاريخ لشرور البشر "، أسهمت في إفساد ومعاناة البشرية، ولا يخفي باين امتعاضه من هذه القصص وكرهه لكل أنواع القسوة، كما اعتبر المؤسسات الكهنوتية لكل الأديان كيانات مصطنعة لغرض الهيمنة على البشر واحتكار القوة والمنافع.

وتأسست تحت مباركة العديد من الأديان مؤسسات هرمية، اجتذبت الأفراد الطامحين للقوة والامتيازات في مجتمعاتهم، وقد كان للباباوات الكاثوليك في القرون الوسطى ممتلكات واسعة بسطوا سيطرتهم عليها وقوات من المحاربين المرتزقة الأشداء، استعانوا بها في صراعاتهم على الممتلكات ومناطق النفوذ.

وفي نظرتها للقوة والسلطة مالت بعض العقائد الدينية إلى صف الصياد وفكره الذي يمجد السلطة وأصحابها، فقد دافع القديس بولس عن الإذعان للسلطة، باعتباره واجباً دينياً بغض النظر عن طبيعة السلطة في قوله: على الجميع طاعة السلطة الموجودة فوقه، فلا توجد سلطة غير سلطة الرب، وكل السلطات الموجودة منشؤها الرب، وقد استند ملوك الغرب على هذه التعاليم لتبرير مبدأ الحق الإلهي للملوك بالحكم والسلطة، واستعملت فرقة المتطهرون Puritans نفس المنطق اللاهوتي في تبجيل الثروة واعتقادهم بأن الأغنياء مختارون من الرب، وبرر معظم علماء المسلمين الإذعان لسلطان جائر أو حاكم غير مشروع بحجة أن ما يجره غياب الحاكم أو الخروج عليه من فتنة وانقسام وسفك دماء أسوء من القبول بحاكم جائر.

وتفرض العقيدة الهندوسية الطبقية caste system نظاماً دقيقاً وملزماً لتوزيع القوة والمكانة الاجتماعية والحقوق بين أتباعها، ويضع هذا النظام قيوداً على العلاقات والتعاملات بينهم، تشمل أموراً تفصيلية مثل المسافة الفاصلة التي ينبغي مراعاتها عند اقتراب اثنين من طبقتين مختلفتين من بعضهما البعض ومناولة الطعام والشراب، وتعتبر مخالفة هذه القيود والتعليمات خطيئة كبيرة ينتج عنها "تدنيس" المنتمي إلى طبقة أعلى، مما يستوجب عليه أداء طقوس للتطهر من هذا الدنس، ووفقاً لتعاليمهم الدينية ليس بإمكان الفرد عبور الحواجز المفروضة بين الطبقات في هذه الدنيا، ولكن من المحتمل أن يكافأ الفرد الصالح بتناسخ روحه في جسد إنسان ينتمي إلى طبقة أعلى، أما الإنسان الطالح فقد يكون عقابه العودة إلى الحياة بعد مماته في جسد إنسان من طبقة أدنى أو حتى حيوان.

ومع أن الأديان تدعو للسلام والمحبة واطفاء الخصومات والعداوات بين الناس فقد ظهرت استثناءات مقبولة دينياً على هذه القاعدة، ومنها عقيدة الحرب "العادلة" لدى القديس أوغستين والمسوغة لاستعمال القوة في ظروف محددة، واستخدمت ذريعة لشن حروب "مقدسة" على أتباع الأديان الأخرى، ومن أبرز الأمثلة على ذلك الحروب الصليبية، كما أجاز اللاهوتيون استخدام العنف المفرط في التعامل مع اتباع المذاهب الأخرى والمتهمين بالهرطقة، وهلك نتيجة ذلك الألاف تحت وطأة التعذيب وعلى المحارق التي أقامتها محاكم التفتيش الكنسية في أوروبا. وفي الإسلام أيضاً ظهرت هذه الازدواجية نتيجة تفسيرات الفقهاء ومصالح أرباب السلطة، إذ أهملوا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تفرض على المسلمين احترام حق الحياة لكل البشر

واستعمال الموعظة الحسنة في نشر الدين، وأقروا بدلاً من ذلك استعمال القوة في التعامل مع المخالفين عقائدياً والمعارضين للحكام، وبسبب بعض الفتاوى تقاتل المسلمون، وكل يدعي صحة إسلامه وانحراف مخالفيه.

وفي فلسطين المحتلة يستند اليهود الصهاينة إلى نصوص توراتية لإضفاء الشرعية على اغتصابهم للأرض الفلسطينية واستمرار احتلالهم لها وطرد شعبها من دياره وتشريده وشن الحروب والاعتداءات المتواصلة على جيرانهم من العرب، وتتضامن معهم في ذلك دول غربية.

وفي ديانة شعوب الأزتك في أمريكا الوسطى اتصف أربابهم بشهوة مفرطة للدماء، وخوّف كهان هذه الديانة أتباعها من غضب هؤلاء الأرباب الدمويين، وفرضوا عليهم تقديم القرابين والأضاحي لإطفاء غضبهم، وأفضل القرابين قلوب ودماء البشر، لذلك شن مقاتلو الأزتك الحروب والغزوات بهدف أسر أكبر عدد من الأعداء لتقديمهم قرابين بشرية لأربابهم الوثنيين.

يبدو بأن الصياد المتخفي داخل البعض منا بلباس وهيئة رجل دين نجح في الهيمنة على معظم المؤسسات الدينية في العالم، وترك بصمات فكره وأسلوب حياته على العقائد الدينية نفسها، ونجح في دفن القيم والمثل والأخلاقيات الدينية الأصيلة تحت أكداس من الطقوس والتعاليم، مما تسبب في انصراف كثير من الناس عن الأديان وتعزيز الفكر القائل بعدم ملاءمتها لمتطلبات الإنسان المعاصر بدعوى طوباويتها وتعذر الالتزام بها وتطبيقها، من أبرز منتقدي الدين مؤسس علم النفس الحديث سيجموند فرويد، الذي وصف الدين بأنه وهم، كما ناصب الفكر المادي، بنوعيه الشيوعي والرأسمالي، العداء للأديان، فقد وصف كارل ماركس الدين بـ"أفيون الشعوب"، وأسس الفكر الرأسمالي والنظم الغربية المطبقة له مبدأ فصل الدين عن الدولة وعلمانية الدولة، مما أدى إلى انحسار دور الدين بشكل كبير من الحياة العامة وضعف تأثيره فيها، ويرى لوبريتو(1984)Lopreato بأن معارضة وعداء الغربيين لبعض الأديان الشرقية نابع من الاعتقاد بأن عقائدها ومبادئها تتناقض مع قيم المجتمع الغربي، وبالأخص تلك المتعلقة بالمنافسة الفردية والطموح الشخصي والاستهلاك الواسع. ومع انحسار دور الدين في العديد من المجتمعات قلت وخفتت الأصوات المدافعة عن دوره الإيجابي.

الفلسفة بين واقعية الصياد وأحلام المزارع

قدم الفلاسفة طروحاً مختلفة للإنسان ودوافعه وسلوكه، تتفق بعضها مع تصورنا المقترح للعوامل المؤثرة على الشخصية الإنسانية، والمختزل في ثنائية الصياد والمزارع، وبينما وجد البعض منهم تأثيراً إيجابيا وبناءً لجانب الصياد فينا فضل آخرون صفات وقيم المزارع، وتبين الأجزاء الآتية من هذا الفصل أهم الأفكار الفلسفية حول هذا الموضوع.

عرض بعض الفلاسفة مثل الرواقيين Stoics وجانت وهيوم وروسو وسبينوزا وبنثام وهوسبرز نموذجاً معقداً للإنسان المسير بدوافع متباينة أو متناقضة، تدعوه من جهة إلى السعي وراء القوة والسيطرة وتغليب مصالحه الذاتية، وتحثه من جهة أخرى على التآلف مع الآخرين والتعاون معهم، وقارن الفلاسفة اليونانيون المعروفون بالرواقيين بين نوازع الحكمة ونوازع الحمق في الشخصية الإنسانية، مساوين بين الحكمة ومعرفة الفرد لواجباته تجاه الآخرين، أي مسؤولياته الاجتماعية، والتصرف وفقاً لذلك، ومعتبرين فقدان ذلك دليلاً على الحماقة، واستنتجوا بأن لو كان جميع الناس حكماء لما احتاجت المجتمعات لسلطة الحكام القاهرة.

رأى الفيلسوف ابن خلدون (1332-1406) بان لا فروق بين البشر عند الولادة، فهم قادرون على ممارسة العدوانية كما التعاون، وتتشكل طبائعهم وصفاتهم نتيجة التنشئة والمعاملة التي يتعرضون لها في مجتمعاتهم، فإذا كانت المعاملة رفيقة والتربية حسنة اكتسب الفرد الفضائل والأخلاق الحميدة وحسن المعاشرة، أما إذا كانت التنشئة الاجتماعية قاهرة وظالمة وخالية من الرحمة فستشجع على نمو شخصيات غير سوية تتصف بالتكاسل وضياع الهمة أو الذل، والدولة ضرورية لما يسميه ابن خلدون عمران المجتمع وضبط عدوانية الأفراد وتهيئة مستلزمات

تعاونهم، كما ينبغي أن يكون الحاكم عادلاً " فإن الملك إذا كان قاهراً، باطشاً بالعقوبات، منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل، ولاذوا منه بالكذب والخديعة فتخلقوا بها، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم." (ابن خلدون، ص 149).

لجأ العديد من الفلاسفة لنفس المنطق في إقامة البرهان على الحاجة للدولة والحكومة، وجادلوا بأن السلطة العليا للدولة ضرورية للتوفيق بين المصالح المتضاربة للأفراد المتصفين بالأنانية والجشع وطلب القوة، وهي لازمة أيضاً لمنع تصاعد التنافس بينهم حتى لا يتحول إلى نزاعات عنيفة ودموية، ويرى الفيلسوف الفرنسي عمانويل كانت (1724-1804) Kant بأن الفرد أناني ولا اجتماعي وفي الوقت ذاته متآلف ويتصرف بمسئولية، ويؤكد بأننا عرضة لهذه النوازع المتناقضة بصورة متزامنة، وإن الصراع الناتج عنها هو مصدر ومحرك التطور الاجتماعي، ولكنه يستدرك بأن النظام الاجتماعي يفشل في تحقيق التطور إذا لم يكبت جماح الجانب اللااجتماعي في النفوس، والذي هو أصل الكثير من الشرور، بما في ذلك الطغيان والظلم والقهر أو الفوضى، بشرط عدم حرمان الأفراد من الحرية بصورة تامة.

ولاحظ الفيلسوف الأسكتلندي، ديفيد هيوم (1711-1776) Hume بأن البشر متأثرون بحاجات مختلفة، وبعض هذه الحاجات مثل الشهوة الجنسية تؤلف بينهم، بينما تفرقهم حاجات أخرى مثل حبهم الجم واللامتناهي للممتلكات والثروة، والتي قد يطال خطرها المجتمع برمته ويهدده بالدمار، ويسعى الأفراد للحصول على أعلى المنافع لأنفسهم وأحبائهم وأصدقائهم، ولكن نظراً لشح المتوفر من الأشياء المرغوبة تقع الخلافات الاجتماعية، وبالتالي فلا بد للمجتمعات من إدارة وتنظيم هذا الميل للامتلاك والاستحواذ.

وتسلط الصورة التي رسمها فكر الفيلسوف جان جاك روسو (1712-1778) Rousseau للإنسان الضوء على ولعه الطاغي بالمقتنيات المادية والراحة، فهو لا يكتفي ولا يشبع منها، وما أن يحقق حاجاته الأساسية حتى يوجه اهتمامه إلى الرفاهية والمتع والثروة واكتساب الأتباع أو العبيد، ولن يرضى لا بالقليل ولا بالكثير، والغريب – برأي روسو – أنه كلما كانت حاجته لبعض الأشياء أقل كلما عظمت رغبته بالحصول عليها، وما الهدف من إنشاء المجتمعات في تحليله سوى كبح جماح طلب الإنسان للقوة، ولا يعني ذلك ضرورة تساوي الأفراد في القوة أو الثروة وإنما عدم جواز تنامي وتعاظم قوة فرد ما إلى الدرجة التي تمكنه من استعباد الغير، كما لا يقبل بوجود أفراد ضعفاء أو فقراء بحيث يضطرون لبيع حريتهم، وفي كتابه المعنون (اميل) يؤكد روسو بأن الحرية لا السلطة هي المبدأ الأساسي للعلاقات البشرية، لذا يقتضي إلغاء العلاقات التواكلية بين الأفراد أو تنظيمها، ويحذر روسو من تركها دون ضوابط، وما يستتبع ذلك من تحول السلطة إلى تسلط والطاعة إلى عبودية، فالسيطرة الجماعية لمنع الفروق الكبيرة في القوة والثروة ضرورية في رأيه لحماية الضعفاء من الأقوياء، وكذلك لدرء شرور حسد الضعفاء عن الأقوياء، ويزدري روسو لهاث غالبية البشر وراء القوة والثراء مفضلاً على ذلك حياة الأرياف البسيطة وأخلاقها وقيمها الرفيعة، وهو يؤمن وعلى عكس الكثيرين بأن للعواطف دور مهم في حياتنا، لأنها هي لا العقلانية منبع صفاتنا الجيدة.

رأى الفيلسوف الهولندي سبينوزا (1632-1677) Spinoza بأن للإنسان سيدين: الأهواء والعقل، وعادة ما يكون منقاداً لأهوائه لا لعقله، ومن أقوى الأهواء المسيطرة عليه الرغبة في التفوق والتقدم على الآخرين، ويدفعه هذا الهوى إلى التنافس والتصارع معهم، ومع أن التعاون أكثر فائدة لبقائه ورفاهيته لكنه يختار ايذاء الآخرين ويتفاخر بذلك، واختتم سبينوزا أطروحته عن الطبيعة البشرية بالاستنتاج بأن الإنسان سيبقى دائماً خاضعاً ومطيعاً لأهوائه بدلاً من عقله.

ولاحظ الفيلسوف الإنجليزي بنثم (1748-1832) Bentham بأن الأفراد يتعاونون ويتنافسون في المجتمع لتحقيق مآربهم، وتتحقق السعادة الكبرى لأكبر عدد من الناس بلجم النزعات الفردية لديهم، وتنبأ بأن الفضيلة ستهيمن في النهاية وتتحسن أحوال الجنس البشري بصورة عامة.

وكتب الفيلسوف المعاصر جون هوسبرز (1918-2011) Hospers مؤخراً بأن الأنانية والإيثار صفتان أساسيتان لدى كل منا، وأطلق على هذا الإيثار مصطلح الإحسان المحدود أو الدافع للمساعدة، وهو ما يحدو بالناس لمساعدة بعضهم البعض، وخاصة في الأزمات، من دون توقع مقابل له سوى الشعور بالرضا لأدائهم الواجب.

فلاسفة الصياد

يبدو بأن عدداً كبيراً نسبياً من الفلاسفة اقتنعوا بأن البشر محكومون بنوازع الأنانية وطلب الثروة والقوة، وقد دافع البعض من هؤلاء المفكرين عن هذه الدوافع باعتبارها إيجابية في تأثيراتها على الفكر والسلوك، وبالتالي فهي الأجدر بالتشجيع والمكافأة والاستدامة من خلال المؤسسات والقيم الاجتماعية، ونظر البعض منهم إلى التباين الكبير وانعدام المساواة بين الطبقات الاجتماعية كظاهرة طبيعية وسوية، ناجمة عن الترتيب أو النظام الطبيعي، وبالتالي فلا غرابة لو تمثلت هذه النزعات في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وترسخت في صورة نظم، وأقرت بشكل قوانين، كما ركزت الفلسفة المنحازة للصياد على الجانب العقلاني، وناصرت سيادة العقل والقوة على العواطف، ونجد بعض صفات الصياد في نموذج الحاكم أو الملك الفيلسوف لدى افلاطون والسوبرمان كما صوره نيتشه والرجل القوي في فكر الماركيز دي ساد، وحاول فلاسفة مثل هوبس ونيتشة وباريتو شرح السلوك البشري من خلال مقارنته بغرائز وسلوكيات البقاء والصيد لدى الحيوانات المفترسة مثل الأسد والذئب والثعلب.
ومن الملاحظ بأن القوة والمكانة والثروة والنزعة للحصول عليها محاور رئيسية في الفلسفة منذ أرسطو، الذي اعتبرها مسببات الصراع بين الأغنياء والفقراء، ورأى الكلبيون Cynics، وهم فرقة من الفلاسفة الإغريق، بأن الأفراد يسعون إلى الاستقلال والتفرد عن بعضهم البعض وإلى التهرب من مسئولياتهم الأخلاقية تجاه الغير، أما الأبيقوريون Epicurean فقد أكدوا على خضوع البشر إلى الأهواء والميول الشريرة والرغبات الغريزية، لذا فهم بحاجة ماسة لحماية القانون، وهم يشترطون وجود القوانين لتحقيق السعادة، كما يؤكد بلامينتاز (1992) Plamentaz، وحذر أفلاطون من الفرد المهووس بالقوة لكونه أكثر الناس شروراً، فهو لا يتوانى عن قتل واستعباد الآخرين، وعادة ما يعيش حياة ضنك، محفوفة بالمخاطر، مشوبة بالقلق المستمر، والخوف من انتقام أقارب وأصدقاء ضحاياه، ونتلمس ملامح الصياد في تصور الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون Bacon (1561-1626) للفرد الذي يطمح إلى السيطرة والتحكم بكل شيء في العالم.
ورأى المفكر السياسي والعسكري الإيطالي مكيافلي (1469-1527) Machiavelli بأن حاجات ودوافع الإنسان متمحورة حول البقاء والأمن والرغبة في إثارة إعجاب الآخرين بأعماله وإنجازاته، وتظهر طبيعته الشريرة في إفراطه في الطموح والرغبات، والأفراد كما الدول، على حد سواء، مسيرون برغبة جامحة للاستحواذ على القوة والسيطرة، وليس في ذهن مكيافلي أي شك في كون هذه الرغبة المحمومة السبب الرئيسي للحروب والنزاعات الداخلية، كما تتحكم هذه الرغبة في العلاقات بين النخب القوية والمتنفذة وعامة الناس في كافة الدول، ويستغل القادة ميل العامة إلى اتباع وتقليد الأقوياء للهيمنة عليهم، وعادة لا يكون الفرد الذي يعيش في هذه الظروف مستعداً للتعاون مع غيره، إلا إذا اقتنع بضرورة ذلك للبقاء وخدمته لمصالحه.
انتقد مكيافلي القيم المسيحية لأنها، في نظره، تسلب الفرد كبرياءه، وتقوض استقلاله الفكري، كما يراها غير واقعية بحيث لو تمسك بها أحد جاعلاً من عمل الخير منهجاً ثابتاً لسلوكه فلن يجنى من ذلك غير الخيبة والخسران في عالم مليء بأكثرية تتصف بالأنانية.
ولأن البشر أنانيون، في رأي الفيلسوف الإنجليزي هوبس (1588-1679) Hobbes، ولا شاغل ولا هم لهم سوى الحصول على القوة والنفوذ لا بد للفرد من مجاراة ذلك صوناً لنفسه من الأذى والهلاك، وبدون نظام سياسي مهيمن تكون حياة الفرد: موحشة، همجية، مقفرة، وقصيرة،

وابتدع هوبس المصطلح homo homini lupus، والذي يلخص اعتقاده بأن كل فرد هو ذئب في تصرفاته وتعاملاته مع الآخرين، وهؤلاء الذئاب يتنافسون على المصالح والأمن والعظمة، وفي حالة الطبيعة تضطرهم مشاعر القلق والخوف إلى الاقتناع بأن كل شيء مباح ولهم الحق الطبيعي في حيازة كل شيء، ولأن ولعهم بالقوة وكل ما يرتبط بها من ثروة وسلطة ومقام رفيع لا حدود له لذا فهم مستعدون للتصارع فيما بينهم لأن الجميع غرماء، ومبادئ العدالة والإنصاف سخف اصطنعه البشر، وبسبب مشاعر القلق التي تطارده في حالة الطبيعة – أي بدون مجتمع ونظم – يفضل الإنسان التضحية بالحرية التي ينعم بها مقابل الأمن الذي يوفره له مجتمع سياسي منظم في دولة قاهرة، تحت سطوة متسلط، ويكون فيها حكم القانون ضمانته الوحيدة أمام أنانية الآخرين وطموحهم اللامتناهي.

دافع الفلاسفة كانت (1724-1804) Kant وبيرك (1729-1797) Burke ولوك (1632-1704) Locke عن مصالح وامتيازات النخب الحاكمة والمتنفذة في المجتمع، وجمعت صورة الإنسان في فلسفة كانت بين الأنانية الفردية والنزعة للتآلف، وهو لم يكن متفائلاً في نظرته العامة، إذ خلص إلى القول بأن من سليقة البشر المعوجة لم يخرج أي عمل مستقيم، وقد يكون ذلك سبب فتواه بوجوب الخضوع التام للسلطة، سواء كانت السلطة جائرة ومتسلطة أم عادلة، وأجاز قتل أي شخص يجرؤ على الخروج عليها، ورأى الفيلسوف الإنجليزي أدموند بيرك بأن التباين بين طبقات أفراد المجتمع الواحد ظاهرة طبيعية، واستحقاق الطبقة العليا أو النخبة الأرستقراطية للمكانة الاجتماعية العليا والمزايا الواسعة نابع من كونها الأقدر على تمثيل وحماية المصالح العامة، وتبنيها للمصالح العامة ما هو إلا نتيجة منطقية لإحساس أفرادها المرهف بالمسئولية، ولأنهم يضعون التكريم الاجتماعي والحفاظ على السمعة في مقدمة اهتماماتهم تراهم يتفانون في خدمة المصالح العامة.

أكد جون لوك على أن شرعية الحكم مستمدة من رضا وقبول الرعية، واقر للمحكومين بالحق في تغيير الحكومة تحت ظروف محددة، ولكنه في الوقت نفسه اعتبر الملكية أساساً ومصدراً للحقوق السياسية، وبذلك يكون لملاك الأراضي كافة الحقوق السياسية، التي تمكنهم من التحكم بمصائر الأكثرية غير المالكة وغير المستحقة للحقوق السياسية، ولا يمكن لهؤلاء العيش إلا محكومين أو أرقاء.

وكان الفيلسوف الألماني هيجل (1770-1831) Hegel من أنصار الملكية الوراثية وتفرد القادة بالسلطة والامتيازات، فلا يجوز أن تعيقهم الفضائل الشخصية أو اعتبارات القيم والأخلاق، ولكنه لم يكن معجباً بهم وبأعمالهم إذ وصفهم بصناع التاريخ الأشرار، واعتقد فردرك نيتشة (1844-1900) Nietzsche بأن المبادئ والقيم ما هي إلا وسائل يصنعها وأدوات يستعملها الأقوياء للدفاع عن مناصبهم وممتلكاتهم في المجتمعات، ويتفق مع هوبس في تشبيهه الفرد بالذئب المهووس بالرغبة في التسلط على كل واحد وكل شيء من حوله، وازدرى نيتشة الثقافة السائدة في المجتمعات الحديثة التي تسعى لتدجين الفرد وتحويله من "مفترس" إلى مجرد حيوان منزلي أليف، وانتقد نيتشه القيم المسيحية الداعية إلى العطف والمغفرة والرحمة والإيثار والناهية عن الأنانية وطلب القوة، واصفاً إياها بقيم "العبيد" ومعتبراً الحب والإيثار ضعفاً، ودعا إلى استبدالها بالقيم الإغريقية "الأرستقراطية" التي سبقت ظهور المسيحية، وحددت هذ القيم شروط الانتماء إلى أفراد الطبقة العليا الموصوفين بالصلاح، وهي النشاط والقوة والرغبة في الغلبة والحكم، أما الطالحون في رأيه فهم الذين يفتقرون إلى القوة والنشاط، لذلك هم يفشلون في التنافس والصراع على القوة، وينتهون في مرتبة اجتماعية متدنية، ويرى نيتشة بأن المكانة العالية للأرستقراطيين نابعة من استعدادهم للتضحية بالآخرين خدمةً لمصالحهم الذاتية من دون الاكتراث لمصائر وعذاب ضحاياهم، والمجتمع المثالي، في تصوره، هو الذي يبرز فيه الأفراد الخارقون (السوبرمان) أو ubermensch ويتميزون عن الأفراد العاديين بقدرتهم الاستثنائية على التحكم بعواطفهم وأهوائهم، ونبذهم لقيم "العبيد" الداعية إلى الإيثار والتعاطف، وهم الأقدر والأكثر استعداداً لممارسة ما اعتبره "فضائل" القسوة والسعي إلى القوة، وما ينتج عن هذا

الاستقطاب من صراع والمشاعر التي يؤججها في النفوس ما هي إلا شروط ضرورية لتأسيس وديمومة الحضارة الخلاقة، وهو القائل بأن إنجازات الحروب والقوة أعظم بكثير مما حققته القيم الأخلاقية مثل الإحسان للجار، وقد أثنى بعض المفكرين على نيتشه لتحليله الصائب لجوهر الحضارة الغربية وهيكل القوة فيها.

الصراع هو محور الماركسية وعقيدة الديالكتيك أو الاستقطاب الطبقي، فقد أكد كارل ماركس Marx (1818-1883) وأتباعه على أن التغيير لا يتحقق إلا عبر الصراع والكفاح الطبقي، وبالتالي فإن هذه الآلية هي بحد ذاتها إيجابية وبناءة، ورفض ماركس القيم لأنها في رأيه مجرد اشباح فكرية متصورة داخل عقول البشر، وقد ظلت هذه المعتقدات أساساً للنظم الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية حتى سقوطها، وما زالت الماركسية العقيدة السياسية المهيمنة في الصين وكوريا الشمالية وكوبا.

وركزت فلسفة الإيطالي باريتو Pareto (1848-1923) على التنافس والصراع الدائرين حول السيطرة في المجتمعات البشرية أيضاً، وهذا التنافس نتاج طبيعي للفروقات في القوة البدنية والذكاء وقوة الإرادة بين الأفراد، ومن المنطقي أيضاً أن يكون الفوز في هذا الصراع من نصيب الأقوى والأشد ذكاءً، واطلق باريتو على هؤلاء الأفراد الأذكياء تسمية الثعالب، ولكن هؤلاء الثعالب لا يأمنون فئة أخرى من الناس وهم الأسود الذين يفوقونهم في القوة ولكنهم محافظون وأقل إبداعاً وعقلانيةً، وحتى لو خسر الثعالب مواقعهم للأسود فإن ذلك سيكون مؤقتاً، وعاجلاً أم آجلاً سيوظف الثعالب ذكائهم المتفوق لتقويض سلطة الأسود وإزاحتهم والحلول محلهم، وسواء كان الحكام هم الثعالب أم الأسود فأن الغلبة والسيطرة للنخبة دائماً في كل المجتمعات البشرية.

وفي هذا العالم المليء بالصراع والتنافس المحموم والعنيف غالباً على السيطرة بين النخب الذين أطلق الفلاسفة والمفكرون عليهم أسماء حيوانات مفترسة مثل الثعالب والذئاب والأسود لم تبقى سوى القليل من القيم والمبادئ الثابتة، وقد استنتج عالم الاجتماع كارل مانهايم Mannheim (1893-1947) بأن كل طبقة اجتماعية ترى العالم بعين جماعتها، ولكل من هذه النظرات مفهوم للحقيقة، وبالتالي فلا بد أن يكون لكل منها نظام قيمي خاص، كما أن القيم الأخلاقية متغيرة من زمن إلى آخر، فهي بالتالي غير ثابتة أو دائمة ونسبية، وهو ما أسسه وطبقه الصياد في المجتمعات.

كل الإرث والتاريخ البشري في اعتقاد أدولف هتلر هو صنعة العنصر الأفضل والأسمى، الذي يثبت تفوقه بالنصر في الحروب، ويتكون هذا العنصر من الأقوى والأقدر، وهم دون غيرهم الأحق بالحياة والتكاثر، ولكي يتوصل العنصر التيتوني الألماني إلى قدره المحتوم برأي هتلر لا بد لشباب ألمانيا من التطبع بالعنف والقسوة والتسلط وعدم الاكتراث، ولا يختلف موسوليني عن هتلر في تمجيده للعنف والعدوانية، كما وصفه سميث Smith (1981)، وفي دعوته إلى نبذ القيم الدينية المشجعة على القدرية والجبن والتخاذل.

تقفز إلى أذهاننا صورة الصياد عندما نقرأ لهانس مورجينثاو Morgenthau (1946) بأن الإنسان أناني ومدفوع دائماً برغبة جامحة ولا متناهية للفوز بالقوة، وفي سعيه المتواصل لإشباع هذه الرغبة أفسد كل ما حوله، إذ حول الأديان إلى منظمات تتصارع داخلها الطوائف والكهان وأتباعهم على القوة والسيطرة، كما هبط بالثورات وأهدافها السامية وقيمها التحررية والإنسانية إلى حضيض الدكتاتوريات، وفي كتابه المعنون نقد المنطق الديالكتيكي Critique of Dialectical Reason خلص سارتر إلى أن كل الناس أعداء متنافسون.

فلاسفة المزارع

وصف فلاسفة الصياد الفرد بالأنانية والفردية والاندفاع مستعيناً بكل الوسائل وراء إشباع حاجاته وتعزيز قوته تجاه الآخرين، وتنطبق هذه الأفكار بالكامل على جانب الصياد من

شخصيتنا، ونجد تصوراً مختلفاً لدى مجموعة أخرى من الفلاسفة والمفكرين في تركيزهم على اِلتزام الإنسان بقيم ومبادئ عليا مثل العدالة والمساواة والمودة وميله للاهتمام بالآخرين ومعاونتهم، وهم بذلك أكدوا على طبائع البشر الخيرة ونزعتهم الاجتماعية القوية وما تفرضه عليهم من اتصال وتبادل وتفاهم وتعاون لبناء مجتمعات آمنة ومنتجة.

ودعا سقراط المفكرين إلى الاهتمام بدراسة الأخلاق والعلاقات بين الأفراد لكي يتعلموا كيفية العيش سوية في سلام ووئام، واعتبر أرسطو وأفلاطون التعاون قاعدة الدولة الناجحة، وانتقد الرواقيون اليونانيون Stoics تهافت البشر على الثروة والشهرة، ودعوهم إلى تركهما لأنهما لا يستحقان الاهتمام كما يورد Irvine (2009)، واعتبر الفيلسوف ابن مسكويه (932-1030) العدالة السبيل الأمثل للوصول إلى الفضيلة المثلى وهي المحبة ، وحظ الحكام على اجتناب الجور وبسط العدل واحترام القوانين أو الشرائع، واستنكر بعض الفلاسفة سيطرة الأنانية على الفكر والسلوك البشري، وحملوها المسئولية عن تدهور المجتمعات، وتمنوا حدوث تحولات في المجتمعات والأفراد لكي يكون ممكناً ظهور وتطور نظم اجتماعية أفضل، ومنهم الكساندر بوب Alexander Pope (1688-1744) الذي اقتنع بأن السعادة لا تتحصل من خلال الثروة والأملاك، وانتقد بيير جوزف براودهورن Pierre Joseph Proudhorn حب التملك والتوزيع غير العادل للثروة، والتي يحصل العمال بموجبها على حصة صغيرة من ثمار كدهم، وكان حكمه على الملكية مطلقاً: الملكية سرقة، واعتبر مونتاين Montaigne(1553-1592) كل أنواع القسوة التي يمارسها الإنسان ضد غيره من البشر أعظم الخطايا، وسخر أناتول فرانس Anatole France من القوانين التي تعاقب الفقير المضطر للنوم في العراء تحت جسر أو سد رمقه برغيف خبز مسروق، وهي وإن طبقت على الأغنياء على حد سواء متحيزة لهم، وأبدى وليام جودون William Godwin (1756-1836) وهو من أوائل فلاسفة الفوضوية رأياً مشابهاً حول انحياز القانون للأغنياء والأقوياء، ودعا إلى إلغاء كافة أشكال الطغيان واشترط لانتشار الفضيلة بين الناس تطبيق العدالة السياسية على الجميع وإزالة احتكار الملكية.

انتقدت الإنجليزية ماري ولستونكرافت Mary Wollstonecraf (1759-1797) دفاع الفيلسوف أدموند بيرك عن الطبقة الأرستقراطية لأنها تؤسس لهيكلية مناقضة للطبيعة بين الناس وتؤدي إلى الانحلال القيمي بين الأثرياء والفقراء على حد سواء، ودعت إلى توفير وسائل الحياة للفقراء وإزالة كل مسببات الاستغلال والتنافس والبغضاء داخل العائلة لكي تسود المشاعر الإيجابية العلاقات بين أفرادها، ووفقاً لما كتبه بوتنك عنها Botting (2006) فقد ذهبت إلى أبعد مما دعا إليه روسو حول حقوق المرأة في دفاعها عن حق المرأة في المساواة مع الرجل في التعليم والمشاركة في الحياة العامة.

ووضع المفكر الفرنسي الإنساني شارلز فوريير Fourier (1772-1837) ثقته بالطبيعة البشرية لكونها خيرة بالفطرة رافضاً العقيدة المسيحية القائلة بتوارث البشر لخطيئة آدم الأولى، واعتبر التجانس أو التناغم قانوناً كونياً، فما ينفع الطبيعة مناسب للمجتمع كذلك، ويتطلب إصلاح المجتمعات تولى المسئوليات فيها أفراد يتصفون بكامل الحرية والنضج والتنظيم، كما اعتقد بضرورة التعاون والاهتمام بأحوال الغير لتطور المجتمع، واقتنع الكثيرون بأفكار فوريير فبادروا إلى تطبيقها، وأسسوا تجمعات بشرية أو كومونات زراعية في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وقاموا بإدارتها وتشغيلها بصورة جماعية، وقادت أفكار فوريير إلى نشوء الحركة التعاونية.

إن الهدف المشترك لمعظم المفكرين المصنفين هنا مع أنصار المزارع هو إزالة كافة مصادر الظلم الاجتماعي والقهر، وبالأخص المؤسسية منها، إذ رفضت الحركة الاشتراكية في القرن التاسع عشر الأوضاع الاجتماعية في زمانها، ودعت إلى إنشاء نظام اجتماعي مبني على نبذ الجشع ونشر المحبة بين أفراد المجتمع وإفشاء روح المواطنة الاجتماعية، ورأى الفيلسوف الفرنسي سانت سيمون Saint Simon (1760-1825) بأن التطور الاجتماعي يتجه من مرحلة متخلفة يقود الأقوياء فيها المجتمعات إلى مرحلة متقدمة، تكون الغلبة فيها للقيم والأخلاق

السامية والتعاون المنتج، وتنبأ بولادة هذه الحضارة الجديدة عبر مخاض فكري إشراقي، يتكون لدى النخب، ثم تتبناه المؤسسات والأفراد عامة (Durkheim, 2009; Taylor, 1975)، وقد ذهب المفكر الفرنسي أوجست كومت، Auguste Comte والذي يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث، إلى أبعد من ذلك في تخيله لحالة مستقبلية يتحرر فيها البشر من قيود المادية الثقيلة، لينطلقوا إلى مستوى رفيع من الروحانية، ومن خصائص هذه المرحلة المثالية تكاثر البشر من دون الحاجة للمعاشرة الجنسية.

رفض جون ستيوارت ملز (1806-1873) John Stuart Mills الاعتقاد الديني بالخطيئة الأولى وافتراض الطبع الشرير للبشر، وعارض محاولات العديد من الفلاسفة تبرير المنافسة والصراع باعتبارها قوى بناءة وخلاقة في المجتمع، وانتقد بشدة أولئك الذين يطرون الحالة السائدة للعلاقات البشرية، وما فيها من "سحق بالأقدام وتدافع بالمناكب" وكأنها أفضل ما يمكن الصبو إليه وبلوغه، وهاجم ميلز بضراوة معاملة الرجال للنساء آنذاك، ونادى بتطبيق مبدأ المساواة الكاملة، وعدم السماح بتسلط أو حظوة لطرف على حساب آخر، أو القول بعجز أي طرف، وفي ذات الوقت رأى في البشر خصلة عظيمة وهي مقدرتهم على التعاطف مع الآخرين، أي المشاركة في مشاعر الفرح والحزن، معتبراً ذلك الأساس المتين للقيم الإنسانية، وكتب بأن من الطبيعي الاهتمام بمصالح الغير كما نفكر نحن ونهتم بمصالحنا.

وانتقد الفيلسوف الفرنسي ميشيليه (1846) Michelet الفلاسفة الذين افترضوا فردية الانسان وعزوفه بالطبيعة عن التواصل الاجتماعي وادعوا بأن التغلب على ذلك يتطلب جهداً فردياً عظيماً، وآمن ميشيليه بأن البشر يولدون اجتماعيين وكرماء وأخلاقيين بل وحتى مستعدين للقيام بأعمال بطولية، ولكنهم فيما بعد يتعلمون الأنانية المفرطة وحب الثروة والمكانة الاجتماعية قبل أي شيء آخر.

ونأى المفكر الروسي الأمير كروبتكن (1842-1921) Kropotkin بأفكاره عن الاتجاهات السائدة في عصره عندما كتب بأن الإنسان الأصلح للبقاء ليس الأقوى بل الأكثر استعداداً للتعاون، ورأى بأن استعدادنا الفطري للتعاون والتكاتف mutual aid هو مصدر مشاعر الود والإيثار، وتنبأ بأن النوع المتعاون من البشر سيكون في النتيجة أكثر عدداً وقوة وثراءاً من غير المتعاونين الذين سيواجهون الانقراض (Kropotkin, 1972).

كما اقترح المفكر والروائي الروسي ليو تولستوي (1828-1910) Tolstoy وصفة رائعة لسعادة البشرية، أولاً يتوجب علينا التخلص من الجشع والرذيلة، والتي اعتبرهما المنبعين الأساسيين للخلافات والصراعات في المجتمعات البشرية والعالم، ويتولد الجشع في رأيه من التفاوت في الملكية، والذي يؤدي بدوره إلى العنف، واعتقد الكونت تولستوي كذلك بأن ملكية نعم وثروات الطبيعة حق مشروع للجميع، وعملاً بهذا المعتقد أقدم على توزيع أراضيه على الفلاحين العاملين فيها.

رفض تولستوي كل أشكال الظلم، بما في ذلك القسر والقهر المستعمل من قبل الحكومات والكنيسة، ولكنه في الوقت نفسه عارض استعمال القوة ضد الحكومة، وفضّل بدلاً من ذلك العصيان المدني وغيره من الوسائل السلمية مثل التمرد على التجنيد الإجباري، والطريقة الوحيدة المقبولة لديه لتحقيق الثورة المفضية إلى نشر القيم الإيجابية المنشودة هي باعتماد الاقناع والتكوينات الاجتماعية البديلة للمجتمعات التقليدية، وبالنتيجة استبشر بأن عاطفة المحبة ستحل محل العنف والعدوان، وستكون العاطفة الرئيسية المؤثرة في حياة البشر.

تأثر القائد الهندي المهاتما غاندي بالفكر الفلسفي لتولستوي، ونجد ذلك في الأهمية المحورية للعصيان المدني في فكر غاندي، والذي اعتبره الوسيلة الوحيدة المقبولة للنضال السياسي من أجل استقلال الهند، ودعا غاندي إلى اعتماد وسائل اللاعنف في مقاومة السلطة غير المشروعة والمتعسفة، وأكد على ضرورة خلو حركة المقاومة السلمية من أي مشاعر كراهية تجاه الظالمين، لأنه رأى ضرورة تغليب مشاعر المودة تجاه كل بني البشر في كل الأحيان والمواقف، كما ينبغي تقبل أي نتائج مؤلمة للعصيان المدني بصبر وعزة نفس.

عاصر بادشاه غفار خان المهاتما غاندي، ويقال بأنه سبقه إلى الدعوة إلى مذهب اللاعنف، ووفقاً لما بينته ملتون- إدواردز Milton-Edwards (2000) فقد دعا غفار خان إلى اعتماد ذلك في مقاومة الاحتلال البريطاني للهند وإصلاح المجتمع، وأكد بأن حركته متجذرة في سلمية العقيدة الإسلامية، واجتذبت دعوته الكثير من الأنصار، ولخص القسم لذي ردده هؤلاء الأتباع أبرز عناصر مذهبه في اللاعنف، وهي خدمة البشرية والامتناع عن العنف والانتقام واجتناب الشقاق والخلاف والثارات والعفو عن المسيئين والمضطهدين والعمل على تحرير الوطن من الاحتلال، وتعرض أنصاره للاضطهاد من قبل سلطات الاستعمار البريطاني وقتل المئات منهم في تظاهرة سلمية، وبعد التقسيم حبست السلطات الباكستانية الداعية غفار خان وحظرت حركته السلمية.

الصياد والمزارع في العلوم الاجتماعية

طورت العلوم الاجتماعية أو الانسانية مفاهيمها ومناهجها وأساليب بحثها، لتغدوا المصدر الرئيسي للمعرفة عن المجتمعات والسلوك البشري، ولكن الحاجة للفلسفة في هذا المجال وغيره لم تنتهي، ومن الواضح أن منهجية العلوم الاجتماعية وما تتضمنه من أطر فكرية ووسائل لجمع وتحليل البيانات الميدانية والاستنتاج منها مختلفة عن الطريقة التأملية والمنطقية للفلاسفة، وتعتبر بشكل عام أكثر إحكاماً ودقة، وبالتالي أكثر علمية من المنهج الفلسفي.

كان التقدم المذهل في العلوم الطبيعية محط اهتمام وإعجاب العلماء الاجتماعيين الأوائل، ودفعهم ذلك لمحاولة تقليدها، من حيث منهج البحث وقوة النتائج، حتى أنهم اعتقدوا بوجود قوانين تتحكم بالنظم الاجتماعية يمكن التعرف عليها والتنبؤ بالظواهر الاجتماعية على أساسها، وهي أشبه بقوانين الجاذبية أو قوانين نيوتن، لذا فقد خصصوا الكثير من مواردهم وجهودهم لمحاولة اكتشاف هذه القوانين، وكان من أبرز نتائج هذه المحاولات ما يعرف بالداروينية الاجتماعية Social Darwinism، والمستمدة من نظرية داروين في الاختيار الطبيعي.

اعتقد أصحاب نظرية الداروينية الاجتماعية بأن الأفراد في المجتمع، وكما هو حال كافة المخلوقات الحية في الطبيعة، يتنافسون على وسائل البقاء، والأقوى من بينهم هو الأقدر على البقاء، ولم تتوقف هذه النظرية عند وصف ما هو حادث بل ذهبت إلى أبعد من ذلك بالتأكيد على أن الأقوى فقط هو الأحق بالبقاء، ووفقاً لذلك كتب هربرت سبنسر(1903-1820) Herbert Spencer بأن من الطبيعي أن يثرى المقتدرون، ويكتسبون المكانة والقوة، فيما يرزح عديمو الكفاءات والمهارات في الحرمان والفقر، وعارض سبنسر تدخل الحكومات في هذه العملية مثل تحسين الوضع المعاشي للفقراء سواء في بلدانهم أو مستعمراتهم، لأن ذلك يتعارض مع قانون التنافس الاجتماعي ومبدأ البقاء للأكثر كفاءة، وفي الوقت نفسه تحمس لحظر تناسل وتكاثر ضعاف العقول والمجرمين.

لعل أشهر مناصري الداروينية الاجتماعية هو ثوماس مالثوس (1834-1766) Thomas Malthus، الذي لاحظ بأن من المحتم أن يموت بعض البشر جوعاً، لأن كميات الغذاء المنتجة في العالم محدودة وقد لا تكون كافية لسد احتياجات الجميع، والوفيات بسبب سوء التغذية أو الأوبئة تحصد الضعفاء وغير الأكفاء من البشر، وهؤلاء يجنون على أنفسهم أصلاً لأنهم لم يسيطروا على شهواتهم الجنسية، فتوالدوا بكثرة أوصلتهم إلى الفقر المدقع وعدم القدرة على إطعام كافة أفراد أسرهم.

كان ديفيد ريكاردو Ricardo (1823-1772) ومالثوس صديقين، ولهما موقف موحد في معارضة قانون الفقراء في بريطانيا، والذي حصل فقراء بريطانيا بموجبه على مساعدات مالية، واعتبر ريكاردو العمال مجرد وسيلة تحت تصرف المستثمرين الناجحين، وما أوضاعهم المزرية سوى نتيجة طبيعية للقوانين الطبيعية المتحكمة بطبائع البشر.

واعتنق وليم سومنر (1840-1910) William Sumner فكر الداروينية الاجتماعية ، وهو صاحب الرأي بأن الأفراد يجنون الثروات وقد يصبحون من أصحاب الملايين نتيجة الاختيار الطبيعي، وبنفس الطريقة يفتقر فاقدو المهارات والمؤهلات، أو يبقون على حالتهم من الفقر والحرمان. وفي أواخر القرن التاسع عشر أجرى بعض الباحثين دراسات للبرهنة على أن الأفراد "المتفوقين" superior في بعض الصفات البدنية مثل الطول والوزن والحالة الصحية يحصلون على فرص أفضل، وهم أقدر على جمع الثروات من الذين لا يتصفون بهذه الصفات، ويعتقد كولنز وماكاوسكي (1984) Collins and Makowsky بأن هذه الرؤى شجعت على ظهور وتنامي العنصرية في أمريكا والتيار المعادي للسامية في ألمانيا وفرنسا وروسيا، ووفرت القاعدة الفكرية للاستغلال الرأسمالي، والخلاصة هي أن الدارونيين الاجتماعيين متفقون مع غيرهم من فلاسفة الصياد بأن الأصلح أو الأقدر من البشر سيرثون الأرض وما عليها لا الفقراء أو الضعفاء، وهم يرون بأن القيم الأخلاقية والكثير من الأمور التي نعتبرها مسلمات – باستثناء قانون الاختيار الطبيعي – نتاجات آنية ووقتية، وصحتها نسبية، وهي قابلة للتعديل والتغيير بمرور الزمن.

تبنى الاقتصاديون الكلاسيكيون افكار حركة الداروينية الاجتماعية، وبالتحديد اعتبار المجتمع كياناً من الأفراد المهتمين بمصالحهم الشخصية والذين تجمعهم روابط المنافسة البحتة، ومن هذا الفكر انبثق مبدأ اقتصاد السوق الحر، والذي يرى مناصروه بأن الضمان الذي يوفره هذا النظام الاقتصادي للأفراد بالسعي وراء مصالحهم الذاتية سيؤدي حتماً إلى أعظم الفوائد لجميع افراد المجتمع وإلى التناسق والتوازن بين المصالح، وزاد على ذلك آدم سميث (1723-1790) Adam Smith بأن الهرولة الأنانية وراء المصالح الشخصية لا الإحسان هو العامل الذي يدفع الأفراد للتعاون فيما بينهم، وهي أيضاً الطريقة المثلى لبلوغ الكثير من الأهداف غير الاقتصادية مثل الحصول على القوة والنفوذ والمكانة والاحترام، وتنبأ جون ماينارد كينز John Maynard Keynes بأن عاجلاً أم آجلاً سيحقق الجميع حلمهم بالثروة والرفاهية، وتقتضي حتمية ذلك على الأفراد التجمل بالصبر وتقبل الوسائل المقيتة لبلوغ هذه الحالة المستقبلية المنشودة، وفي دفاعه الحماسي عن هذه الفكرة كتب كينز(1931:372) :

> لمائة عام قادم ينبغي علينا التظاهر مع أنفسنا
> وأمام الغير بأن الجيد هو رديء، والرديء هو عادل،
> وبأن الرديء مفيد، لكن العادل غير نافع، ويجب أن
> يكون الجشع والربا والشك أربابنا لفترة زمنية قادمة،
> لأنهم وحدهم سيقودوننا إلى خارج نفق الحاجة الاقتصادية
> ونحو الضياء.

انقضى قرنان على ظهور أفكار مالثوس لكنها لم تندثر تماماً، والدليل على ذلك دعوة الأستاذ الأكاديمي الأمريكي جاريت هاردن (1968) Hardin إلى تصحيح قوانين الهجرة في الدول المتقدمة وسياساتها بشأن مساعدة الدول الفقيرة، لأنها مضرة باقتصاديات الدول الغنية ورفاهية سكانها، وهو يرفض تشبيه الأرض بسفينة الفضاء، لأن ذلك يتطلب وجود قيادة موحدة، والصحيح في رأيه هو أن الدول أشبه بسفن نجاة، وللدول المتقدمة سفن نجاة كبيرة وفارهة وثرية بالموارد بينما سفن نجاة الدول الفقيرة صغيرة ومكتظة وقليلة الموارد، ويحاجج هاردن بأن مشاركة الدول الثرية للفقيرة في الموارد غير حكيمة لأنها ستؤدي إلى تكاثر سكانها وازدياد الفقر فيها، ودليله على ذلك النتائج السلبية للأرض المشاع، إذ يعمد كل واحد للانتفاع منها مما يعجل باستهلاكها وتدهورها، ويكتب مخاطباً الأمريكيين: نحن الأمريكيون باستثناء السكان الأصليين من سلالة لصوص، وكلنا مذنبون في معيار القيم المتعارف عليها، فهل أحد منكم مستعد لإرجاع الأرض إلى أصحابها الحقيقيين؟ وغرضه الواضح من هذا السؤالالافتراضي التصدي لأي

معارضة لأفكاره على أساس القيم الإنسانية، وتغافل هاردن عن حقيقة أن ليس كل البلدان منهوبة من أصحابها، وما يقترفه الأمريكيون من أفعال لا يعتبر معياراً، كما تناسى أن الدول الثرية وعلى رأسها أمريكا أكثر الدول استهلاكاً وتبذيراً لموارد الأرض، ويقدر أحدهم بأن لو أراد بقية سكان الأرض تقليد أنماط الاستهلاك الأمريكية لاحتجنا لعدة كرات أرضية لا واحدة، وخلافاً لأفكار مالثوس وهاردن وأمثالهما لم تتحقق كل التوقعات المتشائمة حول اقتراب موعد نضوب موارد الأرض وحدوث مجاعات كبيرة.

ولاحظ سيجموند فرويد Freud بأن الأقوياء سيطروا على المجتمعات البشرية على مر العصور، واستخدموا وسيلتين رئيستين لأحكام سيطرتهم عليها، وهما القوة الغاشمة والعنف، وكان للفكر البشري دور محدود في هذه المجتمعات، وهو إسناد سيطرة هؤلاء الأقوياء المبنية على استعمال العنف والتهديد به، ورأى فرويد (1959) بأن العدوانية غريزية أو فطرية، ففي داخل كل واحد منا في نظره خزين من العدوانية متى ما امتلأ انفجر تلقائياً ومن دون محفز خارجي، وكل أعمال العنف والشرور بالتالي ناتجة عن هذه العدوانية الكامنة في الجميع، لذا فمن الحماقة الامتثال للقاعدة الأخلاقية الدينية التي تدعو الفرد لأن يحب لجاره ما يحب لنفسه، لأن هذا الجار قد ينوي إذلالك أو استغلالك أو حتى قتلك، ويعتقد ماكليلاند McClelland (1973) بأن لهذا التصور الفرويدي للإنسان وكأنه حيوان مفترس أو ذئب بالغ الأثر على علم النفس في الغرب، وبالتالي فإن هذا الرجل/الذئب المحكوم بنزعة حب السيطرة لن يتوانى عن ممارسة الاحتيال والاغتصاب والقتل لتحقيق هذه النزعة الملحة، وإن واجهته عقبات تمنعه من ذلك لجأ إلى تحويل هذه الطاقة لقنوات أو أغراض أخرى.

ويعارض علماء الأحياء التطوري evolutionary biologists الفرضية الفرويدية بأن العدوانية غريزة بشرية لأنها لا تفسر التباين الواضح في مستويات العدوانية بين المجتمعات والأفراد، ويقترحون بدلها تصوراً يجمع بين الطبيعة البشرية والتاثيرات الخارجية، وكما يبين موس وشاكلفورد Muss and Shachelford (1997) فإن السلوك البشري يشترط توفر عنصرين: آليات داخلية ومحفزات خارجية، وتتكون هذه الأليات الداخلية من خلال التطور وعملية الانتقاء الطبيعية أو الجنسية، أي أن العدوانية متوارثة في العنصر البشري، تنتقل لجيل بعد آخر من خلال الجينات، ويستدل على ذلك من كون استعداد الإنسان للقتل سمة ثابتة منذ القدم، وهي مرتبطة بكونه من المفترسين أو آكلي اللحوم، والإنسان متفرد في إقدامه على قتل بني جنسه، وهي ظاهرة نادرة الحدوث بين الأجناس الأخرى من آكلي اللحوم، وفي نفس السياق يعزو ديزموند موريس Morris (2010) في كتابه القرد العاري The Naked Ape عدوانية البشر إلى غريزة البقاء والحفاظ على النفس، والتي تولدت من حاجة أجدادنا للتصدي للتهديدات المحيطة بهم، وتقف هذه العدوانية وراء نزعتنا للسيطرة والتسلط على الغير وكذلك حرصنا على ايجاد حدود بيننا وبين الغير والدفاع عنها، وبالمحصلة فإن الفرد في نظر علماء الأحياء التطوري يستعمل العنف نتيجة وجود آلية للعنف داخله تنشط متى ما وجد محفز خارجي يدفعه لذلك.

قد يختلف المختصون حول تفسير عدوانية البشر، إن كانت غريزة متأصلة في النفس البشرية أم هي خاصية متوارثة يهيجها محفز خارجي، لكن يبدو بأن كثيرين منهم متفقون على ضرورتها لبقاء وديمومة وتطور العنصر البشري، ولو قل التصارع والتنافس فستصاب الحضارة البشرية بالجمود وربما تندثر، ويرى باتش وجولدبرج Bach and Goldberg (1974) بان العدوانية ليست فقط متأصلة في فكرنا وتكويننا بل هي ضرورية ومفيدة، ويستدلان على ذلك من أن عملية النكاح بين زوجين تكون أقل متعة مهما بلغت درجة المودة بينهما إذا لم تنطوي على درجة من العدوانية، ومن ناحية أخرى يؤدي كبت العدوانية من خلال القواعد الاجتماعية إلى تشوهات فكرية وسلوكية تشمل أعمال العنف العشوائية والأمراض الخطيرة مثل السرطان.

في تصور لورنيز Lorenz (1966) تتولى العدوانية دوراً هاماً في عملية الاختيار الطبيعي، لأنها تتيح للأصلح فقط بالتناسل وتوريث جيناته للأجيال القادمة، ولذلك يتخوف بعض

المختصين من التأثير السلبي للتحسن في الخدمات الصحية وبرامج المساعدات الاجتماعية على عملية الاختيار البايولوجي، ويحذر هؤلاء من أن هذه التطورات قد حسنت من فرص بقاء الأفراد المعوقين، وبالتالي فإن المجتمعات البشرية ستكون مثقلة في المستقبل بأعداد كبيرة من الأفراد "غير الصالحين" unfit persons، ويحث هؤلاء المختصون أصحاب القرار على اتخاذ الاجراءات الضرورية للسيطرة على الجينات البشرية وعلى التطور البايولوجي من خلال ايجاد بنوك للحيامن الذكرية المستمدة من رجال أصحاء وأقوياء لاستعمالها في تلقيح إناث لو استدعت الحاجة، مما يذكرنا باقتراح مماثل لشخصية الدكتور سترا ينجلوف في الفلم السينمائي المشهور للمخرج ستانلي كوبرك، بعد إقدام قائد عسكري أمريكي مهووس على توريط بلده بحرب نووية شاملة.

ذهبت بعض الحكومات الغربية إلى أبعد من فكرة بنوك الحيامن الذكرية بتطبيقها لمبادئ eugenics أي ما يعرف بتحسين الجنس البشري من خلال السيطرة على التوالد، حيث أقدمت الحكومة السويدية على تعقيم الأفراد المصنفين ضمن غير السليمين عقلياً أو نفسياً أو اجتماعياً، كما طبقت الحكومة الكندية اجراءات مماثلة على الكثير من السكان الأصليين.

ويرى بعض المختصين بالعلوم الاجتماعية بأن العدوانية ليست العاطفة أو النزعة البشرية الوحيدة التي تشكلت نتيجة التطور والاختيار الطبيعي، ويجادل باراش Barasch (1980) بأن حب الوالدين لأبنائهما واستعدادهما لتحمل تضحيات جسيمة من أجلهم مرتبط أيضاً بعملية نشوء وتطور الانسان، إذ أن هذا الحب في تقديره متجذر في حاجة البشر الأنانية لضمان سلامة جيناتهما أو صفاتهما الوراثية وانتقالها إلى ذريتهما والأجيال القادمة، ويشابه هذا سلوك النحل، وهي تهاجم مدفوعة بغرائزها الأعداء والمتطفلين على خليتها، وقد تضحى بحياتها في سبيل حماية الخلية وبقية النحل فيها، والذين يحملون جيناتهم.

وبنفس الطريقة فسر المختصون حالات أخرى من سلوك الإيثار، وعلى أساس قاعدة تبادل المنافع المدفوعة بنزعة الأنانية المجردة، لذا جزموا بأن الفرد لن يساعد آخر إلا إذا تأكد له بأن سلوكه سيقابل بالمثل، أو على الأقل سيزيد من احتمال حصوله على مساعدة بالمقابل لاحقاً، ففي نظرهم كل بني البشر أفراد عقلانيون، يحسبون تكاليف وفوائد أعمالهم قبل الإقدام عليها، ويقارنون بينها، وهم غير مستعدين للتعاون مع الغير إلا بعد التأكد من المعاملة بالمثل، أي الحصول على فوائد من هذا التعاون كما يجني الاخرون، والمعاملة بالمثل reciprocity شرط أساسي للتعاون في عالم الصيادين، وفي ذلك تشترك منظمة المافيا الإجرامية ومجلس الشيوخ الأمريكي، فالتعاون الوثيق بين أفراد المافيا لا يتم بدون معاملة بالمثل بينهم، ويجر المخالفون لهذا المبدأ على أنفسهم أشد الجزاءات، ونفس القاعدة للتعاون مطبقة كما لاحظ اكسلرود (1981) Axelrod بين أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، ويتضح ذلك في الاتفاقات التي يعقدونها بينهم لمقايضة الأصوات، وبموجبها يصوت عضو لمشروع قرار لا يهم ناخبيه مقابل حصوله على دعم لمشروع يتبناه لأنه يحسن من شعبيته بين ناخبيه.

ويؤكد باتيسون Bateson (2000) بأن كل تصرفات الفرد محسوبة سلفاً، فلو تبين له أن تكلفة تعاونه مع الغير أكبر من الفوائد التي يجنيها من ذلك فلن يتردد في وقف تعاونه معهم والتحول إلى طفيلي أو free rider. وهكذا توصل داوكينز Dawkins (1989) إلى أن كل سلوكيات الإيثار مدفوعة بنزعة الأنانية لا سواها، وبالنتيجة فإن الاعتقاد بوجود عواطف حب ومودة خالصة ومجردة من الأنانية وهم واختلاق.

في عالمنا الذي يهيمن عليه الصياد ويفرض علينا قواعده وقوانينه يرى كارل يونج (1977) Carl Jung بأن لا خيار أمام الضعفاء أو المستضعفين سوى المحافظة على وضعية الدفاع عن النفس على الدوام، وينبغي على هؤلاء المستضعفين وقليلي الحول والقوة ممارسة التقية واخفاء حقيقة ذواتهم ولبس الأقنعة واصطناع مجموعة من الأفكار والسلوكيات الظاهرية لتفادي استياء ونقمة الأقوياء المتحكمين بالعالم من حولهم، وهكذا يصبح معظمنا، نحن المستضعفون، ممثلين ويغدو العالم كله خشبة مسرح، نؤدي أدوارنا المختلفة عليها.

في هذا النموذج للإنسان المبني على الأنانية والعدوانية والعقلانية لا يوجد مكان أو وظيفة للروح أو العواطف الإنسانية الحقيقية، ويسمي المفكر اليساري هربرت ماركوس (1964) Herbert Marcuse هذا النموذج بـ"الإنسان ذي البعد الواحد" one-dimensional man، ومن أبرز خصائصه تجرده من كل القيم مثل المسئولية والاكتراث لأحوال غيره والمودة، والتي يعتبرها هذا الإنسان تراثاً بالياً، من مخلفات مجتمع ما قبل الثورة الصناعية، ولا يناسب مجتمعه المعاصر.

التعاون حقيقة، وشرط ضروري لبقاء الحياة البشرية واستمرارها، ولكن هل حصول التعاون مشروط بقيم الصياد الأنانية والنفعية؟ خلص الباحثان جونسون وبيرنك Johnson and Bering (2006) إلى أن النتائج المتوفرة من دراسة ظاهرة التعاون بين البشر غير كافية لتفسير كافة أنواع التعاون، وبالذات حالات التعاون بين غرباء من دون توقع معاملة بالمثل أو أي منفعة مباشرة أو غير مباشرة، وتوصلا إلى وجود أدلة ميدانية وعقلانية على أن هؤلاء الأفراد المتعاونين متأثرون بعقائدهم الدينية المشجعة على التعاون، كما تشير نتائج بحوث حديثة جرت في جامعة نيويورك إلى احتمال أن تكون الثقة بالأخرين ليست مجرد سمة يكتسبها ويطبقها بعض الناس، بل هي سجية متأصلة في عقول البشر، وهم يثقون بالغير ويتعاونون معهم حتى لو تأكد لهم بأن هؤلاء الغير يستغلونهم، ودفعت هذه النتائج الباحثين إلى الاستنتاج بأن البشر مصممون ومبرمجون بالفطرة للتعاون.

هل يتفوق الصياد الأناني على المزارع المتعاون حتى في مجال العلاقات الاجتماعية من صداقة وزواج وغيرها؟ سنحاول الإجابة على هذا السؤال في الفصل التالي.



الفصل الرابع
العلاقات الاجتماعية للصياد والمزارع

الإنسان اجتماعي بالفطرة والتطبع، وله حاجات اجتماعية، تتمثل بتكوين وتوطيد علاقات اجتماعية مع أفراد في مجتمعه، ولا مناص من اشباع هذه الحاجات، ومعظمنا مولودون ضمن عائلة، وتكون لنا تلقائياً روابط اجتماعية مع أفرادها، وفي هذا يستوي الجميع، سواء كنا نميل إلى شخصية الصياد أو المزارع، ومنذ نعومة أضفارنا ندرك بأننا نرتبط بآبائنا وأخوتنا وأقاربنا، وبعد أن نكبر ستكون لنا علاقات اجتماعية أكثر عدداً ومجالاً وتنوعاً، تشمل أزواجنا وأولادنا وأصدقائنا وجيراننا وزملائنا في العمل وغيرهم، وتتميز العديد من هذه العلاقات المتكونة في مراحل لاحقة من حياتنا بكونها طوعية، ولا تنبثق من روابطنا العائلية المتوارثة، كما أنها تتفاوت في متانتها ومداها الزمني من علاقات الزوجية الحميمة والمديدة إلى اللقاءات العابرة التي تجمع بين غرباء يسافرون سوية.

من البديهي أن العلاقات الاجتماعية هامة وضرورية لرضا وسعادة الأفراد ولبقاء المجتمعات أيضاً، مما يجعل من تكوين علاقات اجتماعية ناجحة ومرضية أمراً في غاية الأهمية للصياد والمزارع على حد سواء، إلا أن تحقيق ذلك ليس بالهين، إذ تتفاوت النزعة الاجتماعية بين الأفراد، كما توجد عوامل مؤثرة خارجية تعكر صفو العلاقات الاجتاعية وتضعف الروابط بين الجماعات وحتى داخل العائلة الواحدة، لذلك تزخر أرفف المكتبات اليوم بالمؤلفات الهادفة لتعليم القراء كيفية بناء علاقات اجتماعية سليمة وناجحة وارشادهم إلى أفضل الطرق لاختيار أصدقائهم وشركاء حياتهم، ويمكن الوصول إلى فهم أفضل للعلاقات الاجتماعية وكيفية معالجة مشاكلها من خلال تبني المنهج المقترح في هذا الكتاب.

نظرة عامة على العلاقات الاجتماعية

توجد ثلاثة احتمالات للعلاقة بين فردين: أن لا تكون بينهما أي صلة، أي أن يكونا غريبين تماماً، أو تكون العلاقة بينهما ودية، أو أن تكون بينهما فرقة وعداوة، ولو أردنا تخصيص قيماً رقمية لهذه الحالات، فسيكون لأول حالة قيمة صفر، وللثانية قيمة إيجابية، وللثالثة قيمة سالبة، ففي حالة انعدام العلاقة لا توجد نتائج أو انجازات، أما العلاقات الودية فلها قيمة ايجابية لأن تكوينها وديمومتها تتطلبان جهداً تعاونياً مثمراً، ولها فوائد عديدة، مادية ومعنوية، وقد تتعدى طرفي أو أطراف العلاقة، وفي حالة العداء أو التنافر والتي يكون فيها طرفان أو أكثر متضادان ومتعاديان تضيع الطاقات والجهود في الصراع، وتكون النتائج سلبية وربما وخيمة، وحتى لو حفز التنافر والعداء أحد الطرفين أو كليهما على الابداع فإن أي نتائج إيجابية ناجمة عن ذلك لن تمحي أو تعوض خسائرهما، وأدق مثال على ذلك الحروب، والتي لو نظرنا لها بتجرد وحيادية لاستنتجنا بأنها عملية خاسرة للطرفين، لا يحصدان منها سوى الضحايا البشرية والخسائر المادية، ولو انتهت بانتصار أحد الطرفين، فالتعويضات التي يحصل عليها هي الموارد المتبقية للطرف الخاسر.

تتضح أهمية الانتماء للجماعة والعلاقات الاجتماعية من اعتبار الطرد أو النفي من الجماعة واحدة من أشد العقوبات في المجتمعات التقليدية، وهي العقوبة التي أوقعها الله على قابيل جزاء قتل أخاه هابيل، كما تخبرنا التوراة، ويصف قابيل حرمانه من الاتصال بالآخرين وتكوين علاقات معهم بأنها عقوبة لا تطاق، وفي عصر الجاهلية سُمّي القبليون المطرودون من قبائلهم بالصعاليك، وبسبب حرمانهم من الحماية والعلاقات الاجتماعية التي كانت توفرها لهم قبائلهم كونوا جماعات خاصة بهم، وامتهنوا السلب والإغارة على القبائل لتحصيل معاشهم، وبعد ابتعاد

قبيلته عنه وصف الشاعر طرفة بن العبد حاله بالبعير الأجرب المنبوذ، وحتى وقت قريب كانت القبائل العراقية ذات الأصول البدوية تطرد من ديارها وحماها المخالفين لأعرافها وسننها القبلي.

وقبل أن يدرس ويحلل علماء الاجتماع والنفس حاجة الفرد للعيش ضمن جماعة وتكوين علاقات اجتماعية وضع الفلاسفة النظريات لشرح وتفسير هذه النزعة، وقد لاحظ هؤلاء المفكرون بأن بناء الحضارات والتطور نتاج المجتمعات البشرية، وحيث لا يوجد مجتمع لا توجد حضارة وتقدم، فالحضارة تتطلب نشاطاً منظماً تشارك فيه جماعات من البشر ضمن علاقات مستقرة، وقد جادل بعض الفلاسفة بأنه لو خير الإنسان افتراضاً بين استقلالية وحرية الحياة في الطبيعة وبين الانضباط والنظام والأمن والثبات والحريات المحدودة في المجتمع فسيختار حتماً الحياة الاجتماعية، ووصفوا الحياة خارج المجتمعات ومن دون سلطات منظمة بأنها موحشة وغير آمنة، وكل التراكيب الاجتماعية، سواء كانت قبيلة أو دويلة قديمة أم دولة حديثة، هي شبكات من العلاقات المنظمة بين أفراد وجماعات والمسيرة بأعراف أو قوانين.

والخلاصة هي أن الإنسان، سواء كان صياداً أم مزارعاً، لا يستطيع العيش لوحده مثل جزيرة في محيط، فكلنا بحاجة إلى العيش في مجتمعات وتكوين علاقات اجتماعية، والعلاقة الاجتماعية هي رابطة بين أفراد لهم أهداف أو اهتمامات أو سمات مشتركة، وهؤلاء الأفراد يتعاملون ويسلكون مع بعضهم البعض بطريقة مختلفة عن نظرتهم وسلوكهم مع الغرباء، وعلى أقل تقدير تكون العلاقات بينهم أكثر تكراراً وعمقاً.

درس علماء الاجتماع شدة حاجتنا أو نزعتنا الاجتماعية وتأثيراتها على الاتجاهات والسلوك، ومن هؤلاء ابراهام ماسلو(1943) Maslow الذي اقترح ترتيباً للحاجات البشرية، على شكل هيكل هرمي، تتكون قاعدته من الحاجات الأساسية التي لها الترتيب الأول في الأهمية والتأثير على الفكر والسلوك، وتشمل الحاجات الطبيعية أو البيولوجية مثل الحاجة للغذاء، ويرى ماسلو بأن الحاجات الاجتماعية تأتي في الترتيب الثالث للأهمية بعد الحاجات البيولوجية الأساسية والأمن، ونحن بحاجة إلى الحياة الاجتماعية لتلبية حتى حاجاتنا الأساسية للغذاء والمسكن والتكاثر.

ومن البديهي أن المصالح المشتركة والعواطف الإيجابية - لا تضارب المصالح والحقد والنفور - تجتذب الأفراد لبعضهم البعض، وتؤلف بينهم، وتدفعهم إلى تكوين علاقات اجتماعية، فالصداقة توحي بوجود تفاهم ومشاعر ود مشتركة واهتمام متبادل بين فردين، كما أن الدليل الحقيقي على العلاقة الزوجية الناجحة ليس في وثيقة الزواج الشرعية أو القانونية فقط بل العواطف الإيجابية المتبادلة والتعاون بين الزوجين، وعلى الرغم من المثل الإنجليزي القائل بأن المعرفة الوثيقة تولد أحياناً الازدراء يتوقع أن تؤدي المشاعر الإيجابية من قبل أحد طرفي العلاقة إلى صدور وتقوية مشاعر مماثلة بالمقابل من الطرف الآخر، لذا فإن حداً أدنى من التبادلية مطلوب لديمومة ونجاح العلاقة بحيث يأخذ في الاعتبار الطرفان احتياجات ومصالح كل منهما، ويحاولا جاهدين تحقيقها، وبما أن قيم وطريقة حياة الصياد والمزارع مختلفة فمن المتوقع تباين توقعاتهما من العلاقات الاجتماعية .

العلاقات الاجتماعية ضرورية أيضاً لنمو الأفراد البيولوجي وصحتهم العقلية والنفسية، ولو حرم طفل من العلاقات الاجتماعية في طفولته لما استطاع تطوير مهاراته في الاتصال بالآخرين واستكمال نمو وظائفه العقلية والفكرية، وعلى الأغلب سيكبر من دون هوية اجتماعية محددة، وهو أشبه بشخصية طرزان التي اختلقها الكاتب رايس بوروز في حيرته بين هويته الإنسانية وطبائع القرود التي ربته، ونجد نفس الحيرة والتذبذب بين الحيوانية والبشرية في شخصية ماوجلي في كتاب الأدغال لروديارد كيبلنغ، الذي يأكل ويعوي مثل الذئبين الذين تبنياه، لكنه يختلف عن صغارهما من الذئاب، ووجد فريق من الباحثين بأن احتمال وفاة الأفراد الذين يعانون من العزلة يزيد مرة ونصف تقريباً عن أولئك الذين يعانون من البدانة (Lunstad, Smith and Wilson, 2010).

هل الصياد لا اجتماعي؟

في عالمنا المحكوم بالصياد وقيمه وفكره أصبح نشوء العلاقات الاجتماعية السوية والحفاظ عليها من التفكك أمراً صعباً، ولو نظرنا حولنا لوجدنا بأن معظم الأفراد الذين نراهم ونلتقي بهم في العمل والأسواق والطرق العامة هم أغراب أو مجرد معارف، كما أن الكثير منا لا يريد تغيير هذا الوضع، مفضلاً النأي بنفسه عن الآخرين، وأبسط الأدلة على ذلك ما نلاحظه يومياً في القطارات والحافلات العامة، حيث يلف الجميع، إلا ما ندر، صمت موحش، ويخفي الرجال والنساء كياناتهم الانفرادية وراء صحف ومجلات وكتب، أو يبدون عزوفهم عن تبادل الأحاديث مع رفاق سفرهم بالاستماع للموسيقى والأغاني من أجهزة تسجيل محمولة أو العمل على آلات حاسب نقالة، وهم اليوم أكثر انشغالا بإرسال الرسائل النصية على هواتفهم المنقولة من أي شيء آخر، وقد وصف إعلان يروج لإحدى الأدوات الإلكترونية المنتجة مؤخراً بأنها " أحدث التقنيات اللااجتماعية"، أضف إلى ذلك كله فقد أدى التمسك بالخصوصية الفردية واهتمامنا الطاغي بالحفاظ عليها إلى إقامة حواجز شاهقة بيننا وبين جيراننا، واصبح معظمهم من الأغراب أو شبه الأغراب.

وضعت المصلحة الذاتية والعقلانية والتنافس قيوداً على استعداد ورغبة الفرد في إنشاء وإدامة علاقات اجتماعية، بخلاف تلك التي تخدم مصالحه الشخصية، وغزت هذه النزعة المصلحية العائلة والروابط العائلية في عقر دارها، وسواء داخل العائلة أم خارجها يضحى بالعلاقات الحميمة على مذبح الفردية والعقلانية، ووجد لونج وبريك
(Long and Brecke (2003 بأن اندفاع الفرد المحموم وراء مصالحه الأنانية مضر بالروابط في المؤسسات الاجتماعية، وبفعل هذا الانكفاء على الذات والمصالح الأنانية ضعفت روابط الصداقة، وغدا تكوين علاقات الصداقة صعباً، ويقدر
أدموندسن (Edmondson (2010 نسبة الأمريكيين الذين يعانون من عزلة شديدة أو متكررة بثلاثين بالمائة من مجموع السكان.

ومن المفجع أيضاً تزعزع الروابط الأسرية، والشاهد على ذلك التصاعد المقلق لمعدلات الطلاق والافتراق وضحايا العنف الأسري من الزوجات والأطفال، وقد وصف ريخ Reich (1970) الولايات المتحدة الأمريكية، التي تتربع على قمة سلم التطور التقني والاقتصادي حالياً، بأنها " مضادة للجماعة" بعد أن غدت فيها الروابط العائلية والصداقات زائفة ومصطنعة، وهذا الوصف لا ينطبق فقط على مجتمعات القرن العشرين أو الواحد والعشرين كما يتبين من وصف ميشيليه لمجتمع القرن التاسع عشر (Michelet (1846:99 :

> توجد انعزالية متوحشة حتى في التعاون نفسه لأنه اتصال عقيم بدون إرادة أو دفء، والحرارة فيه صادرة عن الاحتكاك، والحصيلة ليست عدم الاكتراث كما قد يظن البعض بل التنافر والكراهية، وهذا الوضع ليس هو من خارج المجتمع بل على العكس إنه حالة خلقها المجتمع نفسه ليكون لااجتماعياً.

وينطبق هذا الوصف تماماً على الحالة الاجتماعية في مجتمعاتنا، وما تتسم به من تناقضات ناتجة عن هيمنة قيم وأسلوب حياة الصياد.

يشكل السعي الدؤوب للصياد وراء القوة والممتلكات والمكانة وقيم النفعية الإطار لعلاقاته مع مجتمعه، ويدرك الصياد جيداً أهمية المجتمع لبقائه وتحقيق مصالحه ورفاهيته، لذا ومن منطلق أناني يحرص على ديمومة وتطور المجتمع، والأفضل من ذلك، من وجهة نظره المصلحية أن ينشغل غيره بخدمة الصالح العام ليتفرغ هو لطلب منفعته الذاتية، وفي العديد من الحالات قد لا يتوانى الصياد، مدفوعاً بأنانية المفرطة، عن التضحية بالآخرين ومصالحهم في سبيل بلوغ

مصلحته الذاتية، كما يشهد على ذلك سجل الحكام المتسلطين وعتاة المجرمين عبر التاريخ، وهذا الاستعداد صفة مشتركة بين الإمبراطور الروماني نيرو وهتلر وتجار المخدرات، والصياد بشكل عام مستعد للعمل والتعاون مع الآخرين ما دام ذلك يحقق له بعض من احتياجاته، ولنفس الدوافع قد نجده متطوعاً بوقته وجهده لعمل خيري أو نشاط صالح للنفع العام، فلا يغرنك لو انضم إلى حزب سياسي متشدقاً بالحديث عن خدمة المجتمع، أو شارك بحماس منقطع النظير في نشاط لمنظمة أو جماعة لحماية البيئة، أو واظب على حضور اجتماعات أولياء أمور الطلاب في مدرسة أولاده، فهو في كل الأوقات والمحافل يلهث وراء القوة والنفوذ والوجاهة، ولو شعر بأن أي من هذه الأنشطة لا تحقق له ذلك فسيتخلى عنها في طرفة عين غير أسف على ذلك.

وكما أسلفنا فإن علاقات الصياد الاجتماعية محكومة بنزعته للتنافس والأنانية، كما أن اقتناعه الراسخ بأن الجميع صنوه في الأنانية تبرر له قيمه ونمط حياته، وإيمانه بالمثل القائل بأنك إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب (أي البشر الآخرين) يضفي شرعية على منهج حياته اللاأخلاقي أحياناً، ويخلي نفسه من وزر تصرفاته، ويزيح الذنب واللوم من كاهله، ويرميه على "الذئاب الآخرين" ونظامهم الاجتماعي، وكما يلاحظ اغناتيف Ignatief (1984): عندما يجابه الناس بعضهم البعض، فمن المحتم أن يتصرف الإنسان مثل الذئاب، ولأنه تربى على طريقة حياة وقيم الصياد لا يتردد في التعامل معهم كما لو كانوا قطيع ماشية أو أرضاً زراعية يمتلكها، وهمه الأول والأخير جني الفوائد والأرباح منها، ولأنه ينطلق في نظرته وتعامله مع الآخرين من زاوية شخصيته ودوافعها يميل إلى التشكيك بنوايا الناس وعدم الثقة بهم، ويدفعه ذلك إلى التوجس والاحتراس منهم حفاظاً على حياته وممتلكاته من طمعهم وشرورهم، فلا غرابة لو اقتنى سلاحاً أو كلب حراسة أو تدرب على مهارات القتال أو زود منزله بنظام إنذار مثلما يفعل الملايين في أمريكا وبلدان عديدة، وكل هذه الاحتراس تعمق ريبته تجاه بقية البشر، وتقيم حواجزاً شاهقة بينه وبينهم.

يعيق التشكيك بنوايا الغير وعدم الثقة بهم استعداد الصياد لبناء ومواصلة علاقات اجتماعية سوية وكاملة، وتحرضه طبيعته الظنونة لافتراض أسوء النوايا في الجميع، وحتى أولئك الذين يتفضلون عليه ويحسنون عليه بدون توقع الشكر أو الصاع بالصاع، وهو في ذلك ينطبق عليه قول الشاعر: وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا، وهو في الواقع ليس متمرداً، ولكنه قد يكون لئيماً، لأنه أناني، وما يحصل عليه من إحسان وفضل هو بمثابة أرباح غير منظورة، ومن المؤكد بأنه لن يتكرم بالمثل إلا طمعاً بالمزيد، والمحسن، في رأيه، إن لم يكن أحمقاً فهو أما يبحث عن المكافأة في الدنيا الآخرة أو المكانة الاجتماعية، لأنه يعتقد بأن البشر كلهم ذئاب، سواء ابتسموا لك أو كشروا عن أنيابهم، وهم وإن تفاوتت مهاراتهم في الصيد ومعرفة من أين تؤكل الكتف فكل واحد منهم يبحث عن صيد، حتى عمرو بن عبيد، خلافاً للقول القديم، وحتى من يلبس منهم ثياب الحملان هو ذئب ماكر متخف، له أغراض أنانية خفية، لذا يقابل الخدمة أو المساعدة التي لا يدفع ثمنها بعبارة: أنا مدين لك، وهذه الجملة بحد ذاتها نامة عن اقتناعه بأن لا عطاء في هذه الدنيا دون انتظار رد الجميل، والذي يقدم له الخدمة يتوقع منه ذلك، حتى لو لم يبين ذلك بصريح العبارة، وتصبح الخدمة أو الإحسان بالتالي ديناً عليه الوفاء به أو بمثله أو ما يوازيه غب الطلب، وتكون العلاقة بينهما مصلحية بحتة.

"لن أكون إنساناً طيباً بعد اليوم" عنوان كتاب رائع لروبرت جلوفر Glover (2001)، ويرمي الكتاب إلى إبطال الاعتقاد المنتشر بأن الفرد الذي يتعامل بالحسنى يعيش حياة طيبة، ويحصل على مبتغاه من الآخرين، إذ يرى مؤلف الكتاب بأن ذلك لا يحدث عادة، ولا ينتج منه سوى شعور الفرد بالخيبة والحسرة والغضب، ويدفعه في النهاية إلى التخلي عن التعامل الحسن، ومن الواضح في منظورنا بأن من ينطبق عليه هذا الوصف ليس طيب السريرة في الأصل، بل هو صياد يعتبر التعامل الحسن وسيلة لبلوغ مآربه الأنانية، فإن فشلت نبذها، وعاد إلى سيرته الأولى وأسلوب تعامله النفعي التبادلي المعتاد.

يفضل الصياد التحصيل والتكنيز على العطاء والبذل، والإحسان لوجه الله أو حباً بالناس في قاموسه وناموسه وهم وخداع للنفس، أو هو ببساطة فعل أحمق، فإن شهدت منه كرماً فائقاً في مجتمع تقليدي فافترض بأن دافعه هو التفوق على الآخرين في الكرم، حتى يقال عنه أكرم الناس، وترتفع مكانته الاجتماعية بينهم، ويحصد مقابلها النفوذ والمزيد من المصالح، وقد بين حاتم الطائي المعروف بكرمه بين العرب ذلك عندما عاتبته ابنته على إسرافه في الكرم فأنشد:

يقولون لي: أهلكت مالك فاقتصد — وما كنت، لولا ما يقولون سيداً

فالكرم عند من يضرب العرب به المثل في ذلك لم يكن من أجل الكرم أو بفعل التمسك بمحاسن الأخلاق وإنما طلباً للسيادة والسيطرة على قومه، وقد يتكرم صياد في مجتمع تقليدي بالقليل من ماله أو طعامه درءً للحسد، وهو مدفوع أيضاً بمصلحة ذاتية، وربما يتبرع صياد في مجتمع متقدم بالملايين أو المليارات طمعاً بالترشيح والفوز بمنصب مرموق، هو بالتالي لا يختلف عن حاتم الطائي، أو لاكتساب سمعة عطرة ترتقي بمكانته الاجتماعية، أو لمجرد رؤية اسمه منقوشاً بالخط العريض وبحروف مذهبة على واجهة مبنى في مؤسسة تعليمية أو مكتبة عامة أو ردهة في مستشفى، ناهيك عن أن التبرعات للمؤسسات الخيرية محسومة من الضرائب على الدخل التي يدفعها المحسن، والجدير بالملاحظة أن أغلب هذه التبرعات لا تقدم من مجهول، بل عادة ما تمهد لها أو ترافقها حملة إعلامية واسعة، تغدق فيها على المتبرع أعظم وأبهى الصفات، ويكال له فيها المديح والإطراء، والكل في نظر الصياد مثله، وسواء تكرموا أم بخلوا يحسبون دائماً عوائدهم قبل اتخاذ أي قرار أو الإقدام على أي عمل، بما في ذلك الإحسان والكرم، ويؤكد نيلسون وجرين Nelson and Greene(2003) بأن أحد دوافع الأعمال الخيرية السعي وراء السمعة الطيبة.

تولد الأنانية والتنافس في نفس الصياد مشاعر الحسد والغيرة والشك، وهو في كل الأحوال مقتنع بأن الجميع مسيرون بنزعة الجشع ومستعدون لبذل الغالي والرخيص واقتراف أبشع الأفعال بما فيها الغش والخداع وحتى القتل في سبيل بلوغ مصالحهم، لذا نراه حريصاً أشد الحرص على حماية نفسه ومصالحه من أطماع الحاسدين، وبنفس الوقت يحسد غيره على الكثير أو القليل مما أوتي من رزق، ويعتبر الحسد في بعض المجتمعات التقليدية عاطفة قوية ذات تأثيرات غامضة أو حتى غيبية، وقد يعزوا الأفراد التقليديون بعض الحالات المرضية، التي يصعب علاجها ويطول أمدها مثل الأمراض العصبية والنفسية إلى وقوع المريض ضحية للحسد أو العين الحاسدة، مما يجعلهم يهرعون إلى أقرب كاهن أو مشعوذ لتخليصهم من تأثيرات الحسد من خلال القرابين والصلوات أو السحر.

الصياد والصديق وقت الضيق

لا يتفق الصياد مع رأي أرسطو الذي يشترط وجود الأصدقاء المخلصين لبلوغ السعادة، بل قد يكون أقل استعداداً لتكوين صداقات من بعض قرود الشمبانزي، الذي لاحظ علماء الأحياء تكرمهم بالطعام على بعضهم البعض طلباً لإنشاء روابط طويلة الأمد بينهم، ومن المؤكد بأن الصداقة الوثيقة تتطلب درجة عالية نسبياً من القرب والثقة والانفتاح والمصارحة بين الأصدقاء، وتتعارض هذه المتطلبات مع طبيعة الصياد التي تميل إلى الفردية والشك بنوايا الغير، مما يجعله أقل تأهيلاً لتكوين صداقات حقيقية، ولا ننسى بأن الصياد يعتبر الثقة والانفتاح على الآخرين في عالم محكوم بالتنافس والتصارع سذاجة، تعرضه للابتزاز والاستغلال وسوء المعاملة من قبل الآخرين الذين لا يؤمن جانبهم ولن يتورعوا عن خيانته، وحتى الصياد الذي يعاني من الوحدة لن يقر بحاجته إلى أصدقاء لأن ذلك ينتقص من الصورة التي يريد بثها عن نفسه كفرد قوي، مستقل، وغني عن العالمين، وقد يلجأ إلى التظاهر بعدم الاكتراث بالآخرين ويتكبر عليهم، وينأى بنفسه عنهم، كما يلاحظ جرينوالد في Greenwald (1973) في سلوك البعض، ولهذه الأسباب فإنه يفضل صداقات عابرة، قوامها المصلحة المتبادلة، ولا تنطوي على مشاعر حقيقية وصادقة،

وهي أشبه بذلك النوع من الصداقات التي كتب عنها ديل كارنيجي في كتابه المشهور: كيف تكسب الصداقات وتؤثر على الناس، ويظهر الصياد على حقيقته عندما تحتاجه في ضيق، فهو لا ينطبق عليه المثل القائل: الصديق عند الضيق، بل على الأغلب سيتخلى عنك لأنك إن كنت في ضيق فأنت بلا حول ولا قوة، وقد لا تتمكن من رد الجميل له.

مودة الصياد

المودة أو المحبة في قاموس الصياد مصطلح غامض مبهم، أو مطلق مثل الجمال، ليس له تعريف عملي، أو هو مجرد مرادف مهذب للرغبة الجنسية، ويعتبر بعض الصيادين الشباب الوقوع في الحب سلوكاً مغايراً لسمات وممارسات الرجولة، وقد يعرضهم للسخرية من قبل أقرانهم، وفي المجتمعات التقليدية يعزون وقوع الرجل في الغرام إلى تأثير السحر، وقد يتهمون محبوبته بممارسة السحر عليه، وذلك بالاستعانة بتميمة أعدها ساحر، فيستعينون بدورهم بمشعوذين لإبطال السحر، ومن الجدير بالاهتمام أن كلمة مسحور باللغة الإنكليزية مرادفة للوقوع في الحب.

صنف بعض الباحثين (مثل Hendrick and Hendrick 1986) علاقات الحب بين الجنسين إلى ستة أنواع: الشهواني، اللعوب، البراغماتي، الراسخ، المذهل، والمهووس، فالشهواني يركز على كيمياء العلاقة بين الرجل والمرأة والشهوة والجنس والجمال، وهو يعمل بقاعدة: صاحبهن ثم اتركهن، واللعوب يرى العلاقة لعبة يؤديها مع أفراد مختلفين، فهو ينتقل من علاقة إلى أخرى، معتبراً كل واحدة منها نصراً يتفاخر به، والبراغماتي عملي ويختار ما ينفعه لذلك يأخذ في الاعتبار ما يملكه الطرف الآخر من موارد أو مكانة اجتماعية ومساهمته المتوقعة في دفع مساره المهني نحو الأمام، أما الحب الراسخ فهو كما يدل اسمه مستمر وقد يبدأ بالصداقة ثم يتطور إلى حب وزواج، والمهووس هو الحب التملكي الذي قد يمرض المحب فيها إذا بعدت الحبيبة عنه أو لم ترضى عنه، والحب المذهل أو الغرام هو ذلك النوع الخالي من الأنانية والحسابات المصلحية، والذي يكون طرفي العلاقة مستعدين لفعل كل شيء من أجل ديمومتها.

في مسرحية كانديدا لجورج برنارد شو تعرف شخصية مارشبانك الناس الأشرار بأنهم: " أناس من دون حب وبالتالي فهم بدون حياء"، كما توجد أوجه للشبه بين الصياد وشخصية دوريان جري الموصوفة في رواية صورة دوريان جري للروائي أوسكار وايلد في نرجسيته وحبه للذات، وعلى العكس من شخصية أنتوني في مسرحية شكسبير أنتوني وكليوباترا يقدم الصياد نزعة الكبرياء الأنانية على عاطفة الحب السامية، ويرى أريك فروم Fromm (1947) بأن الأنانية قد تمحو قدرة الإنسان على محبة الآخرين، والمجتمع الذي يؤمن بقيم الصياد يشجعه على ذلك بفعل تركيزه على النجاح والمكانة والثروة، وتحول طبيعة الصياد الأنانية بينه وبين إدراك أهمية الحب المجرد من المصالح، والذي قد يدفع بالمرء المحب إلى التضحية براحته ومصالحه الشخصية في سبيل المحبوب، والمكان المناسب للحب الحقيقي في دنيا الصياد هو الأساطير وروايات الغرام، ودون كيهوت هو آخر الشخصيات الرومانسية في الأدب الغربي الكلاسيكي، وهو بطل رواية سرفانتس التي تحمل نفس الاسم، ومن كثرة إعجابه بعصر الرومانسية وقيم البطولة والشهامة ونصرة المستضعفين أراد أن يكون فارساً نبيلاً على طراز فرسان العصور الغابرة في محاولة يائسة وبائسة لإحياء ذلك العصر وقيمه، لكنه اصطدم بمرارة الواقع اللارومانسي، فلم يجد سلوى إلا في الكتب والخيال والأوهام.

إن إعجاب الصياد بالبطولة والعظمة تعبير عن نرجسيته، فالبطل هنا صورة مثالية تتمثل فيها كل أو معظم الصفات المرغوبة لديه، والتي يطمح الصياد لاكتسابها، وبالتالي فعندما يبوح بحبه وإعجابه الشديد بهذه الشخصية يعبر عن حبه لنفسه بصورتها المثالية.

يبدو الصياد مستغنياً عن عاطفة الحب النبيلة ومستهيناً بفائدتها وأهميتها نتيجة أنانيته وفرديته، لكنه من ناحية أخرى لن يتورع عن استغلالها لبلوغ مآربه، فإذا صرح بحبه لأحد فعلى

الأغلب هنالك مصلحة شخصية يأمل بتحقيقها من وراء ذلك، وتظاهره بمحبة أو مودة شخص أكثر قوة منه قد يكون مدفوعاً بطموحه إلى الحصول على رعايته والاستفادة من نفوذه في تحسين مكانته واكتساب منافع جديدة، وقد يكتفي من هذه الرابطة بالتباهي بها أمام أقرانه، وهو أقدر من المزارع على تمثيل دور المحب، لكن عواطفه زائفة وغير صادقة، وبالتالي فهي مخادعة واستغلالية، ولأن من الصعب اكتشاف خدعته، أو لأن الكثيرين بحاجة إلى الأصدقاء والأحبة فقد يسقطون في شباكه، سواء لم يدركوا حقيقة دوافعه أو تعاموا عن زيف عواطفه واستغلاليته.

الصياد والمرأة

يعتبر الصياد المرأة شريكته في الخلق، ولكنها بنظره شريكة من الدرجة الثانية، لأنها ضعيفة ويضطرها ذلك غالباً إلى الاعتماد على الرجل، ولأنه يحترم الأقوياء ويستهين بالضعفاء أو حتى يحتقرهم ويتعالى عليهم فإن نظرته ومعاملته للمرأة غير سوية، ويشمل ذلك كل النساء، القريبات والأغراب، لذا فمن المحتمل أن تكون علاقاته بالنساء في عائلته ضعيفة أو مشوهة، وقد يكون سبب ذلك هو أنهن صيادات مثله، وبالتأكيد ستكون علاقته بوالدته صعبة لو كانت صيادة ذات عواطف أمومة شحيحة وباردة، مما سينعكس سلباً على علاقته بها، لذلك لن نستغرب لو تقاعس في البر بأمه، ولو اهتمت به كما هو متوقع من الأمهات الصالحات فقد يشكك بصدق عواطف أمومتها، ويعتبرها مجرد محاولة للتلاعب بعواطفه manipulative والسيطرة عليه، وهو بالتأكيد يرفض أن يكون ابنها المدلل، ويطلق هذا المصطلح في المجتمعات الغربية على الأولاد الذين تربطهم بأمهاتهم علاقات وثيقة، وهؤلاء يتعرضون للسخرية والاتهام بالتخنث من قبل أقرانهم.

عندما تشتكي النساء من نظرة بعض الرجال المهينة لبنات جنسهن وكأنهن سلعة أو "موضع شهوة جنسية" فالمشتكى منهم هنا هم الصيادون، ولنتذكر أن القيمة " الاقتصادية" المقدرة لتجارة الجنس في أمريكا عند بداية هذا القرن هي سبعة مليارات دولار، وغالباً ما يعتبر الصياد المرأة من غير قريباته مجرد سلعة يحصل عليها بماله أو قوته، أو وسيلة يتوصل من خلالها أو بمساعدتها لبلوغ أهدافه الفردية، لذلك فمن الطبيعي في عرف الصياد أن المرأة المرغوبة لجمالها وحسبها ونفوذ عائلتها ومكانتها الاجتماعية تكون من نصيب الأقوياء الأثرياء وأصحاب المصالح والمشاهير الذين يسكنون في قصور ويقتنون أغلى السيارات، ويرتادون المطاعم الغالية والنوادي الخاصة، وهم بالطبع قادرون على اجتذاب النساء المرغوبات بما يغدقونه عليهن من هدايا ثمينة من المجوهرات والملابس الفاخرة والنقود، ومن المحزن أن الكثير من النساء يقبلن بهذه المعاملة، ويتصرفن وفقاً لهذه الصورة المهينة لإنسانيتهن وكرامتهن، فالمرأة قد تكون صيادة هي الأخرى، والطعم الذي تصطاد به الرجل المناسب هو جمالها وكذلك عواطفها الزائفة أو السطحية التي تموه بها دوافعها الحقيقية، وتتظاهر أمام الغير أو حتى تخادع نفسها بأنها لا تسعى وراء رجل من أجل ماله أو مكانته الاجتماعية أو ثروته وإنما لمحبتها له، ولا تختلف المرأة الصيادة في الجوهر عن الرجل الصياد في تركيزها على القوة والمصلحة الذاتية التي تجنيها من علاقاتها بالرجال أكثر من الرضا العاطفي والاجتماعي، وبسبب ضعف الدافع لديها لإقامة علاقات عاطفية متينة وإلتزامات بالإخلاص طويلة الأمد تفضل وتسعى خلف علاقات عابرة.

توجد أدلة وامثلة عديدة ومن مجتمعات مختلفة على معاملة الرجل الصياد للمرأة باعتبارها سلعة وجسد بدون روح وأحاسيس، ففي الصين نجد عادة ربط أقدام الفتيات، لأن في عرفهم صغر أقدام النساء صفة جمالية محببة، وموروست هذه العادة لقرون عديدة، ولم تبطل وتنتهي إلا منذ زمن قريب، وهو تقليد قاس، يعرض المرأة للتعذيب والتشويه الجسدي المتعمد ولفترة طويلة، لا لشيء سوى إرضاء نزوات الرجل والتقيد بمعاييره الجمالية، وحتى في البلدان التي شرعت قوانين وأنظمة لحماية حقوق المرأة الاجتماعية والسياسية ما زالت بنات حواء يتعرضن

للإجحاف في المعاملة، ووفقاً لرايت Wright (1994) فإن تسعينات القرن الماضي سجلت حالات من الاضطهاد والإساءة للمرأة أكثر مما شهدته السبعينات.

يشجع على استمرار اضطهاد المرأة والتمييز في معاملتها افتراض خاطئ بأنها، باستثناء بعض الحالات، لا تتصف بالعفة، مما يبرر في نظر الرجال استغلالها جنسياً وجعلها هدفاً مشروعاً لاعتداءاتهم الجنسية، وعادة ما يشكك الرجل الصياد بإخلاص ونوايا المرأة، ويفترض بأن لها أهدافاً خفية ونوايا خبيثة، وبأنها لا تتورع عن اللجوء للمكر والخديعة لتحقيق مآربها الأنانية، وتعبر شخصية كراجستاد في مسرحية بيت الدمية لهنرك إبسن عن شكوك الصيادين الدفينة بالمرأة ودوافعها بدقة إذ يردد: المرأة المخادعة ستهجر الرجل في اللحظة التي تعثر على "صيد" أفضل، ويشاطر الصيادون أيضاً شخصية دون جوان في مسرحية جورج برنارد شو الموسومة دون جوان في تصوره للعلاقة بين الرجل والمرأة بأنها أشبه بالعلاقة بين عنكبوت جائع وذبابة، والمرأة هي العنكبوت بالطبع، وما الرجل بالنسبة لها سوى طريدة تسعى لاقتناصها والِتهامها، وقد أقنع الرجل الصياد نفسه بأن الريبة والتسلط وحتى إساءة معاملة المرأة وسائل واجراءات احترازية مبررة لتدجينها والسيطرة على نشوزها وتمردها، ولتفادي الوقوع في شباكها المميتة.

وقد يقتصر اهتمام الصياد بالمرأة وإقامته علاقة معها على إشباع رغباته الجنسية وما يجنيه من وراء ذلك من رضا عن نفسه ومكانة اجتماعية بين أقرانه، ويرضي غروره أن يكون محط اهتمام ومحور عواطف عدة نساء، يتنافسن أو يسعين، كل على حدة، لكسب حبه واهتمامه، وينظر الصياد إلى هذه العلاقات باعتبارها اختبارات ناجحة لرجولته وفحولته وجاذبيته، ويصفها بأنها انتصارات يجني منها نقاطاً أو درجات تضاف إلى رصيده الاجتماعي وقوته، ولا غرابة أن يكون مكترثاً لإحصائيات هذه العلاقات أكثر من اهتمامه بمضمونها الإنساني والعاطفي، وذلك لأنه كما وصفناه من قبل غير قادر على الذهاب إلى أبعد من الجوانب الشكلية أو الميكانيكية للعلاقات مع الغير، وفي سعيه وراء الانتصارات الجنسية يكون أشبه بشخصيات مرضية حقيقية أو روائية مثل بعض الأثرياء والمشهورين المعاصرين وشخصيات رواية ألف ليلة وليلة، الذين كان لديهم زوجات عديدات وألاف المحظيات المملوكات، وينظر الصياد إلى نعته أو تشبيهه بدون جوان أو كازانوفا بأنه قمة المديح والإطراء، والمشهور عنهما استغلالهما لعواطف النساء من دون مبادلتهن مشاعر الحب والمودة، ومن المحتمل أن يكون الروائي الفرنسي الراحل جورج سيمنيون قد سعى إلى هذا الفخر، أي أن يكون دون جوان أو كازانوفا عصره، عندما تبجح بعلاقاته الجنسية مع ألاف النسوة، وهو لا يختلف كثيراً عن طالب عربي تعرفت عليه أثناء دراستي في بريطانيا، واخبرني يوماً بأنه قدم لهذا البلد لتحقيق هدفين: الأول الحصول على الشهادة والثاني افتضاض بكارة عشر فتيات بريطانيات، وحين جمعتني به الصدف في ذلك اللقاء الذي حرصت على عدم تكراره كان يفصله عن الشهادة عام دراسي واحد وعن تحقيق هدفه الثاني ثلاث فتيات، على حد قوله، وأرجح أن تكون "انتصاراته" النسوية المزعومة تبجحاً فارغاً، وعلى الأغلب فأن هذا الشاب العربي، مثل الكثير من أقرانه في البلاد العربية، لم يبلغ النضج، وربما لن يصلها حتى بعد إتمامه أربعين عاماً، وهو عمر النضج التام الافتراضي في المجتمعات العربية، فهو ما زال يفكر بمنظور الطفل الذي يحرص على درجة عشرة من عشرة في اختباراته وفروضه المدرسية، ليكون هو الأول بين أقرانه وزملائه، ولكن يبقى طموحه المنحرف أقل بكثير عما حققه الملك اسماعيل الذي حكم المغرب ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، الذي يروي تايجر وفوكس Tiger and Fox (1971) بأن عدد أبناءه بلغ 1056، استولدهم من عدد كبير من الزوجات والجواري.

وليس من المستبعد ان يقوم الصياد بالسطو على نساء غيره، وكذلك تفعل الصيادة، ومن المثير للاهتمام أن الباحثين يطلقون مصطلح mate poaching على هذا السلوك، أي الصيد المحرم للأزواج، وفي دراسة أعدها باس وشمت Buss and Schmit (1993) أقر 60 بالمائة من

الرجال و53 بالمائة من النساء بمحاولة سطو من هذا النوع، وهذه ظاهرة تشترك بها مجتمعات متعددة.

ليس هناك أكثر بؤساً ومدعاة للشفقة - إن لم يكن الاحتقار- من الصياد الخائب الذي لم يسجل نصراً جنسياً واحداً، وللتعويض عن ذلك يكثر من التعبير عن حسده وإعجابه بالصيادين الناجحين في هذا المضمار، ويلجأ إلى اختلاق القصص عن غزوات وهمية، وقد يعمد بعض الصيادين المحبطين إلى استعمال العنف لأحراز مثل هذه الانتصارات الجنسية، والنساء هدف للاعتداءات الجنسية من اغتصاب وتحرش جسدي أو لفظي في كل المجتمعات، وفي مصر استقطبت حالات التحرش الجنسية المتزايدة اهتمام المدافعين عن حقوق المرأة، وتشير البيانات المتوفرة عن هذه الظاهرة إلى ارتفاع مقلق في عدد حالات التحرش الجنسي في شوارع القاهرة (Abul Komsan, Shoukry and Hassan, 2008) والتي طالت حتى النساء المحجبات، كما أفادت ديكوننج De Koning (2009) ومن الغريب أن بعض الرجال وبدلاً من محاسبة مقترفي هذه التعديات يلقون باللوم على النساء بدعوى أن ملابسهن فاضحة أو أن تصرفاتهن مثيرة للغرائز.

الصياد والعزلة

تؤدي النزعة الاجتماعية الضعيفة أو غير الناضجة بالصياد إلى العزلة، ويرى لينبيرجر وتكر Leinberger and Tucker(1991) بأن الفرد لم يحصد شيئاً من وراء ركضه المتواصل وراء تحقيق نفسه، لأن تركيزه المفرط على الذات تركه فريسة لمشاعر القلق والعزلة، وهو أشبه بشخصية فاوست في التراث الفولكلوري الألماني، فقد باع نفسه للشيطان لكي يحصل على القوة والجمال والمتعة، ولكن ما أن تحققت له هذه الغايات حتى عاوده الشعور بالملل والانفصام عن أبناء جلدته من البشر، وحينما اكتشف هذه الحقيقة كان أوان استرجاع روحه، التي قايضها مقابل هذه المتع الزائلة، قد ولى ومضى مخلفاً وراءه حسرات، ويبدو أن الوصول إلى عصر الفردية الموحشة والتنافس المفرط والعقلانية المجردة من العواطف قد كلف البشرية ثمناً باهضاً على حساب صحتها العاطفية والنفسية، وقد كتب أريك فروم (1956) Fromm قبل نصف قرن بأن الأنسان أصبح عاجزاً عن بلوغ "أعمق حاجاته"، وهي الحاجة للتغلب على مشاعر العزلة والوحدة والانطلاق من السجن الانفرادي الذي ترزح نفسه داخله، ومن المثير للاهتمام اختيار الكاتب ديفيد رايسمان (1950) Riesman عنواناً لكتابه عن المجتمع الأمريكي " الجماعة الموحشة" The lonely Crowd .

يداوي الصياد مشاعر العزلة والإحباط التي يعاني منها بتناول الخمر والمخدرات والقمار والإفراط في الأكل، وتوصف الكحول بأنها وسيلة لتقليل مشاعر القلق والتخفيف من التوتر وإطلاق نزعة العدوانية وتيسير العلاقات الاجتماعية، ومدمنو الكحول، والذين يقدر عددهم في أمريكا وحدها بعشرين مليوناً، يتناولونها لكي يتوهموا بأنهم، وكما يعبر عنه لير (1977) Lair، " عمالقة يمتطون ظهر الأرض وكل شيء بمقدورهم"، وسبقه إلى نفس المعنى الشاعر الجاهلي المنخل اليشكري:

ولقد شربت من المدامة   بالصغير وبالكبير
فإذا انتشيت فإنني   رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني   رب الشويهة والبعير

وإذا لم يكفي الكحول لمقاومة مشاعر القلق والكآبة والعجز يبحث الصياد عن بغيته في المخدرات، والأدلة على الكلفة الاقتصادية والاجتماعية الباهظة للإدمان على الكحول والمخدرات كثيرة ومعروفة لدى الجميع، كما يوجد ارتباط وثيق بين استهلاك الكحول وجرائم القتل وغيرها من الجرائم الخطيرة، فبالإضافة إلى العدد الكبير من القتلى والمعوقين والمصابين نتيجة حوادث السير الناجمة عن السكر تبين أن مقترفي معظم جرائم القتل والاغتصاب

والاعتداء المسلح كانوا تحت تأثير الخمور ساعة حدوث الجرائم، ويصف كايزر Kaiser (1976) النتائج المفجعة لتناول الكحول في الاتحاد السوفيتي، حيث كان معدل استهلاك المشروبات الكحولية الأعلى بين دول العالم، إذ لم يترك الإدمان على الكحول والافراط في تناوله جانباً من حياة سكان الاتحاد السوفياتي إلا وأضر به، ومن بين تلك الأضرار الخسائر الاقتصادية الناتجة عن الغياب عن العمل والتي قدرت بمليارات الروبلات، والموت المبكر بسبب الأمراض المرتبطة بالإدمان، وحوالي نصف حالات الطلاق وثلثا الجرائم وغيرها، وعلى الرغم من هذه الأدلة الدامغة فإن قلة من الصيادين يتفقون مع الرأي التالي لكاسيو، إحدى شخصيات مسرحية عطيل لشكسبير، في الخمر:

يا أيتها الروح الخفية للخمر
إن لم يكن لك أسم معروف
دعونا نسميك الشيطان.

وتعبر نفس الشخصية عن رأيها بمضار الخمر واستلابها للعقل فتقول:

أيها الرب! إن البشر يضعون في أفواههم
عدواً ليسرق عقولهم! وبفرح وحبور
ورضا نحول أنفسنا إلى وحوش.

وبينما يحاول السكيرون اغراق قلقهم وعزلتهم في الخمر يسعى مدمنو القمار إلى التغلب على مشاعر العجز والاحباط من خلال التعلق بأمل واه في جني أرباح كبيرة بسرعة وبأقل جهد ممكن، والتلذذ بما ينتج عن هذا الربح من شعور بالقوة والعظمة، لذلك لا نستغرب تشبيه المقامرين للمقامرة بأنها نوع من الصراع، لا تختلف كثيراً عن غيرها من الألعاب المنطوية على درجات عالية من التنافس والعدوانية، وهي كلها في نظرهم مفيدة للحفاظ على غرائز الإنسان الحيوية، وهذا الرأي والتبرير لا يصدران إلا عن صياد، وقد بينت دراسة في السويد بأن الادمان على القمار منتشر بصورة خاصة بين الجماعات المهمشة، والمحرومة من فرص التقدم والرقي الاجتماعي، وهي نتيجة مثيرة للاهتمام، ويمكن البناء عليها بأن هؤلاء المهمشين يقبلون على القمار على أمل التخلص من أوضاعهم وظروفهم الصعبة من خلال الثروة التي يتمنون الحصول عليها من القمار، ويخسر المقامرون سنوياً مليارات الدولارات ناهيك عن التأثيرات السيئة لهذا الادمان على حياة المدمنين والمجتمع بصورة عامة، وغالباً ما ترتبط عادة القمار باقتراف الجرائم.

يوجد ارتباط أيضاً بين الشعور بالعزلة والقلق لدى الصياد وبين انغماسه في اللذات الحسية ومنها لذة الطعام، ولكن ثبت أن تناول الطعام علاج فاشل للقلق، وهو في أفضل الحالات ذو فعالية مؤقتة، كما أن تكلفته قد تكون باهظة، وخاصة بالنسبة لسكان الدول الغنية مثل الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، فقد أوصلت الشراهة بثلث مواطني أمريكا إلى السمنة المفرطة، وهذا داء وبيل، ولا تقتصر مضاره البليغة على الصحة، بل تمتد إلى المجتمع والاقتصاد، وتكفي الإشارة إلى أن مجموع ما أنفقه الأمريكيون على محاولات تقليل أوزانهم مؤخراً تجاوزت ثلاثين مليار دولاراً في عام واحد، وهذا المبلغ كاف لإطعام كل الجائعين في العالم، وانقاذ جميع الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية والأمراض.

بعد أن يدرك الصياد بأن تناول الخمور وتعاطي المخدرات واقتناء حيوان أليف لم تلغي أو على الأقل تخفف مشاعر العزلة المعذبة فقد يكون الحل الأخير بالنسبة له هو الانتحار، وقد وجد الباحثون ارتباطاً قوياً بين الشعور بالوحدة والعزلة الاجتماعية وبين الانتحار، وهذا ما يتأكد من الارتفاع النسبي لمعدلات الانتحار بين المسنين والعزاب والمطلقين من الرجال والنساء، وهذه النتيجة متحققة أيضاً في عالم الأساطير والروايات، فقد بلغت لوعة العزلة الاجتماعية الناجمة عن الولع بالذات لدى الشخصية الأسطورية نارسيسوس Narcissus حداً لا يطاق، دفعه بالنتيجة إلى الانتحار.

المزارع الاجتماعي

يعتمد بقاء المزارع وديمومة مجتمعة الزراعي على العلاقات الاجتماعية، فالتعاون شرط لازم لأداء العديد من العمليات الزراعية، لذلك نراه حريصاً على بناء علاقات اجتماعية متينة وصيانتها، ويستدل على ذلك من تحري المنتمين للجماعات الزراعية التقليدية لصلات القربى، ولو كانت بعيدة، والسر في اهتمامهم بالبحث عن أسلافهم وجذور وفروع شجرات عوائلهم ليس لمجرد التفاخر بالأجداد وإنما أيضاً لإثبات قرابتهم لأكبر عدد ممكن من الناس، لأن صلات القرابة تجمعهم وتؤلف بينهم، وقد يعمدون لاختلاقها أحياناً، لذا فلا غرابة لو ادعى سكان قرية ما بأنهم جميعاً أقرباء، وإذا لم يكن الشخص الآخر في القرية قريبك فهو جارك أو صديقك الحميم، ولكليهما حق عليك، وبالتالي يكون جميع سكان القرية أما أقرباء أو أصدقاء، والكل ملتزمون بإثبات إخلاصهم واهتمامهم بمصالح الآخرين، وذلك من خلال تقديم مختلف أصناف العون لهم عند الحاجة، وحتى الدفاع عنهم ضد معتد إن لزم الأمر، ومشاطرتهم عاطفياً ومادياً في أفراحهم ومناسباتهم الاجتماعية وكذلك في أحزانهم وأوقات عسرتهم.

ومن المؤكد بأن المودة هي أقوى عواطف المزارع، والوشيجة التي تربطه بالآخرين بوثاق صعب الانفصام، وللمودة أو الحب معاني متباينة لدى الأفراد بحكم بيئاتهم الاجتماعية وطريقة تنشئتهم وتجاربهم الحياتية وخصائص شخصياتهم، ولكنها بالنسبة لكافة المزارعين فعل عطاء غير مشروط، فالفرد المحب يهب، وبوعي وإرادة حاضرة وعن طيب خاطر، ويعطي الكثير أو القليل من موارده الثمينة، أو وقته، أو اهتمامه ورعايته لزوج أو صديق أو جار أو حتى غريب محتاج، ويحرص على مشاعر ومصالح أحبائه، وهذه العاطفة الجياشة محركة وفاعلة، تدفع بحاملها إلى التعبير عنها بطرق إيجابية شتى، تتراوح في حدها الأدنى بالتحية الطيبة والسؤال عن الأحوال إلى المخاطرة بحياته لإنقاذ المحب من نار مستعرة، ولعل أقوى وأمضى الأدلة على وجود هذه العاطفة النبيلة، التي تميز جانب المزارع في نفوسنا، مشاعر المحبة المتبادلة بين الوالدين والأبناء، والتي قد تصل إلى حد التضحية بالنفس.

إن عواطف ومحبة المزارع ، وعلى النقيض من مشاعر الصياد المتذبذبة والمتلاعبة، حقيقية وصادقة، ولا يستهدف العطاء الكامن في محبة المزارع جزاءً ولا شكورا، لأنه بحد ذاته يرضي ذاته المحبة والمعطاء، ومودته منزه من كونها استجابة لحافز خارجي، أو مشروطة بتلقي منفعة متبادلة، وبينما تدور مشاعر الصياد الإيجابية في فلك ذاته الضيق، والذي إذا اتسع لم يكف سوى أفراد أسرته والأقربين له في حسابات المصالح، يوسع المزارع دائرة مودته لتشمل عائلته وأصدقاءه وجيرانه، بل البشرية والعالم أجمع، وتنبع قوة هذه المشاعر من معتقداته الدينية وقيمه الاجتماعية ومبادئه الأخلاقية، وأيضاً من اقتناعه الراسخ بفوائدها العلاجية للعديد من المشاكل الفردية والاجتماعية والدولية.

ولا غرابة أن تشكل الصداقة بالنسبة للمزارع رابطة اجتماعية أساسية وضرورية لتحقيق التوازن والرضا في حياته، وهو على استعداد لعقد صداقات مع الجميع، وبالأخص أولئك الذين يشاطرونه قيمه ومعتقداته، وإن كان لا يبخل بها حتى على الصياد إذا رغب بذلك، كما أنه لا يكترث لاعتبارات الخلفية الثقافية أو المكانة الاجتماعية أو المرتبة الاقتصادية في انتقاءه لأصدقائه، لذا فعلى الأغلب ستجد بين أصدقائه تنوعاً كبيراً في الخلفيات والأفكار والمعتقدات الدينية، وتكاد تخلو علاقات الصداقة لدى المزارع من التوتر والتشنج الناجمين عن التنافس والتنابز التي تسود علاقات الصداقة بين صيادين، ومن المؤكد بأن توقعات المزارع من أصدقاءه والصداقة عالية وكبيرة، وبالتالي فقد لا يبادله مشاعر والتزامات الصداقة الحقة سوى مزارع مثله.

إن الصداقة والرفقة البشرية حيوية في تقدير المزارع، ولا يمكن استعاضتها واستبدالها بحيوان أليف، وهذ لا يقلل من محبته ورفقه بالحيوانات، والدليل على ذلك سخرية الحضريين من

تعلق المزارعين بحيواناتهم، ويرجح أن تكون عادة تسمية الحيوانات الأليفة بأسماء بشرية تقليد ابتدعه مزارعون، ثم انتشرت بين أصحاب الحيوانات الأليفة من الحضر.

لماذا يلجأ الناس إلى المزارع ليبثوا لهم همومهم وأشجانهم مفصحين عن أسرار نفوسهم الدفينة وما يختلج فيها من مشاعر حميمة؟ توجد خصلتان لصيقتان بالمزارع، تؤهلانه لكي يكون كاتم أسرار وحلال مشاكل الآخرين: التعاطف والانصات، فالمزارع ليس بصانع معجزات، وقد لا تكون لديه دائماً حلول ناجعة، ولكنه لا يبخل بإذن صاغية وواعية، ولا يضن بنصيحة مخلصة، وتردعه قيمه وأخلاقه الرفيعة – وبالأخص تمسكه بالعدالة والإنصاف – من استغلال لحظات ضعف الذين يقصدونه بحثاً عن تفهم وتعاطف، فلا يبوح بأسرارهم، ولا يستعملها للتشهير بهم والسخرية منهم.

إن محبة المزارع لبني البشر وإيثاره قد تجعله هدفاً سهلاً لاستغلال الصياد، فقد يبدو المزارع حالماً وقليل الخبرة والتبصر في أمور الدنيا وغير قادر على التعامل بواقعية مع الغير، لكن يخطئ من يظنه ساذجاً أو محدود الذكاء، وهو لا يختلف عن الصياد في كون اختياره لشخصية المزارع وقيمه وأسلوب حياته والعيش وفقاً للناموس الاجتماعي الخاص بذلك واعياً وهادفاً ومبنياً على اطلاع ودراية وخبرة واقتناع، وعلى الرغم من تعرضه للعزلة الاجتماعية والمعاملة السيئة أحياناً ومحاولات الاستغلال وخيبات الأمل المتكررة لكن آخر ما يجول بباله الرد صاعاً بصاع ، وهو مثل أي إنسان عاقل ومفكر قد يتساءل في بعض الأوقات عن جدوى الاستمرار في نهجه الحياتي الصعب، لكنه سرعان ما يعود لقناعاته الراسخة، والتي هي مصدر ثقته بنفسه، لذا فالاحتمال ضئيل جداً في صيرورة المزارع الوحيد – على عكس الصياد الوحيد- مدمناً على الكحول أو القمار أو أن يضع نهاية لحياته ومعاناته بالانتحار.



الفصل الخامس
الزواج في ظل ثنائية الصياد والمزارع

" الدوق في الواقع شخصان [في جسد واحد] أحدهما أحبه جداً، فهو جذاب، ذكي، عطوف ورقيق – أي كل ما تتمناه المرأة، لكن الشخص الاخر متبلد المشاعر، قاس، كثير المطالب وأناني – إنه فظ وقاس مثل رياح الشتاء."
(رواية الكثيب لفرانك هربرت (Herbert (1964)

من المفترض أن تكون العلاقات بين أفراد العائلة الواحدة أقوى من غيرها من العلاقات الاجتماعية، وتتمثل فيها أعلى درجات المسئولية والالتزامات المتبادلة، بافتراض سلامتها وخلوها من الخلافات والمنغصات، ومن خلال هذه العلاقات تتولد وتنمو وتنضج الأجيال وتتهيأ لدورها في المجتمع، والزواج هو نواة المجتمع ومولد العلاقات الوثيقة من أبوة وأمومة وأخوة وغيرها من العلاقات العائلية، ويمكن تشبيه الزواج بنسيج يربط بين الخيوط المتنوعة وغير المتطابقة لشخصيتي وأسلوبي حياة الزوجين، ومن المؤمل أن لا يبليه توالي الزمن، وما يأتي به من مفاجآت ونوائب، وانفصام زوجين تجربة مؤلمة تؤدي إلى فقدان تلك المساحة الكبيرة من العيش المشترك بذكرياتها وأوقاتها الحميمة ومشاعرها المشتركة من الفرح أو الحزن، وتخلخل العلاقات العائلية بين أفرادها.
هنالك شرطان لازمان لنجاح الزواج: الاستدامة والسعادة، والقاعدة في الزواج استمراره مدى الحياة، مع وجود أسباب ومبررات لانقطاعه وتفككه فعلياً وشرعياً أو قانونياً، لذا فالطلاق هو أقوى الشواهد على فشل الزواج، ولكن تحقيق الاستدامة ليس شرطاً كافياً للاستدلال على نجاح الزواج، فالعديد من الزيجات تستمر حتى بعد تآكل المودة والالتزامات المتبادلة لتحل محلها اللامبالاة والملل وحتى المرارة والاحتقار، ويكون الزواج في هذه الحالة أشبه بالشجرة المتحجرة أو الاصطناعية، التي قد يصعب تمييزها ظاهرياً عن الشجرة الحية، إلا إذا راقبتها فترة طويلة لتكتشف بأنها لا تستجيب للفصول. وقبل أن نتحرى موقف الصياد والمزارع من الزواج واختيارات كل منهما الموفقة وغير الموفقة نتوقف عند التحديات الجسيمة التي تواجه الزواج في العصر الراهن، والتي يبدو بأنها قد أضعفت من روابط الزوجية وربما تهدد المؤسسة بالاضمحلال.

مؤسسة الزواج وتحديات العصر

لعل أهم كلمات تنطق بها ألسنتنا هي التي نعبر بها عن موافقتنا على الارتباط بعلاقة زوجية، كما أن أصعب وأخطر قرار نتخذه طيلة حياتنا هو اختيار شخص أخر ليكون شريكنا في هذه الحياة، وتنبع أهمية هذا القرار من جسامة وفداحة ما ينتجه من سعادة أو بؤس.
تشهد المجتمعات الغربية انخفاضاً واضحاً في أهمية الزواج كوسيلة رئيسية لإشباع حاجات الصياد البيولوجية والاجتماعية (الرغبة الجنسية والأبوة أو الأمومة)، بعد أن أصبح بمقدوره الاختيار بين حياة العزوبية والزواج أو المعاشرة بدون زواج، أو حتى الإنجاب بدون زواج، ويرى رايت (Wright (1994 بأن تفشي ممارسة علاقات المعاشرة المتسلسلة serial monogamy أسوء من الزواج بواحدة أو حتى تعدد الزوجات، ويقصد بالمعاشرة المتسلسلة العلاقات العاطفية والجنسية المتكررة، ويكون للرجل أو المرأة عدد من العلاقات المتسلسلة زمنياً مع آخرين من الجنس الآخر، ويتهم جيلدر (Gilder(1973 حركة المساواة بين الرجل والمرأة Feminism بالمسؤولية عن تدهور مؤسسة الزواج، ويصفها بأنها أسوء أنواع الإبادة الجماعية، ويرى الكاتب نفسه في مقالة أخرى (Gilder (1986 بأن تخلي النساء

المتحررات عن الضوابط الاجتماعية ورفضهن إعالة الرجال لهن أبطلا الدافع الرئيسي لإقدام الرجال على الزواج، مما تسبب في خلخلة مؤسسة الزواج، وتوقع مكراي (1995) McRae اضمحلال مؤسسة الزواج في بعض المجتمعات الأوروبية خلال جيل واحد واستبدالها بالمعاشرة والمساكنة، بينما قد تستمر في مجتمعات أخرى بصورة عقد مؤقت لغرض تربية الأطفال بالدرجة الأولى، وأظهرت نتائج مسح للعائلات في أمريكا بأن النمط المعهود للعائلة المكونة من زوجين وابنائهما في تناقص مضطرد، إذ انخفضت نسبة هذه العائلات من 45 بالمائة من مجموع العائلات الأمريكية في 1972م إلى 26 بالمائة في 1998م، وفي نفس الوقت فقد ازدادت حالات المعاشرة او المساكنة من غير زواج من نصف مليون في 1960م إلى ما يزيد على أربعة ملايين في 1998م وفقاً لإحصاءات رسمية تذكرها فانجلستي وبيرلمان (2006) Vangelisti and Perlman، ونصف المتزوجين في أمريكا أيضاً يمرون بمرحلة معاشرة قبل الزواج، ولو استمر هذا المساق بنفس الوتيرة فمن المتوقع اختفاء العائلة النمطية في أمريكا خلال ربع قرن، وتتقدم الدول الإسكندنافية في هذا المضمار على أمريكا، كما يستدل من حقيقة أن نصف المواليد نتاج المعاشرة لا الزواج.

حدا هذا الوضع المحزن ببعض علماء الاجتماع ومستشرفي المستقبل إلى التنبؤ بقرب انتهاء أو انقراض مؤسسة الزواج واستبدالها بأشكال أخرى من العلاقات أو التآلفات الاجتماعية بين أفراد الجنسين، سواء تعاقدية أم تفاهميه، ولكن حتى الآن- ومن حسن حظ البشرية – يبقى المكان الوحيد الذي يستنسخ فيه البشر ويحظر النطق بكلمتي "أب" و"أم" هو العالم الخيالي الذي تصوره الروائي ألدوس هكسلي في روايته الشهيرة العالم الجديد الشجاع Brave New World ، وعلى الرغم من كل التنبؤات بزوال الزواج ما يزال الخيط الرئيس في نسيج مجتمعاتنا، وما الزواج الفاشل سوى خرق كبير في هذا النسيج.

لا شك بأن الزواج في المجتمعات التقليدية أقل تعقيداً منه في المجتمعات المدنية والمتحضرة، وغالباً ما يكون هذا الزواج مدبراً، وليس للزوجين، وخاصة المرأة، حرية كبيرة في اختيار القرين، ويوسع هذا الوضع من دائرة المسئولية عن نجاح الزواج لتشمل العائلتين المتصاهرتين، اللتان ستكون لهما مصلحة أساسية ومشتركة ومشاركة حقيقية وفعالة في صيانة وشائج الزواج من خلال تقديم العون الاجتماعي والعاطفي والمالي والمساهمة في حل الخلافات التي تنشأ بين الزوجين، وحتى لو تعكرت العلاقة بين الزوجين فستبذل العائلتان قصارى جهدهما لمنع تفسخها بالافتراق أو الطلاق، على الأقل من أجل تربية الأبناء، ويتبين من هذه القيم والممارسات الاجتماعية التقليدية أهمية ديمومة الزواج ومدى الاستنكار الاجتماعي للطلاق، وهي السبب الرئيسي في انخفاض معدلات الطلاق في هذه المجتمعات مقارنة بالمجتمعات المدنية، وقد تمنع القيم والتقاليد من انفصام روابط الزواج، ولكنها لا تضمن سعادة الزوجين.

ومن الملاحظ بأن معدلات العزوبية والعنوسة مرتفعة نسبياً في المجتمعات العربية، وهي مرشحة للازدياد في المستقبل، وقد يكون لعوامل أخرى غير العزوف عن الزواج وراءها، مثل البطالة وارتفاع تكلفة الزواج وأسعار الوحدات السكنية، ولو اتفقنا مع النتيجة التي توصل لها الباحثان الكنديين ماسكويدا ووينر (1999) Mesquida and Wiener حول وجود ارتباط قوي بين ارتفاع نسبة الشباب في المجتمع ونشوب الحروب فيمكن الافتراض بأن العنف المتفشي في عدد من المجتمعات العربية في الوقت الراهن والذي طالت نتائجه المأساوية الملايين من سكانها مرتبط بدرجة أو أخرى بارتفاع نسبة العزوبية بين الشباب، لكنها تبقى مجرد فرضية تستحق الاهتمام والمزيد من البحث.

في المجتمعات المدنية الحديثة يختار الأفراد الارتباط في الزواج بحرية تامة، وليس لذويهم تأثير كبير على هذه القرارات، وغالباً ما يسبق الزواج فيها مرحلة تعارف، قد تطول عدة سنوات، أو تقتصر على بضعة أشهر، يقضيها الطرفان في ملاحظة أفكار وسلوك كل منهما واختبار مشاعره، ومن المفترض أن يؤدي هذا التفاهم المسبق الذي قد يصل إلى حد المساكنة والعيش كأزواج من دون عقد زواج إلى تمتين عرى الزواج وتقليل احتمالات ظهور خلافات

حادة بعد الزواج نتيجة تباين القيم والأفكار والعادات، مما تهدد استمرار الزواج، ولكن تشي كل الأدلة الإحصائية ونتائج البحوث الاجتماعية إلى النقيض من ذلك.
ووفقاً لمنظورنا الثنائي في تحليل وفهم الشخصية الإنسانية فإن نجاح الزواج يتطلب أساساً التوافق المبدئي بين طبائع وأسلوبي حياة الزوجين، وهو موضوعنا التالي.

معايير اختيار الأزواج

يورد الباحثون الاجتماعيون عدة أسباب محتملة لتدهور مؤسسة الزواج في المجتمعات الحديثة، ولعل من أبرزها الاختيارات غير الموفقة أصلاً، وتؤدي عاجلاً أم آجلاً إلى ظهور وتعمق الخلافات، وأخيراً الافتراق والطلاق، لذلك اهتم الباحثون بدراسة اختيارات الزواج بين الرجال والنساء، وقد أجريت معظم هذه الدراسات على عينات من أمريكا ودول غربية أخرى، لكن الباحثين يؤكدون بأن نتائجها تنطبق إلى حد ما على المجتمعات غير الغربية ايضاً، وفي دراستهم لتفضيلات الرجل والمرأة في الزواج في عدد من الدول توصل باس وزملاؤه (2006) Buss إلى وجود توافق بين اختيارات الرجال في مختلف الثقافات وكذلك في اختيارات النساء، فمن أبرز الصفات التي يطلبها الرجال الجمال أو الجاذبية والتي تعتبر مؤشراً على الصحة والخصوبة، أما معايير النساء في اختيار الأزواج فتؤكد على جودة الوضع المالي وما يرتبط بذلك من صفات أخرى مثل الطموح والمكانة الاجتماعية.
وترى دي أنجيلس (1992) De Angelis بأن شراء سيارة أو جهاز إلكتروني أهم بالنسبة للبعض من اختيار شركاء حياتهم استناداً إلى ما يصرفونه من وقت لكل منهما، ومن المحتمل أن يكون المسئول الرئيسي عن هذه الأولويات المضطربة قيم وسلوك الصياد المستحوذة على نفوس معظمنا، فالصياد بطبيعته يرفض أو ينفر من الالتزامات طويلة الأمد، التي ينطوي عليها الزواج وما يصاحبها من مشاعر ومسئوليات متبادلة، ويفضل عليها الفردية والاستقلال.
يفرض احتمال فشل الزواج على الطرفين التعامل بجد مع الموضوع والحرص على الاختيار بحكمة وتروي، وقد يبدو بأن من الأيسر تقدير مدى التوافق والتجانس بين شخصيتي طرفي الزواج على أساس الأبراج الفلكية أو قراءة الطالع والحظ أو التمازج في أمور ثانوية مثل الأطعمة والملابس والسيارات، لكن هذه الأساليب ومعاييرها لا تضمن صواب الاختيار وبالتالي نجاح الزواج، ولنقرأ على سبيل المثال العبارة التالية للكاتب ريسر (1994) Paul Reiser والتي يكشف فيها طريقته الحدسية أو التفرسية في تقييم علاقته بصديقة له:

> لا أقول إنها إنسانة غير طيبة، ولكن في
> اللحظة التي تصافحت أيدينا أدركت بأنها غير
> مناسبة لي، وأن " مقاسينا" مختلفان.

ويحذر المختصون بالعلاقات الزوجية من الاختيار السطحي على أساس الجاذبية الجمالية أو الجنسية، ومن قبل فقد كتب جان جاك روسو بأن الجمال لن يكون له تأثير بعد انقضاء ستة اشهر على الزواج، وتقدم لنا شخصية لارا في مسرحية الأب The Father للكاتب السويدي أوغست سترندبرج Strindberg تحليلاً ذكياً لهذا النوع من الحب:

> إن الحب المبني على الجنس ما هو إلا
> صراع، فلا تظن بأني منحتك نفسي، أنا لم
> أعطك شيئاً، بل لقد أخذت أنا منك ما أردت
> الحصول عليه.



وتبين دي أنجيلس (1992) بأن المعايير التي تعتمدها النساء في اختيار أزواجهن قاصرة أيضاً، لأنها تركز على الثروة والشهرة والمكانة الاجتماعية بدلاً من العقل والمودة والتفاهم، وتتفق معها شولامث فايرستون (1984) Firestone في انتقادها لاختيارات المرأة المعاصرة العاطفية، فهي لا تختار رجلاً لصفاته الشخصية بل لما سيقدمه لها، ولا تتردد في استعمال الجنس والتلاعب بالعواطف في سبيل بلوغ اهدافها، ويبدو بأن القليل من النساء مستعدات للاقتداء بشخصية الجميلة Beauty في رواية الجميلة والوحش Beauty and the Beast للسيدة دي بومونت Mme. Leprince de Beaumont ، التي فضلت الحياة مع إنسان في هيئة وحش بدلاً من وحش في هيئة إنسان قائلة:

هنالك العديد من الوحوش المتخفية في هيئة
بشر، والأفضل منهم من كان له هيئة وحش
وقلب إنسان.

وهذه حكمة بالغة يتعذر نقضها، وإن كان يصعب العمل بها، وقد أثنت عليها شخصية الجنية في الرواية بقولها:

لقد أحسنت الاختيار، وحصلت على
جائزتك، لأن القلب المحب أفضل من
المظهر الجميل ومن الذكاء.

ليس بالمستغرب أن تتمنى المرأة الجميلة كل الصفات المرغوبة في الرجل، فهي وفقاً لنتائج بحث أعده باس وشاكليفورد (2008) Buss and Shackelford لا تكتفي باشتراط أن يكون زوجها ذي مال أو دخل عال بل تريده أيضاً أن يكون معشاراً وعطوفاً ومحباً للأطفال ومخلصاً وقوياً جسمانياً، ويرى الباحثان بأن لدى النساء معايير للزوج المناسب تكونت عبر مراحل نشوء الجنس البشري وبان هذه المعايير مرنة وتتفاوت حسب قيمة المرأة كزوجة، لذا فالمرأة ذات الجمال المتواضع ستضع معايير أقل طموحاً من المرأة الجميلة.

هل تفضل النساء الرجال طوال القامة؟ قد يبدو هذا الأمر ثانوياً او حتى تافهاً لكن النتائج التي توصل إليها بعض الباحثين تؤكد عكس ذلك، إذ كما يبدو تفضل النساء هذه الصفة في الرجال، ويفسر الباحثون هذه الظاهرة بالربط بين طول القامة وصفات أخرى مثل الصحة والقوة، ويؤكد بريور (2007) Brewer بأن الرجال طوال القامة في العينة التي قام بدراستها عبروا عن رضا أكبر بعلاقاتهم العاطفية وكانوا أقل شعوراً بالغيرة لأنهم مرغوبون من النساء ولا يخشون كثيراً من احتمال خيانتهن.

بشكل عام يفضل الأفراد الذين يصنفون ضمن الثلاثي المظلم (النرجسيون والماكيافليون والسايكوباتيون) علاقات ذات مدى قصير مع أفراد الجنس الآخر (جوناسون وكافانه (2010) Jonason and Kavanagh)، ووفقاً لنتائج دراسة هامة لجوناسون ورفاقه (2011) Jonason, Valentine, Li, and Harbeson يلجأ الثلاثي المظلم إلى التقليل من شروطهم في القرين أو القرينة عندما تكون العلاقة للمدى القصير بغية تحسين فرصهم في الحصول عليه أو عليها، فهم يبدؤون بمتطلبات عالية فإن لم يحصلوا على بغيتهم يخفضون سقف متطلباتهم، كما أنهم وبالأخص السايكوباتيين يختارون وبشكل عام على أساس المصلحة الذاتية، وعلاقاتهم بالتالي سواء كانت في الزواج أم غيره ذات طبيعة استغلالية، أما النرجسيون فقد وجد كامبل (1999) Campbell بأنهم يختارون الأفراد الذين يمتلكون المكانة العالية والجمال وغيرها من الصفات ولا يفضلون من يركز على الأمور العاطفية والاهتمام بالآخرين، وهذه النتائج متوافقة إلى حد كبير حد كبير مع تصورنا لاتجاهات وسلوك الصياد في علاقاته الاجتماعية من زواج وغيره.

وأغلب البيانات المتوفرة عن معايير اختيار الأزواج في المجتمعات العربية انطباعية، أي مستمدة من ملاحظات أفراد، أما الدراسات الميدانية المحكمة فهي قليلة جداً، وتبين نتائج دراسة

لخلاد Khallad (2005) على عينة من الأردنيين وجود معايير اختيار مشتركة بين المجتمع الأردني ومجتمعات أخرى، فالرجال الأردنيون وكما هم الرجال في الكثير من المجتمعات يفضلون المرأة الجميلة والشابة أما النساء فيرغبن بأزواج موسرين أو مقتدرين مالياً وملتزمين بالزواج ومسؤولياته وعطوفين وذي مزاج طيب، ولكن توجد أيضاً معايير نابعة من ثقافة المجتمع الأردني مثل تفضيل الرجال للفتاة التي لم تتزوج من قبل، أي عزوفهم عن الزواج بمطلقة أو أرملة، ومن المعروف بأن الرجال الشرقيين ومنهم العرب يفضلون التزوج من فتيات أبكار.

بشكل عام يختار الرجال العرب زوجات تصغرهم سناً، ويذهب البعض منهم إلى حد مستهجن في ذلك، إذ يتزوجون بالقاصرات، وهي ظاهرة موجودة في المجتمعات العربية بدرجات مختلفة من الحدة، وتنتشر غالباً في الأرياف حيث يكون الناس أكثر تمسكاً بالعادات التقليدية المتوارثة واقل تحضراً وتعليماً، ويقدر البعض بأن واحدة من كل سبع فتيات يتزوجن قبل بلوغهن سن الثامنة عشرة، واجتذبت قضية اليمنية نجود الاهتمام لهذه المشكلة الاجتماعية، ونجود طفلة زوجها أبوها قسراً في التاسعة من عمرها، وتضمن الكتاب انا نجود عمري عشر سنوات ومطلقة وصفاً لقضيتها (Ali, 2010)، ويقدر الباحث السعودي السيف (2005) بأن نسبة عالية من الفتيات السعوديات يتزوجن في عمر الخامسة عشرة أو أقل، وتكمن وراء هذه الظاهرة نزعة الصياد الأنانية والتي تدفعه لتحقيق تفضيلاته ولذاته الشخصية ولو على حساب مصالح وسلامة الآخرين الجسدية والعاطفية.

ولعل أفضل نصيحة مقدمة لطالبي الزواج هي: اِختر بحكمة وتروي، واعط الموضوع حقه من الاهتمام والوقت، ولا يوجد دليل توجيهي يتضمن منهجاً مجرباً وخطوات محددة تعلم المرء سبيل الاختيار الصائب، ولكن ينصح بالاهتداء بالقاعدتين التاليتين: أولاً، يتطلب بناء علاقات دائمة من أي نوع معرفة الذات، ويمكن اختزال هذا البحث العسير في عمق النفس بالتعرف على مدى ميل الفرد إلى نمط حياة الصياد أو المزارع، وتساعد المعلومات المعروضة في الفصل الأول من هذا الكتاب للتوصل إلى هذه المعرفة، ومن المهم التذكير بضرورة عدم الخلط بين صورة الذات المرغوبة وبين خصائصها الفعلية، فالمهم هو ما يكون عليه الفرد لا ما يطمح لصيرورته ويتظاهر به، وينبغي الحرص على نفس الدرجة من الشمولية والواقعية والموضوعية في التعرف على طبائع المرشح أو المرشحة للزواج، ولضمان التوصل إلى قرار عقلاني يتوجب الاحتراس من كافة أنواع الأهواء والنزعات المتحيزة.

ثانياً: من الضروري التعامل مع شخصية وطبائع المرشح والمرشحة على أنها معطيات أو مسلمات غير قابلة للتغيير، لأن تغيير هذه الشخصية والطبائع أمر عسير، إن لم يكن مستحيلاً، حتى تحت أفضل الظروف، ولو سألنا علماء الاجتماع والنفس وأصحاب الخبرة لأكدوا لنا بأن الناس ميالون للحفاظ على مبادئهم وأساليب حياتهم، ويقاومون محاولات تغييرها، لذلك تنصح ليرنر Lerner (1985) بالعزوف عن محاولة السيطرة على آخر أو حتى تغييره لأنها وسيلة شاقة وغير مجدية لإزالة الاختلاف بينهما، وحتى لو كان التغيير ممكناً فعلى الأغلب سيستغرق وقتاً طويلاً، ويكون الزواج اثناءه عرضة للمخاطر بسبب عدم التوافق في الطبائع، لذا حذار من افتراض أحد الزوجين قدرته على إحداث تغيير كبير في طبائع وأسلوب حياة الزوج أو الزوجة بعد الزواج.

إذا لم يكن مستطاعاً تغيير الطرف الآخر فهل أنت مستعد لتغيير نفسك وصولاً إلى الدرجة المطلوبة من التوافق والتمازج؟ هذا احتمال ضعيف أيضاً، فالعادات لا تختفي أو تمحى بسهولة، فما بالك بتغيير النفس وما اقتنعت به وتعودت عليه منذ الصغر، وكما يقول المثل الدارج فإن بعض العادات لا تزول بل تدفن مع الإنسان في قبره، ويؤكد لنا ذلك سلوك المدخنين والمبتلين بالشراهة والبطنة، الذين حاولوا نبذ هذه أو تلك العادة دون جدوى، إذ سرعان ما ينكصون عن نواياهم والوعود التي قطعوها لأنفسهم، ولو كان تغيير هذه العادات يسيراً لما أثرت شركات صنع السجائر وأدوية وأدوات تخفيض الوزن، ولا توجد حوافز كالمال أو الجمال أو المكانة

الاجتماعية قوية وكافية بحد ذاتها لإقناعك بتغيير نمط حياتك، وبعد إتمام الزواج سيبهت تأثير هذه المحفزات، وسيعود للبصر حدته وللبصيرة نظرتها الواقعية، وقد يلجأ أحد الطرفين – والأضعف غالباً - إلى اصطناع أو تمثيل دور مغاير لشخصيته أو شخصيتها الحقيقية إرضاءً للطرف الآخر واستجابة لضغوطه، وهذا تدبير فاشل برمته، لأنه سيولد ضغطاً نفسياً كبيراً على المتصنع، ويحط من قدر نفسه أو نفسها، وعاجلاً ام آجلاً ستسقط الأقنعة كاشفة عن التصنع والزيف، والذي سيثير على الأغلب سخط واستهجان الطرف "المخدوع".

إذن لا بد من بناء الاختيار الزوجي على أساس متين من المعرفة والصدق والصراحة، وبالتحديد معرفة كل من الطرفين لنمط حياته وكذلك معرفة أسلوب حياة الطرف الآخر، وصولاً إلى إدراك ما يمكن توقعه كل طرف من الآخر، وتقدير مدى التجانس والتمازج الفعلي المتوقع وإن كان كافياً لنجاح الزواج أم لا، وقد يقلل اتباع هذه الطريقة في الاختيار من البدائل المتاحة، لكنها أكثر عقلانية وفاعلية، وفي كل الأحوال وقبل أن يختار الفرد الطرف الآخر المناسب ليقضي معه أو معها بقية حياتك عليه أولاً معرفة ما يترتب عليه هذا الاختيار.

لو اخترت صياداً أو صيادة

يرى كلاتيربه (1990) Clatterbaug بأن الذكور بصورة عامة لا اجتماعيين antisocial، ولا يقبلون على الزواج لولا ترغيب وتشجيع المجتمع، ويصح هذا التعميم في رأينا على الصيادين بالذات، فهم ينظرون إلى الزواج بعين المصلحة الذاتية، ويقيمون كل شيء وفقاً لقاعدة: ماذا أجني من هذا؟ ويبرز هذا الاتجاه بصورة أوضح لدى الرجال الأقرب إلى النموذج الأكمل لقيم وسلوكيات الصياد، وقد يعزف البعض عنهم عن الزواج، مرددين مع الفيلسوف الألماني شوبنهاور (1788-1860) Schopenhauer بأن الزواج تنازل عن نصف الحقوق ومضاعفة
للمسئوليات، ولن يقدم الصياد على الزواج إلا إذا كان متمماً لخطته وطموحة وملبياً لاحتياجاته، وقد يجد الصياد مزايا وفوائد كامنة في الزواج بحد ذاته وكافيه لإقناعه بجدواه.

وفي منظور علم الأحياء التطوري كما يبين لو (2000) Low فإن الهدف من سعي الفرد للحصول على الموارد والقوة هو تحسين فرصه في التكاثر، والمورث الأناني selfish gene الموجود في البشر يدفع بالفرد إلى الزواج وإنجاب الأطفال لكي يكثر نسله ولا ينقرض، وهذه الفرضية تنطبق تماماً على الصياد لو اختار الزواج على العزوبية أو إنجاب الأطفال خارج الزواج.

وبسبب نزعة الصياد اللااجتماعية وميله للفردية والاستقلال يرتبط الزواج في تفكيره وسلوكه بصور سلبية، تظهر في اتصالاته التحريرية والشفهية، وتأخذ أشكالاً قاتمة مثل القفص (قفص الزوجية) والأغلال والقيود وأحياناً السجن، وغالباً ما يتذكر الصياد بحنين أيام العزوبية الخوالي، ويستعيد ذكرياتها، حاسداً العزاب الذين لا يقيد حريتهم الارتباط بزوجات، ولا يثقل كاهلهم أبناء، وما يجره الزواج من مسئوليات ثقيلة وهموم دائمة، ويلخص تعريف ريسر (1994) Reiser للزواج موقف الصياد منه بصراحة ودقة متناهيتين: إنه لعبة مدروسة تتيح لشخصين أنانيين التظاهر أحياناً بخلاف ذلك.

انطلاقاً من نظرة الصياد النفعية يعتبر الصياد الزواج مجرد علاقة، يتبادل فيها الزوجان المكاسب، ولوجود تكلفة فيها، فلا بد له من تقدير وحساب الفوائد والتكاليف المترتبة على ذلك لتقرير جدواها، ولا يتوقع منه الاقدام على الزواج إلا إذا اقتنع بأن الفوائد أكثر من التكلفة، كما يخضع اختياره لشريك الزوجية وفقاً لهذه الحسابات المبنية على القاعدة الذهبية لكل الصيادين، والمتمثلة في السؤال: ما مصلحتي في ذلك؟ ولا مكان للعواطف في حساباته، وقد يتردد طويلاً قبل اتخاذ هذا القرار، ولكنه سيحزم أمره عندما يرى فيه جسراً، أو على الأقل عوناً، لبلوغ مستويات أعلى من النجاح الاجتماعي والاقتصادي، بالإضافة إلى ما يجنيه من مكاسب معنوية

يقدمها المجتمع عادة للمتزوجين، مثل الاعتراف له بالنضج وتحمل المسئولية، أما الالتزامات العاطفية المرتبطة بالزواج فيصنفها الصياد ضمن حقل التكلفة، وعلى هذا الأساس فقد يقبل شاب في مجتمع غربي على الزواج من زميلة له، مستغلاً استعدادها لترك الدراسة أو الاكتفاء بمرحلة منها والاتجاه إلى العمل لتوفير مصاريف الحياة ورسوم الدراسة لإتمام دراسته العليا أو التخصصية، وإذا كان هذا هو الدافع الرئيسي لزواجه منها فقد يقرر الانفصال عنها بعد تخرجه بفترة قصيرة، إلا إذا وجد أسباباً أخرى مقنعة للاستمرار بالزواج، ورضيا بالتكيف معها.

ولن يتورع الصياد عن استغلال مواهب زوجته وابناءه لمصلحته الأنانية، كما حدث للسيدة زلدا، زوجة الروائي الأمريكي الشهير سكوت فتزجرالد Fitzgerald، مؤلف رواية جاتسبي العظيم، وتشير الشائعات إلى أنه انتحل لنفسه بعض القصص التي ألفتها زوجته، وعلى سبيل المثال أيضاً ادعى الممثل التلفزيوني الراحل جاري كولمن بأن أبويه بددا الثروة التي حصل عليها من التمثيل في أحد المسلسلات التلفزيونية الشهيرة، التي دام عرضها عقداً من الزمن.

ويشبه الصياد شخصية السير ويلوبي في رواية الأناني The Egoist لجورج ميريدث، George Meredith فهو فرد أناني، يريد السيطرة على الآخرين، وبالأخص النساء في حياته، لذا فإذا لم تكن أنت صياداً عليك أن تفكر ملياً قبل اختيار صياد أو صيادة للزواج، وحتى في حالة الزواج بين صيادين فإن التوافق بين القيم وأسلوب الحياة غير كاف لضمان زواج سعيد، فقد تجد صيادين واقفين جنباً إلى جنب في سعيهما المشترك وراء اغتنام فرصة، أو اصطياد فريسة، ولكنك قد تشاهدهما أيضاً متصارعين ألداء في ساحة معركة.

في المجتمعات التقليدية يسعى الصياد من وراء الزواج وإنجاب الذرية لتحقيق مآرب عدة، من أهمها إشباع رغباته البايولوجية والحفاظ على اسمه من الاندثار، وتوريث أمواله لأبناء من صلبه، فالزواج هو برهان ساطع على بلوغ الصياد مرحلة الرجولة والقدرة على الانجاب والرشد العقلي والنضج العاطفي، مما يؤهله لحقوق ومزايا مرتبطة بهذه المرحلة وخصائصها العامة، مثل أن يكون موضع ثقة واحترام الآخرين واعتباره جديراً بالمسئولية التي تترتب على تكليفه بوظيفة أو اشتغاله بمهنة، إذ يتوقع بصورة عامة أن يكون رب الأسرة أكثر رشداً وحرصاً على اسمه وسمعته الشخصية والمهنية، كما يمنحه الزواج وتكوين عائلة خاصة به قدراً من الاستقلالية من السلطة الأبوية، التي تمارس عادة بشكل شبه مطلق على العزاب في المجتمعات التقليدية، وترفعه إلى مقام رب أسرة، وقد تمهد له لاستلام دور الأب ذي السلطة الواسعة في عائلته الكبيرة يوماً ما في المستقبل.

وفي المجتمعات التي تجيز تعدد الزوجات يعتبر الزواج بأكثر من واحدة مؤشراً قوياً على المكانة العالية للرجل، حيث الرجال الموسرين وأصحاب المقامات الاجتماعية فقط قادرون مالياً على ذلك، ومن المعتاد أن تقدم العوائل بناتهن لأمثال هؤلاء الرجال كزوجات طمعاً بما سيدره هذا النسب من منافع مالية واجتماعية، وبالمقابل تثير عزوبة الرجل وعزوفه عن الزواج الشكوك والتندر حول رجولته وفحولته وتحط من مكانته بين أقرانه.

يرى الصياد في المجتمعات التقليدية العربية وغيرها في الزواج صفقة أجدى وأربح من اقتناء جارية أو اكتراء خادمة، لأن للزوجة أدوار وفوائد متعددة، تفوق ما تقدمه الجارية والخادمة مجتمعتين، لتشمل خدمة الزوج وانجاب وتربية أولاده وطهو طعامهم وتدبير بيتهم، ولأنها غالباً ما تصغره بسنين عدة فستعتني به وتمرضه في كبر سنه، والزوج هو بتقدير المجتمع صاحب الفضل عليها أولاً وآخراً في التزوج بها وانقاذها من العنوسة ومن حياة بائسة في كنف أهلها، الذين يضيقون بها ذرعاً ما أن تبلغ سن الزواج، فلولاه لكانت كالأرض البور، ولعاشت بعد وفاة والديها كالضيفة - وأحياناً مستثقلة - في منزل أحد أخوانها، لذا عليها دائماً حمد وشكر زوجها على فضله الكبير، والتعبير عن ذلك بالطاعة العمياء والاخلاص التام، وفي ظل هذه العادات والتقاليد الاجتماعية المنحازة للرجال قد ترى الفتاة العربية في زواجها من صياد، ومهما بلغ من الأنانية والتسلط والقهر، بديلاً أقل وطأة من العنوسة ونتائجها.

تسعى المرأة الصيادة من خلال الزواج إلى اشباع نزعاتها للقوة والنفوذ والمكانة، والتي قد يصعب عليها بلوغها خارج الزواج، وبالتالي يصبح زوجها الأداة الوحيدة أو الرئيسية لتحقيق طموحها وأهدافها، ولن تتورع عن اللجوء لأي وسيلة لإقناعه بذلك، بما فيها الإلحاح والتوسل والتهديد والابتزاز والتلاعب بعواطفه ورغباته حتى يرضخ لمطالبها ويقبل بتلبية مطالبها، باذلاً في سبيل ذلك كل جهد، ولربما اقنعته باقتراف أعمال غير مشروعة، إن تطلب الأمر ذلك.

وللأبناء دور مرسوم في خطة الصياد التي يأمل التوصل من خلالها إلى غاياته، ويوطد مجيئهم صلاته بأنسبائه، ويضمن حصوله على الفوائد الاجتماعية والمالية من هذه المصاهرة، كما يعتبر الأبناء مكسباً اقتصادياً قابلاً للاستغلال، وفي المجتمعات التقليدية يوفرون له عمالة رخيصة ومطيعة حتى سن البلوغ على الأقل، كما يستطيع نقل معارف ومهارات مهنته لهم من دون التخوف من منافستهم له، أما لو تدنت قيمة هذه الموارد البشرية نتيجة عوامل ديمغرافية أو لتناقص قيمتها الحدية فقد رخصت له التقاليد الاجتماعية في العديد من المجتمعات التقليدية القديمة، منذ الرومان وعرب الجاهلية حتى المجتمع الصيني في القرن العشرين، قتل الأولاد أو بيعهم في سوق النخاسة أو توظيف الفائض منهم في خدمة الموسرين، وبالإضافة إلى قيمتهم الاجتماعية والاقتصادية يوفر الأبناء قوة قتالية، يخوف بها أعداءه، ويدفع بهم غارات الطامعين بممتلكاته.

يثمن الصياد أبناءه عالياً لكونهم ورثته وحاملي اسمه من بعده والمحافظين على ذكره من الاندثار، ومن المؤكد بأن صياداً ابتدع المثل القائل بأن الرجل ذي الأبناء لا يموت، ويعبر هذا المثل عن اهتمام الصياد بتخليد ذكره من خلال ذريته، وقد يدفعه إصراره على إنجاب الأولاد إلى التزوج على زوجته البائرة أو التي لا تلد أبناءً أو تطليقها والزواج بغيرها، وفي اليابان يعمد الزوجان اللذان لا ينجبان أولاداً إلى تبني قريب أو حتى غريب مناسب وتدريبه على إدارة املاكهما ليكون وريثاً لهما ومخلداً لاسميهما.

الصياد والخيانة الزوجية

ومن المحتمل أن يعتبر الصياد، نتيجة القيم التي يؤمن بها، يمين الزواج والعهود التي يقطعها على نفسه مجرد طقوس اجتماعية أو فلكلورية، وبالتالي فهي مجرد رسميات خاوية، لا تفرض عليه اِلتزامات دينية أو أخلاقية، ولذلك فقد ينكث بيمينه ووعوده إذا لم يعد الزواج مربحاً بالنسبة له أو بسبب الملل، والدليل على ذلك هو العدد الغفير من الأزواج، الذين يقترفون الخيانة الزوجية كل يوم، وفي مختلف المجتمعات.

في مقال حول الخيانة الزوجية والعوامل المرتبطة بها يذكر أتكنز وبوكوم وجاكوبسن Atkins, Baucom and Jacobson (2001) بأن أحدث الإحصاءات في أمريكا تدل على أن نسبة ما بين 20 و25 بالمائة من الأزواج، أي الزوج أو الزوجة، سيقترفون الخيانة الزوجية، كما يقدر بعض مستشاري الأزواج بأن ما بين 50 إلى 65 بالمائة من المترددين على عياداتهم يطلبون مساعدتهم لمعالجة الاثار السلبية للخيانة الزوجية، وكانت الخيانة الزوجية أكثر انتشاراً بين الرجال أما الآن فيلاحظ بأن أعداداً متزايدة من الزوجات يقعن فيها، ووفقاً لنفس المصدر فقد بينت دراسة لأزواج أقروا بممارسة الخيانة الزوجية بأن الزوجات أكثر إباحية، إذ بلغ معدل عشاقهن 2.3 بالمعدل مقارنة بمعدل 1.8 عشيقات للرجال، ولعل شيوع الخيانة الزوجية خاصة في المجتمعات الغربية وراء إنشاء جمعية لترتيب التعارف بين الأزواج والزوجات الراغبين في اقتراف الخيانة الزوجية مؤخراً، ويدعي مالكو موقع إلكتروني لنفس الغرض بأن عدد المسجلين في الموقع بلغ مئات الألاف.

لا تؤدي معظم الخيانات الزوجية إلى إنجاب أطفال من غير الزوج، لكن ذلك يحدث في بعض الأحيان، ويقدر بيكر وبيليس Baker and Bellis (1995) نسبة هؤلاء الأطفال في العالم بعشرة بالمائة، أما بلاتيك وشاكيلفورد Platek and Shackelford (2006) فيشيران إلى أن

نتائج اختبار الأبوة على 280000 حالة اثبتت بأن 30 بالمائة من الأبناء هم من غير الأزواج أو الأخدان، وهي نسب مقلقة بالنسبة للآباء بدون شك.

يؤكد أندرسون Andersen (1996) اقتراف الرئيس الأمريكي الأسبق جون كندي للخيانة الزوجية مع العديد من النساء، وقرأ الكاتب في ذلك عجز كندي عن الارتباط بالنساء على أي صعيد إنساني باستثناء العلاقات الجنسية، وأرجع ذلك إلى افتقاره لحنان الأم، ومهما كانت الأسباب أو الذرائع التي سولت للرئيس الأمريكي خيانة زوجته فهو بالتأكيد لم يكن يقدم على ذلك لو لم يعطي لنفسه الحق في ارتكابها ومن دون أي اكتراث لمشاعر زوجته وأم أولاده لو عرفت بها، وهكذا يفكر ويتصرف الصياد القوي.

وتعرف الباحثون على أسباب أخرى للخيانة الزوجية، منها انخفاض الوازع الضميري والنرجسية والعدوانية المفرطة (Buss and Shackelford, 1997). ولا بد من التذكر هنا بأن المغفرة ليست من شيم الصياد، ففي أقل الاحتمالات قد يهمل الزوج الأبناء الذين يشك في أبوتهم لهم، كما أن من المحتمل أن تكون ردة فعل الصياد المخدوع أو المهجور عنيفة، ويزخر عالم الحقيقة والخيال الروائي بالشواهد والأمثلة على ذلك، وتشكل الجرائم العاطفية من هذا النوع نسبة عالية من الجرائم الكبرى في مختلف المجتمعات، ومن أشهر الأزواج الذي قادتهم الخيانة الزوجية أو توهمهم بوقوعها إلى قتل زوجاتهم الملك شهريار وعطيل، وعندما تزوج شهريار من شهرزاد في رواية ألف ليلة وليلة كان يعاني من عقدة الشك بكل النساء، وبعد مشاهدته لخيانة زوجته جن جنون الانتقام في نفسه، إلى حد دفع به إلى قتل كل امرأة يتزوج بها في اليوم التالي للعرس، حتى لا تتكرر الخيانة المؤلمة، وقد نجت شهرزاد من المصير ذاته من خلال تأجيل التنفيذ ليلة بعد ليلة من خلال تشويقه لسماع المزيد من قصصها، حتى تخلص شهريار من عقدته، وقد تحول حب عطيل لزوجته ديدمونة في مسرحية عطيل لشكسبير إلى كراهية شديدة بعد اقتناعه بخيانتها له انتهت به إلى قتلها خنقاً، وفي بعض المجتمعات تجيز الأعراف الاجتماعية قتل الزوجة التي تقيم علاقة مع رجل آخر، ففي الباكستان على سبيل المثال يذكر عبد الله الهلال Al-Helal (2013) بأن حوالي ألف امرأة قتلت "غسلاً للعار" في 2010م، أما النساء فيعمد البعض منهن إلى الانتحار وأحياناً قتل أبناءهن والانتحار بعد اكتشافهن خيانة أزواجهن.

وللخيانة الزوجية نتائج وخيمة على الأبناء، كما يتضح من نتائج دراسة للباحثتين نوجالس وبيلوتي Nogales and Bellotti (2009)، وتكونت عينة الدراسة من ثمانمائة من أبناء أزواج اقترفوا خيانة زوجية، إذ أفاد معظم المجيبين بأنهم تأثروا سلباً بذلك، ومن بين هذه النتائج السلبية ما يلي: مرارة الشعور بخذلان الأب أو الأم الخائنة لهم، والخجل من ذكر الخيانة أمام الأصدقاء، والتغير في نظرتهم للمحبة والعلاقات، وتدني ثقتهم بالآخرين، والاقتناع بأن الآخرين يكذبون بشكل متكرر.

سيطرة الصياد والعنف داخل الزواج

تلقي صفتان مميزتان للصياد بظلالهما على زواجه، بل كافة علاقاته الاجتماعية، وهما ولعه بالسيطرة وبرودة عواطفه، مما يزيده إصراراً على فرض قيود وضوابط صارمة على العلاقات والسلوك داخل عائلته، تؤدي بنتيجتها إلى اضعاف التلقائية والعفوية داخلها، وبالتالي تكون عائلته أشبه بنظام آلي أو جهاز ميكانيكي، العلاقات فيها منظمة وروتينية ومتكررة، وتكاد تكون شبه خالية من العواطف الصادقة، ويصبح السلوك المعبر عن هذه العواطف وجيشانها مثل العناق وتبادل رسائل وبطاقات التهنئة مجرد واجبات رسمية أو طقوس بروتوكولية، هدفها الحفاظ على مظاهر وواجهة براقة، توحي بأن العائلة سعيدة، في الوقت الذي تكون فيها العلاقات الصادقة مفقودة أو واهية نتيجة تنميط وروتينية العلاقات.

ومن غير المستبعد اعتماد الصياد المهووس بالسيطرة للخداع داخل الزواج، وهنالك أنواع من الخداع، قد يكون أبسطها عدم المصارحة أو الكذب، ويبرر الطرف الكاذب ذلك بضرورته

لديمومة العلاقة الزوجية واستمرار حالة الوئام بين الزوجين، فقد يخالف الحقيقة عندما يتظاهر أمام عائلتهما والغير بأن حياتهما الزوجية سعيدة، ولو أنشأ علاقة مع امرأة أخرى فسيحرص على اخفاء ذلك عن زوجته.

يعتقد الصياد بأن للمكافآت والحوافز المالية والمادية الأخرى أبلغ الأثر في تغيير السلوك وتوطيد العلاقات والتعبير عنها، ويتوقع أن يكون للمبالغ المالية والهدايا القيمة التي يقدمها لأفراد عائلته مفعولاً على فكرهم وسلوكهم أقوى من أي عاطفة إيجابية، وما يطمح الصياد للحصول عليه مقابل هداياه ليس مجرد الشكر بل الطاعة والاحترام والولاء، وهو ينتظر من عائلته معاملته باحترام وتقديم البرهان على ولائهم له كثمن لوفائه بالتزاماته العائلية أمامهم، ويرى في الولاء عاطفة حقيقية وعقلانية أقوى من المودة والحنان، وأجدر بأن تكون أساساً متيناً لروابط ثابتة.

وفي رواية ذي اللحية الزرقاء Blue Beard للمؤلف شارلز بيرو Charles Perrault يتلذذ بطل الرواية بقتل زوجاته لسبب أبسط بكثير من الخيانة الزوجية، وهو عدم الطاعة، وتوجد أسباب أخرى للعنف بين الزوجين، فقد يكون سبب العنف كامناً في طفولة الزوج أو الزوجة، فقد تبين بأن الفرد الذي يشهد حلات من العنف بين أبويه يكون أكثر استعداداً لتكرار ذلك بعد الزواج، أي أن يشابه الفرد أبيه أو أمه.

ويحرص الصياد على أن تكون السيطرة بيده داخل الزواج، وفي المجتمعات التقليدية اعترفت القيم والعادات الاجتماعية والأحكام الدينية للزوج بسلطة مطلقة أو شبه مطلقة على زوجته، وفي مرحلة ما قبل خروج المرأة للعمل وحصولها على دخل خاص بها وتغيير قوانين الطلاق ضمنت القوة الاقتصادية للزوج درجة عالية نسبياً من السيطرة داخل العائلة، ولم يعد بإمكان الصياد في المجتمعات المتطورة ممارسة نفس القدر من السيطرة، وتوصل الباحثان جيريس وفيرستون Geris and Firestone (2004) بأن احتمال استعمال العنف يرتفع لو كان الزوج يعتبر زوجته مثل ممتلكاته، فهو يحرص على الاحتفاظ بها، ويستعمل العنف لمنعها من حتى التفكير بذلك، وقد يقدم على قتلها لو هجرته، ويستدل على خطورة ظاهرة العنف داخل العائلة الأمريكية من حقيقة أن العديد من قتلى الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكية يسقطون ضحايا في محاولاتهم فض شجارات عائلية.

في المجتمعات العربية تتباين طبيعة العلاقات الزوجية باختلاف البيئة الثقافية والتعليم والمستوى المعيشي وغيرها من العوامل المؤثرة، ففي المجتمعات الريفية حيث تمارس القيم والعادات التقليدية يهيمن الزوج على زوجته، وتخف درجة سيطرة الأزواج في المدن ومع ارتفاع المستوى التعليمي للزوجين وعمل الزوجة خارج المنزل، وعلى الرغم من التحسن النسبي في أوضاع المرأة العربية فما تزال نسبة غير قليلة من النساء يتعرضن لسوء المعاملة والتعنيف، وهي ظاهرة مشتركة بين المجتمعات العربية على اختلافها، وتشير نتائج توصل إليها باحثون عراقيون (Al-Atrushi, Al-Tawail, Shabila and Al-Hadithi 2013) إلى أن نسبة العنف ضد المرأة في مدينة أربيل العراقية مماثل لنسبته في العاصمة بغداد (58%)، أما في مدينة حلب السورية فقد أفادت 26 بالمائة من عينة من المتزوجات بتعرضهن للضرب خلال العام السابق لإجراء الدراسة التي أعدها مزياك وأصفر (Maziak and Asfar (2003، ولأن قيم المجتمع تسوغ للرجل استعمال العنف ضد المرأة فقد لا يتردد بعض الرجال في المجتمعات العربية من الكشف عن ممارستهم لهذا العنف، وعلى سبيل المثال فقد أقر 30 بالمائة من الرجال في عينة دراسة المسيعد Al-Mosaed (2004) في مدينة جدة السعودية باستعمالهم العنف ضد النساء في عوائلهم، وأكد 41 بالمائة من الذكور والإناث في العينة نفسها تعرض النساء في عوائلهم للعنف، وفي مراجعة للدراسات المتوفرة حول الموضوع في مصر توصلت الباحثتان سوماك وأبو زيد Somach and Abou Zeid (2009) إلى أن العنف ضد المرأة المصرية ظاهرة متفشية، واستدلا على ذلك من نتائج مسح حكومي في عام 2005م أظهرت بأن 47 بالمائة من النسوة تعرضن للعنف منذ بلوغهن سن الخامسة عشرة، كما أفادت 36 بالمائة من عينة كبيرة من النسوة المتزوجات بتعرضهن للعنف العاطفي أو البدني أو الجنسي من قبل

أزواجهن، وعندما تقيم المرأة المصرية - والعربية بصورة عامة - علاقات خارج الزواج فقد تتعرض للقتل من قبل أفراد عائلتها "غسلاً للعار"، كما أن الزوجة المصرية المعنفة أكثر ميلاً لاستعمال التعنيف في معاملة أطفالها (Dalal, Lawoko and Jansson, 2010)، ومن ناحية أخرى فقد تدفع المعاملة القاسية للزوج بزوجته إلى الانحراف واقتراف جرائم كما تبين من نتائج دراسة لمحمد السيف (2005) على عينة من نزيلات السجون السعودية، وتضمنت قائمة الأسباب أو المبررات الرئيسية لانحراف النزيلات ودخولهن السجن معاملة الزوج الخالية من الحنان والرغبة بالانتقام من الزوج أو الأسرة، كما استنتج الباحث بأن معاملة الأزواج القاسية أو اهمالهم لزوجاتهم يؤدي بهن أحياناً إلى الانتقام من أزواجهن من خلال ممارستهن للخيانة الزوجية وتناول المخدرات.

الزواج بين صيادين

عندما يكون الزوجان أقرب في الفكر والسلوك إلى نموذج الصياد فإن اهتمامهما المشترك سينصب على الاستكثار من معين القوة والمكاسب، وهما بالأساس أشبه بحزبين أو كتلتين سياسيتين، لا يفكران في تشكيل ائتلاف إلا إذا كانت حصيلة ذلك من المنافع لكل منهما أعظم مما لديهما قبل التحالف أو الزواج، ولهذا السبب نجد أن الدول الأوروبية تجاوزت الفروق السياسية والاقتصادية والثقافية واللغوية لتتحد في سبيل الحصول على منافع أكثر، ومن الواضح بأن هذا الاتحاد، سواء كان على صعيد الكيانات أو الأفراد، قد يتطلب القبول ببعض التنازلات مقابل الحصول على منافع أكبر.

لا يتوقع لمتنافسين على بطولة العالم للملاكمة أن يصبحا صديقين حميمين، ولو تبين وجود صداقة بين مديرين تنفيذيين يعملان في شركتين متنافستين لثارت الريبة والشكوك حول ما يدور بينهما في الخفاء من تبادل للمعلومات أو حتى مؤامرات تستهدف أي من الشركتين، ولكن في ظل غياب التنافس الحاد حول المصالح المحددة أو النفوذ في نفس المجال فإن من المتوقع أن يميل الصياد إلى الارتباط بصياد مثله، وتنطبق هذه القاعدة على كافة أنواع الارتباطات، بضمنها الزواج، ومن المعتاد أن يختار أفراد الطبقة الاجتماعية العليا أو النخبة الاجتماعية أمثالهم كأصدقاء أو شركاء في العمليات المالية والتجارية أو الزواج، وعلى الرغم من تخلخل أو حتى ذوبان الفروق الطبقية فما زالت هذه القاعدة مطبقة إلى حد كبير، وعلى سبيل المثال لاحظ الكاتبتان جولتر ومننجر (1993) Goulter and Minninger بأن النساء الناجحات غالباً ما يقمن علاقات صداقة، أو يتزوجن برجال ناجحين.

ما الذي يحدو بصياد ناجح وثري ومتنفذ للتخلي عن حياة العزوبية والإقدام على الزواج؟ نجد الجواب في حقيقة أن الصياد مهما بلغ من القدرة والبراعة فلن يستطيع تسلق كافة القمم الاجتماعية والمالية والسياسية وغيرها، وقد يجد في الزواج الفرصة لإضافة نصر آخر لقائمة انتصاراته التي يتفاخر بها، من دون بذل الجهد المطلوب لذلك، والمثال على ذلك زواج سياسي ناجح أو رجل أعمال ثري من مديرة مكتبه، فإذا كانت مديرة المكتب شابة جميلة، وهو المرجح عادة، فستبادل جمالها وشبابها مقابل جانب من ثروة ونفوذ ومكانة زوجها، ولا بد من أن تكون هذه الفائدة متبادلة للزوجين الصيادين، وكذلك عندما يقترن رجل أعمال ثري بممثلة مشهورة، إذ ستحصل هي على جانب من ثروته ونفوذه ومكانته الاجتماعية، ومقابل ذلك سيحظى هو بشطر من شهرتها والأضواء المسلطة عليها، وفي كل الحالات تشكل الروابط العاطفية جزءاً يسيراً من العلاقة الزوجية بين الإثنين، وهذا ما نجده متمثلاً في زواج جاكلين كندي أرملة الرئيس الأسبق الراحل جون كنيدي من الثري اليوناني أوناسيس، والذي اعتبره الكثيرون زواج مصلحة لا غير، إذ لم يعيقه الفارق العمري ولا التباين في المذهب والهوية الثقافية والخلفية الاجتماعية والعادات

والتقاليد، ونستدل على أن الكثير من هذه الزيجات هي أشبه ما تكون بالصفقات التجارية من حرص الطرف الأثرى والأقوى على إبرام ما يسمى باتفاق أو عقد ما قبل الزواج pre-nuptial agreement، والذي تتحدد بموجب بنوده الحقوق المالية للطرفين في حالة انفكاك عرى الزوجية.

وقد يبذل زوجان من المشاهير كل جهديهما لإقناع الآخرين بأن زواجهما ناجح، وليس مجرد حبر على ورق، فيستعينا بمستشارين وشركات إعلام ودعاية لإعداد وتنفيذ الحملات الإعلامية لهذا الغرض، وقد يتضمن ذلك خروجهما على الملأ سوية، وفي مناسبات مختارة ومتفق عليها سلفاً، ليصرحا ويكررا بأنهما سعيدان سوية، وهما يتبادلان عاطفة الحب والرغبة في ديمومة رابطة الزواج بينهما، قد لا تكون هذه الواجهة البراقة لزواجهما أكثر من قناع أو ستار، يخفيان وراءه حقيقة علاقتهما الزوجية المصطنعة والمجدبة من المشاعر الصادقة، والواقع هو أن نقاط التلاقي والتقاطع بين مساري حياتيهما قليلة وقصيرة زمنياً، والمشترك بينهما غير كاف للصمود أمام المشاكل والخلافات، الجادة منها بل وحتى الصغيرة والثانوية أحياناً.

ويواجه هذا النوع من الزيجات وضعاً حرجاً، ويكون هشاً أمام الأزمات التي تواجه معظم الزيجات، وذلك بسبب غياب عاطفتي الحب والحنان الضروريتين من أجل التغلب على الخلافات واعتماد المغفرة والصفح عند اقتراف أي منهما لأخطاء في حق الثاني، كما يتعرض هذا النوع من الزيجات لهزة عنيفة إذا فقد أي من طرفيه قوته ومزاياه، والتي اجتذبت الطرف الثاني وأقنعته أو اقنعتها بالزواج أصلاً، وهي بمثابة الجسور التي يعبران عليها للتواصل بينهما، فإذا انهارت هذه الجسور، كلياً أو حتى جزئياً، انحدرت قيمة الزواج أو حتى اضمحلت بالنسبة للطرف الأكثر قوة، فالثري المتزوج من ممثلة أو مغنية مشهورة يتوقع منها الحفاظ على جمالها وشهرتها، فإذا انطفأت الشهرة وذبل الجمال تفقد الزوجة قيمتها في عينيه، آنذاك قد يصبح الانفصال بديلاً أفضل من الاستمرار بالزواج لهذا الطرف بالذات.

يختلف الزواج جذرياً لو كان أحد الزوجين او كلاهما صياد محبط، أي صياد فشل في تحقيق طموحاته، أو ما زال يسعى لذلك، وعلى الأغلب يكون للصياد مستوى عال من التوقعات والتوق للحصول على القوة والنفوذ والأموال والممتلكات والتفوق والشهرة، ولكن وبعد خيبات أمل متكررة يواجه اختيارين، فأما أن يعمد مرغماً لتخفيض سقف تمنياته وطموحه إلى المستوى المتناسب مع قدراته والفرص المتاحة أمامه، أو أن يتمسك بعناد بأحلامه غير الواقعية، ويقضي بقية حياته في حالة احباط متواصلة.

إن احتمال حدوث زواج بين صياد ناجح وآخر محبط نادر جداً، لأن الفوائد التي يجنيها الصياد أو الصيادة الناجحة من هذا الزواج قليلة، ولكن من الممكن أن يجمع نمط الحياة المشترك بينهما، مع احتمال تحول القوى الجاذبة بينهما فيما بعد إلى معاول تحطم زواجهما، وقد يكون الطرف المحبط منهما شريكاً غير جدير بالثقة، فإذا كانت العلاقة بين صيادين ناجحين نافعة للطرفين فإن الزواج بين ناجح ومحبط من هذا النوع ستكون على الأغلب علاقة طفيلية، يتطفل فيها الطرف الخائب والمحبط على قوة وثروة ومكانة الطرف الناجح، ولن يستطيع الصياد الطموح المحبط من جمح نزعته للتسلط على استغلال هذه العلاقة الزوجية لبلوغ طموحاته، مما قد يؤدي إلى خلافات عميقة ومستمرة، تهدأ أحياناً بسبب الإرهاق العصبي للطرفين، وبفعل هدنات مؤقتة، لكنها لن تنتهي إلا إذا انفصمت عرى الزوجية.

لو كان الصياد محبطاً فقد يستغل زواجه للتعويض ولو جزئياً أو حتى رمزياً عن فشله في سبيل رفع معنوياته ورضاه عن ذاته وصورته في المجتمع، وهذا الصياد الفاشل في مقاييس الصيادين والذي لا يستطيع السيطرة على العالم، أو على الأقل الجانب من عالمه الذي يراه من استحقاقه، قد يعالج فشله من خلال تشديد السيطرة على عائلته، ولو اطلعت على صورته مع عائلته الموضوعة على سطح مكتبه أو المعلقة على جدار منزله ستراه وعلى وجهه ابتسامة عريضة، واقفاً أو جالساً جنباً إلى جنب زوجته وأبناءه، ولكنه في الواقع ينظر إليهم باعتبارهم امتداداً لشخصه، والزوجة بالنسبة له قد لا تكون أكثر من مدبرة بيته وشريكة فراشه ومربية

أولاده، ورأيها في كثير من الأمور غير مرحب به، وهو أصلاً لا يتيح مجالاً كبيراً لزوجته أو اولاده للتعبير عن آرائهم، وإن فعلوا ذلك فرأيهم غير مسموع، ولا يوليه أهمية أو اهتماماً، وقد لا يسمح لأي منهم باستعمال موارد العائلة، كثيرها أو قليلها، إلا بموافقته.

يؤدي الجو المشحون للعلاقة داخل زواج بين صيادين غير متكافئين في القوة إلى معاناة الطرف الأضعف، نتيجة الكبت المتواصل لمشاعر القهر والعجز، مما قد يؤدي إلى إحباط مزمن، وينذر بالانفجار فيما بعد، وقد تدوم هذه الزيجات فترة طويلة، مادام الطرف الأضعف مستعداً لتحمل ظروفها وتبعاتها، أو حتى نفاذ صبر وتحمل الطرف المقهور، وقد ينهار الزواج فجأة وبدون مقدمات مثل بيت من ورق، آنذاك فقط يظهر للعلن ما كان خافياً من تعاسة وعذاب.

يلجأ الصيادون المعاصرون إلى المستشارين والمختصين الاجتماعيين لمساعدتهم في تحسين علاقاتهم العائلية، ويسترشدون بالنصائح التي تحتويها مؤلفاتهم، أو يصرحون بها في برامجهم التلفزيونية، في حل مشكلاتهم العائلية وتربية أبناءهم، ولا شك بأن لهؤلاء المستشارين معلومات وخبرات مفيدة ولا يستهان بها، تمكنهم من تقديم نصائح مفيدة، تركز عادة على مجابهة المشاكل وعدم التهرب منها او إنكار وجودها، وعلى اتباع أسلوب المكاشفة والمصارحة في طرح المشكلات والتعامل معها بإيجابية، ويؤكدون على أهمية التواصل والاتصال بين أفراد العائلة وعدم انكفائهم على الذات والانغلاق على الباقين، مما سيساعد في حل المشاكل العالقة بينهم، ولكن تحويل الزواج من مجرد علاقة تبادلية رسمية وشبه آلية إلى ارتباط عضوي وثيق مبني على التفاهم والاحترام والثقة والمودة أمر صعب، لا يقدر عليه سوى الزوجان، وقد يتطلب منهما أو من أحدهما على الأقل تغيير نمط الحياة.

زواج الأضداد

هو زواج النقيضين، اللذين يختلفان حول فلسفة الحياة وكيفية التعامل مع الآخرين، ومع بعضهما البعض بالطبع، ولكل منهما قيم مختلفة جذرياً، فبينما يسعى الصياد الأناني للحصول على القوة والمزيد منها على الدوام، وعلى الاستقلال والمقتنيات والمكانة، يحرص المزارع الملتزم على التمسك بقيم التعاون والتعاطف والتضامن الاجتماعي، فليس من المستغرب أن يستهجن كل منهما الآخر، إذ يعتبر الصياد هنا المزارع إنساناً ساذجاً وحالماً وغير واقعي، وقليل الخبرة في أمور الدنيا، إن لم يكن منفصماً عن حقيقة العالم من حوله، وبالمقابل فإن صورة الصياد في ذهن المزارع غير إيجابية، تبرز فيها الأنانية والجشع والنظرة السلبية للآخرين والتعامل معهم بطريقة تخلو من التعاطف والثقة والتعاون، ولا تترك هذه الفروق الفردية الحادة مجالاً واسعاً للتفاهم والتوافق، مما يجعل احتمال نجاح زواج بينهما ضئيل جداً، ولكن ذلك لا ينفي احتمال حدوث اقتران بين هذين الضدين، أما بحكم العادات والتقاليد في المجتمعات التقليدية، أو لعدم ظهور سمات شخصيتهما بصورة واضحة وجلية قبل الزواج، وكذلك لطبيعة المزارع التي تغلب حسن الظن والتعاطف والتفهم، أو لأن الصياد استخدم التظاهر والخداع في سبيل ذلك، إذ يعتبر الصياد المزارع مجرد طريدة، وتزداد قيمة هذه الطريدة إذا كان لديها ما يبتغيه الصياد من ثروة ومكانة اجتماعية وشهرة وغيرها، ولو كان الزواج طريقة مضمونة للحصول على هذه المزايا أو على حصة ذات قيمة منها فلن يتردد الصياد في الاحتيال على الطرف الآخر، وأداء الأدوار التي يتطلبها ذلك بمهارة يستحق عليها جائزة أوسكار، وسيتظاهر بالمحبة والتعاطف والحنان والرقة، التي لا يمارسها أو حتى يشعر بها عادة في حياته الاعتيادية، وسيكون أداؤه مقنعاً بما فيه الكفاية، وقد يستمر في تمثيل ذلك الدور حتى بعد الزواج لضمان استمراره حتى بلوغ أهدافه الأنانية كلها.

عاجلاً أم آجلاً سيسقط القناع كاشفاً عن حقيقة الصياد، وسيكون ذلك مؤلماً للطرف الثاني، وسيدرك بأنه كان ضحية للخداع والاستغلال، وذلك بسبب طيبته وحسن ظنه وثقته بالغير، وهنا سيسارع الصياد للتراجع وتغطية موقفه، من خلال طلب الصفح والمغفرة، وهي في نظره نقطة

ضعف آخري لدى المزارع، وقد ينجح في استئناف العلاقة من النقطة التي انتهت لها قبل اكتشاف حقيقته ونواياه، والبديل الآخر وهو الأصعب ينطوي على اقدام الصياد على التخلي عن التظاهر والتمثيل داخل الزواج والانتقال إلى استراتيجيته المعهودة من خلال محاولة فرض سيطرته وإرادته بصورة كاملة أو شبه كاملة، واحتمال نجاح هذا الاسلوب ضعيف – وهو ما يدركه الصياد ولولا ذلك لما تكلف عناء التظاهر بغير طبيعته اصلاً – والرد المتوقع على ذلك من المزارع القوي والملتزم هو محاولة تغيير الصياد، أو بالأحرى "إصلاحه" واقناعه لكي ينبذ أسلوب حياته، وقد يبذل المزارع جهداً صادقاً واستثنائياً في سبيل ذلك، وباستعمال أساليب شتى، من أهمها القدوة الحسنة، ولكن احتمال نجاح هذه المحاولة منخفض نظراً لتشدد الصياد وتمسكه بنمط حياته، واحتقاره الشديد للمزارع وأسلوبه في الحياة، وفي غياب العواطف الحقيقية بين الزوجين يصبح الزواج بالنسبة للمزارع الملتزم جحيماً لا يطاق، ولكن الطلاق أبغض الحلال عند المزارع، وآخر ما يفكر فيه، ويقدم عليه، لأنه يتعارض مع قيم ومبادئ المزارع، الذي يعتبره إخفاقاً شخصياً له ولهذه القيم، ويزداد نفوره من الطلاق لو كان للزوجين أبناء، خوفاً مما سيسببه الطلاق لهم من ألم وحرمان وعقد نفسية، لذا فقد يضحي بسعادته من أجلهم.

مزايا الزواج من مزارع

للزواج من مزارع مزايا عديدة، ناجمة عن كونه فرداً اجتماعياً عطوفاً ومحباً للغير، كما يعرف بحرصه الجم وبذله كل ما هو متاح من وقت وجهد من أجل رعاية مصالح أسرته وإسعاد أفرادها، وذلك لأن نظرته للزواج والعائلة ودورهما في حياته مختلف جذرياً عما يتمسك به ويمارسه الصياد، فالمزارع لا يضع قيمة عالية أو أولوية متقدمة للمنافع المادية والمعنوية الأنانية التي يجنيها أو يتوقعها من الزواج لأن اهتمامه منصب بالدرجة الأولى على الروابط الاجتماعية والرضا العاطفي الناتج عن الزواج، ويجسد الزواج بالنسبة له اِلتزامه بقيم المجتمع الذي ينتمي إليه، ويشكل برهاناً قاطعاً على اهتمامه ومودته للغير، والزواج مصدر لشعور الفرد بالاطمئنان والأمان ، كما يرى الكاتبان دالي وولسون Daly and Wilson (1990) ، وهذا ما يسعى إليه المزارع بشكل خاص.

المزارع الأكثر تمسكاً بالزواج والمؤمن بقيم العدالة والاخلاص والصدق أبعد من اقتراف الخيانة الزوجية أو أي نوع من أنواع الإساءة أو القسوة المتعمدة لأحبائه وأعزاءه الأقربين، وفي اخلاصه وتفانيه في السعي وراء مصالح أسرته غالباً ما يقدم رفاهية أفراد أسرته على احتياجاته الأساسية، وشهدت كازيز Kazez (2007) على ذلك عندما كتبت بأن اهتماماتها في الحياة بعد الإنجاب تحولت جذرياً من التركيز على العمل والمستقبل الوظيفي إلى العائلة، ونجد مثالاً على قيم وسلوك المزارع ضمن علاقة الزواج في شخصية زوجة ماكاوبر في رواية تشارلز ديكنز الرائعة ديفيد كوبرفيلد، وبعد حبس زوجها في سجن المديونين المعسرين اختارت دخول السجن لتكون بصحبة زوجها، فهي ضحت بحريتها لتواسيه وتخفف من وطأة السجن عليه، وهكذا يتميز زواج المزارع بالروابط القوية المبنية على القيم العليا والاختيارات المشتركة ومشاعر المحبة المتبادلة والالتزامات الدائمة.

إذا تزوج رجل بامرأة لها قيم وسلوك المزارع سيضمن بأنها ستبذل كل ما في وسعها لإسعاده، ولكن لن يكون لها نصيب مماثل من هذه السعادة إذا لم يكن زوجها يشاطرها الاعتقاد بنفس القيم وأسلوب الحياة، فالمزارع وحده قادر على مبادلة مثيله العواطف الصادقة والالتزام غير المشروط، ولا نستغرب إذا أبدى المزارع أحياناً تردداً في اتخاذ القرار بالتزوج، لإن استعداد المزارع للتنازل والتضحية ببعض مصالحه وراحته من أجل نجاح الرابطة الزوجية قد يجعله عرضة للاستغلال، وبينما يختار الصياد العزوبية مدفوعاً برغبته القوية في الحفاظ على فرديته واستقلاله فقد يعيش المزارع وحيداً، ويتحمل تعاسة الوحدة خشية الاستغلال والامتهان والقسوة داخل الزواج، وعلى عكس الصياد الذي يسارع إلى الطلاق لأتفه الأسباب أحياناً يعتبر

المزارع الطلاق آخر علاج مر أو مخرج وعر من زواج فاشل، وغالباً ما سيطبق نصيحة الفيلسوف جون ستيوارت ميل بالصبر على الأسى، لأن الشعور المؤلم مآله التبدد ولو بعد حين.

للأبناء قيمة عالية للمزارع، ولأسباب مختلفة عن تلك الخاصة بالصياد، إذ إن إنجاب وتربية الأولاد مصدر سعادة ورضا للمزارع المتميز بالعواطف الإيجابية القوية والتآلف، وهذا الرضا نابع من الحالة ذاتها، وليس من فوائد أو مصالح يجنيها منها، ويذكر الباحثان جولتر ومننجر Goulter and Minninger (1993) بأن الاباء الذين تربطهم بأبنائهم علاقات وثيقة يتمتعون بوضع صحي أفضل من أولئك الذين لا أبناء لهم أو أن علاقتهم بأبنائهم متوترة وغير سوية، وإذا كان بعض المزارعين مترددين في إنجاب أولاد فالسبب هو على الأغلب إشفاقهم على أبنائهم من قسوة وظلم العالم وما قد يعانونه من تعاسة في الدنيا، وليس تهرباً من التكلفة الاقتصادية أو الأعباء العاطفية المترتبة على تنشئة وتربية الأبناء، وهؤلاء وجلون من الظلم الاجتماعي كما يصفهم لوبريتو Lopereato (1983) .

الزواج بين مزارعين هو الزواج المثالي، من وجهة نظري الشخصية، فالمزارع هو وحده القادر على فهم وتقدير مزارع آخر، وتقييم فكره وسلوكه وطريقته في الحياة، لذا ينبغي على الفرد من صنف المزارع أن يتزوج من نوعه، وأي بديل آخر سيؤدي بالضرورة إلى زواج متعثر مليء بالمشاكل والخلافات ومهدد بالزوال، ويكون الخاسر الرئيسي فيه هو المزارع بالطبع، ويتميز هذا الزواج بكونه ارتباط بين قلبين مرهفين وعقلين متفاهمين في نفس الوقت، ويشترك الطرفان هنا في المبادئ والقيم الأخلاقية ونمط الحياة والنظرة للعالم من حولهما، وتشكل هذه القواسم المشتركة قاعدة واسعة وصلبة لديمومة العلاقة الزوجية، وهو زواج سعيد بحكم ما يتصف به طرفا الزواج من أحاسيس مرهفة وتعاطف قوي وحب واهتمام متبادلين، وإن كان هذا الزواج مبرم في الجنة، كما يقول المثل الإنكليزي، فهو قائم على الأرض، حيث يسيطر الصياد وأهدافه الأنانية وهوسه بالسيطرة والقوة لذا ينبغي على الزوجين المزارعين الصبر والتضامن فيما بينهما لكي يتحملا نصيبهما من خيبات الأمل والإحباط .

التأقلم داخل الزواج

اسداء النصح للناس حول كيفية اختيار الزوج المناسب أسهل بكثير من محاولة انقاذ زواج متصدع، وكما ذكرت سابقاً لا بد من وجود التجانس بين نمط حياة الزوجين لبلوغ هدفي الديمومة والسعادة الزوجية، واغفال هذا الشرط مخاطرة كبيرة، يمكن أن تؤدي إلى أي من الحالات التالية: الافتراق المفضي إلى الطلاق، أو زواج مستقر ولكن غير سعيد، أو زواج ينطوي على تنازلات وتضحيات من أحد أو كلا الطرفين، وكل هذه الحالات سلبية بدرجة أو أخرى.

إن تغيير الفرد لنمط حياته أمر صعب جداً، يتطلب من الفرد اقتناعاً وتصميماً ومثابرة وتضحية، والحفاظ على الزواج قد لا يشكل سبباً كافياً لكي يقدم فرد على تغيير نمط حياته بصورة يجعله أكثر تجانساً وملائمة مع نمط حياة شريك الرابطة الزوجية، وفي هذه الحالة قد يكون من الأهون الاكتفاء بالتظاهر بذلك من خلال بعض التنازلات المؤقتة، وابداء المواقف والسلوكيات للدلالة على ذلك، وقد يستمر أحد الطرفين أو كلاهما في لعب هذا الدور التمثيلي حتى تمر الأزمة التي تهدد زواجه بسلام، لكي يعود بعد ذلك لمزاولة طريقة حياته الاعتيادية.

كلنا قادرون على تمثيل أدوار والتظاهر بما هو ليس فينا، أي باختصار النفاق الاجتماعي، لأننا جميعنا نمتلك خواص الصياد والمزارع في نفس الوقت، ولكن بدرجات متفاوتة، ونحن جميعاً حاذقون في تمثيل دور المزارع المحب والعاطفي مع أزواجنا وأبنائنا وأفراد عوائلنا وأصدقائنا، وباستطاعتنا كذلك أن نصبح وبلحظة عين صيادين أنانيين قساة القلوب مع أعدائنا وبقية البشر، وفي سبيل إرضاء زوجته المغتاظة بمقدور الصياد المتلاعب بالعواطف إخفاء نمط حياته المعتاد والرئيسي والتحول مؤقتاً إلى نمط وسلوكيات المزارع المكبوت داخله، فيتخلى عن دور المتسلط إلى الحنون العطوف المتفهم، وبالإضافة إلى هذه السلوكيات العاطفية الطارئة

وغير المتوقعة تجاه زوجته فقد يجد حاجة لخطوات عملية معبرة عن ذلك مثل قضاء أمسية ممتعة خارج المنزل أو إجازة في منتجع، وما أن تحقق هذه الألاعيب العاطفية هدفها في إرضاء الزوجة واطمئنانها على اخلاص ومحبة زوجها لها حتى يعاود الزوج الصياد الروتين السابق لعلاقته بزوجته، والتي محورها سيطرته التامة أو شبه التامة على الأمور المشتركة الرئيسية بينهما.

إن المتوقع من الطرف الأضعف في هذه العلاقة الرضوخ لإملاءات الطرف الأقوى، والتي قد تنطوي في أحسن الأحوال على مكرمات محدودة من الطرف الأقوى، ولا يزال هذا النوع من الزيجات قائماً على الرغم من التطورات الاجتماعية التي طالت كل مجتمعات العالم، ولكنه في الوقت الحاضر يتطلب من الصياد المسيطر براعة أكبر ومهارات أعلى في إدارة العلاقة الزوجية، فمن الواضح أن وضع المرأة في المجتمع تحسن كثيراً مقارنة بما كان عليه قبل الحرب العالمية الثانية، نتيجة حصولها على المزيد من الحقوق بحكم التشريعات القانونية وبفضل التعليم وخروجها للعمل ونشاط الجمعيات النسوية، لذا فلم يعد من السهل على الصياد فرض مشيئته على زوجته، وترى كلاجسبرن (1985) Klasgbrun أنه مع اتجاه النسوة في الآونة الأخيرة إلى الاعتماد على أنفسهن بدلاً من أزواجهن في توفير معيشتهن والحصول على دخل مستقل وعدم تخوفهن من نتائج الطلاق المالية فإنهن اليوم أقل استعداداً للتكيف مع مطالب الأزواج، خاصة إذا تبين لهن استحالة تحقيق ما يطمحن إليه من الزواج.

قد تنجح هذه المناورات – مع أو من دون تدخل طرف ثالث - في جر الزواج من حافة هاوية الافتراق، لكن ذلك لا ينطوي على تغيير حقيقي ودائمي في جوهر المشكلة، وهو التباين الحاد في نمط حياة الطرفين، وبالتالي ستظل المشكلة قائمة، ومرشحة للتحرك من جديد، وسيأتي اليوم الذي يصعب الالتفاف حولها أو القفز فوقها أو التظاهر بعدم وجودها، وحينئذ تصل العلاقة الزوجية إلى نقطة حرجة، يصعب عندها إنقاذ الزواج من التفكك النهائي، والسبب الرئيسي الوحيد الذي قد يوقف أو يؤجل ذلك هم الأطفال.

هل يؤمن الصياد أم المزارع بأن الطلاق أبغض الحلال؟

الجواب هو الصياد، والدليل على ذلك ارتفاع معدلات الطلاق في مختلف المجتمعات، فقد ارتفع معدل الطلاق في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال من واحد لكل 14 زواجاً في بداية القرن الماضي إلى الخُمس في منتصف القرن ثم قفز إلى خمسين بالمائة في وقتنا الحاضر، ويصف باخ وجولدبرج (1974) Bach and Goldberg، هذا الوضع بكونه أشبه بمسرحية تراجيدية ساخرة، تتعاقب فيها فصول ومشاهد خيبات الأمل العاطفية وتضارب الأمزجة، حتى بات الكثيرون يتحدثون عن نهاية وشيكة للحياة العائلية في أمريكا.

يمكن تشبيه الزواج بجسر ممتد على هاوية، يجمع بين غريبين، كانا قبل الزواج يعيشان حياتين منفصلتين، ثم تزوجا، والزواج ليس اتحاداً بالمعنى الكامل، فغدا جسر الزواج يربط بينهما ونمطي حياتهما بطريقة وثيقة وحميمة، والزواج المبني على تجانس حقيقي بين الطرفين أشبه بجسر من الصلب في قوته وشدة تحمله وصموده، ولكن عندما يكون التجانس محدوداً نجد بأن رابطة الزواج تكون بقوة وصلابة جسر خشبي، قد يكون ذلك كافياً لاستمرار العلاقة الزوجية، ما لم تعصف به أزمة كبيرة، والأمر مختلف تماماً في حالة الزواج الفاقد للتجانس بين نمطي حياة الزوجين، إذ تكون الرابطة الزوجية أوهى من قنطرة بدائية مصنوعة من جذع شجرة نخرها السوس أو حيكت من قش، وكما أن هبة ريح قوية كافية لتحطيم القنطرة فإن أزمة واحدة متوسطة الشدة قد تضعضع قواعد الزواج الهش وترمي به إلى المجهول.

إن لتشبيه الزواج بجسر نتائج واضحة بالنسبة لمحاولة انقاذ زواج، فالزواج المبني على روابط ضعيفة وهشة، خشبية أو من قش، هو بالتالي مهدد بالتصدع والانحلال، وليس مقدراً له الدوام والنجاح، وتغيير مادة الرابطة الزوجية من قش إلى خشب أو من خشب إلى حديد صلب يتطلب

وصفة سحرية، مثل حجر الفلاسفة الخرافي الذي اعتقد بعض القدماء بوجوده وبقدرته على تغيير خواص المواد وتحويل المواد الرخيصة إلى الذهب.

والصياد كما في كل المواقف يحسب الربح والخسارة قبل أن يقرر، فإذا كان هو صاحب الموارد الأكثر في الزواج فسيعطي لنفسه الحق في فرض شروطه، وإن لم يحصل على استجابة مرضية فقد يقرر الانفصال لأن خسائره في هذه الحالة قليلة أو هي أقل من خسائر الطرف الثاني (Sayer, England, Allison and Kangas 2011)، ويرى بيكر (1991) Becker بأن الزواج منطوي على توزيع للأدوار والمهام، حيث يتخصص الزوج بتوفير لقمة العيش والزوجة بالعناية بشؤون البيت، ولهذا الوضع من وجهة نظر الاقتصادي بيكر مزايا، ولكن عندما يؤدي الزوجان كلا المهام تقل كفاءة العلاقة وتكون الحوافز لنشوء الزواج أو استمراره ضئيلة.

وخلافاً لتوقعات البعض فإن المعاشرة ما قبل الزواج لا تضمن ديمومته، بل قد تكون النتيجة على العكس من ذلك، ويؤكد بودنسكي وتروفاتو Budinski and Trovato (2005) بأن احتمال افتراق الزوجين أو طلاقهما تكون بدرجة أعلى مع المعاشرة، وبالأخص في السنوات الأولى من الزواج، وبتقديري فقد يكون السبب هو ملل الصياد.

أخمن بأن معظم المشكلات الاجتماعية في عالمنا اليوم، وكذلك تداعياتها وآثارها السياسية والاقتصادية، منشؤها فشل مؤسسة الزواج في مجتمعاتنا البشرية على اختلاف قيمها ومعتقداتها وأوضاعها الاقتصادية ومراحل تطورها التقني والمعرفي، وبينما يمكن التخلص من عواقب اختيار سيء لمسكن أو مهنة أو صديق بتكلفة مالية أو معاناة نفسية محتملة نسبياً يخلف الزواج الفاشل وراءه حطاماً ضخماً من المشاكل الاجتماعية والمالية والعاطفية والعقد النفسية، التي قد تشوه حياة الزوجين المنفصلين، وتطارد أولادهما لزمن طويل.

عندما يهوي جسر الزواج يبقى الزوجان – ظاهرياً على الأقل - سالمين على طرفي الهاوية، وإن كان ذلك ليس مضموناً في كل الأحوال، وبين حين واخر نقرأ أو نشاهد خبراً عن جريمة أو انتحار ارتكب في أعقاب انهيار زواج، ومن الممكن التعميم بأن كل طلاق يترك آثاراً عاطفية سيئة على الطرفين، من بينها الحزن والوحدة والاكتئاب والسخط، ولعل مشاعر الغضب والسخط هي الأكثر احتمالاً في حالة الصياد، وتتولد من الاقتناع بوقوع استغلال أو ظلم من الطرف الآخر، وعادة ما يكون هذا الغضب موجهاً ضد ذلك الطرف، وربما شمل المؤسسة القضائية والمحامين الذين يتولون النظر في قضية الطلاق، وأي حزن يرافق هذا الحدث هو حزن على الذات والخسائر الناتجة عنه، ولا يثير الطلاق بين صيادين خيبة أمل ناجمة عن فشل العلاقة وتبدد العواطف الإيجابية التي جمعت بين الطرفين أصلاً، لأن هذا الزواج أصلاً شبه خاو من هذه العواطف.

بمرور الزمن يتغلب معظم الأزواج المطلقين على الآثار النفسية والمالية والاجتماعية السلبية الناتجة عن فشل زواجهم، لكن ذلك لا ينطبق على الأطفال، فعندما يسقط الزواج في الهاوية يبقى الأطفال معلقين بالحطام الظاهر منه والذي لم يسقط، وهم بحاجة للمساعدة، والتي من دونها قد يسقطون إلى الهاوية معنوياً ونفسياً، مما يتسبب بتعكير صفو حياتهم أو ربما تشويهها بصورة دائميه، لذا فإن أهم الدواعي لمحاولات انقاذ الزواج هي حماية هؤلاء الأطفال من سلبيات الحياة بين أبوين منفصلين بالطلاق.

ومن المؤكد بأن معاناة الأبناء الصغار نتيجة الطلاق هي الأشد وطأة، لما يشكله انفصال والديهم من انهيار لعالمهم الخاص، لذا لا عجب لو فضل أطفال الأزواج المطلقين العيش في كنف زواج فاشل وغير سعيد على افتراق الأبوين وما جره عليهم من معاناة وآلام، ولا يستبعد تعرض أطفال الصياد للإهمال بعد الطلاق، فلو كان الأبوان ثريين فمن المحتمل أن يرسلا أطفالهم في سن الدراسة إلى مدارس داخلية، وعادة ما تكون في بلاد أخرى مثل سويسرا أو لبنان، أما لو كانت مواردهما محدودة فقد يتخلصا منهم من خلال التنازل عنهما ليتبناهم آخرون،

أو حتى يطردون إلى الشارع، ليتمكن الأبوان من معاودة حياتهما الأنانية من دون ما يعتبرانه حملاً إضافياً زائداً.

غالباً ما يعتبر الزواج الفاشل ونتائجه الوخيمة سبباً رئيسياً لانحراف الأبناء المراهقين، وانتشار الانحلال الأخلاقي وتفشي الجريمة والادمان على المخدرات واستفحال ظاهرة عصابات الشوارع وغيرها من أشكال الانحرافات الاجتماعية بين المراهقين، وتشير دراسة بيك وكلاين وجرينفيلد Beck, Kline and Greenfeld (1987) إلى أن حوالي 70 بالمائة من السجناء الشباب في أمريكا ترعرعوا في عوائل مفككة، ويبدو بأن المثل القائل بأن من شابه أباه ما ظلم ينطبق على أبناء الزيجات الفاشلة إلى حد كبير، إذ غالباً ما يقتفون آثار أبويهم، حتى ينتهي بهم الأمر إلى الطلاق أيضاً.

لا غرابة إذن في هذا العدد الهائل من الكتب والمجلات والمقالات الصحفية والبرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تقدم نصائح مهنية وتقليدية للأزواج بهدف مساعدتهم على تنظيم حياتهم وحل الخلافات التي تنشأ بينهم، ومن المؤسف أن تفشل كل هذه الجهود الحميدة ومساعي الأقارب والأصدقاء في ثني الملايين من الأزواج سنوياً عن اختيار الطلاق والافتراق عن أزواجهم وعوائلهم، ولو قرأنا بتمعن كل هذه المصادر القيمة وشاهدنا جميع البرامج والأفلام حول هذا الموضوع لخلصنا إلى نتيجة واحدة ومفجعة، وهي أن كل هؤلاء الملايين من الأزواج الذين يختارون الطلاق على الاستمرار بحياتهم الزوجية كل عام غير قادرين أو رافضين للعيش معاً على أساس من المودة والتفاهم والمسئولية المتبادلة.

في الختام يمكن القول بأن أسلوب حياة الفرد عامل مؤثر قوي في الكثير من قراراته واختياراته الهامة مثل اختيار شريك حياته ومنهج تربية أبناءه وفرص نجاح العلاقة الزوجية نفسه، وهذا يعتمد إلى حد كبير على حسن اختيار الزوج أو الزوجة المناسبة ومدى التوافق بين أسلوب حياتهما، ولكن ذلك غير كاف، فمن المحتمل أن يحافظ التوافق في القيم والتوقعات على زواج صيادين من التفكك لكن من دون مشاعر المزارع الجياشة يتعذر بلوغ السعادة المنشودة في الزواج، لهذا السبب فإن المزارع شريك مثالي في رابطة الزواج وخاصة إذا كان الزواج بين مزارعين.



الفصل السادس
منهجا الصياد والمزارع في التربية

يرغب الصياد والمزارع على حد سواء بتربية أبنائه ليكونوا مثله، يتبنون افكاره، ويمارسون نمط حياته، فالصياد يريد لأبنائه اكتساب الأفكار والاتجاهات والقيم والسلوكيات الخاصة بأسلوب حياته، وبالتحديد التوق للقوة والسيطرة والتملك والمكانة، وبالمقارنة فقد يبدو بأن أهداف المزارع من تربية أولاده ليكونوا راضين وسعداء مع أنفسهم ومنسجمين ومتعاونين مع الاخرين متواضعة ـ لكنها في الواقع صعبة المنال، بسبب غلبة أهداف وقيم الصياد في مجتمعاتنا، وربما تساور نفوس بعض المزارعين الشكوك في جدوى سياساتهم التربوية، والتي لا تلاقي صدى في هذه المجتمعات، الواقعة تحت سيطرة الصيادين وأفكارهم ومؤسساتهم، ويتخوفون من مواجهة أبنائهم صعوبات كبيرة في التكيف مع المجتمعات والعيش فيها، إن هم التزموا بقيم ومبادئ المزارع، وحتى لو أراد المزارع تربية أبناءه على قيم وعادات الصياد فلن يحقق نجاحاً كبيراً في ذلك، لأنه لا يمتلك المهارات اللازمة للقيام بذلك على أحسن وجه، وسيكون أبناؤه أمام وضع محير، فمن ناحية سيتلقون توجيهات أبوية محبذة لطريقة الصياد، في الوقت الذي يلمسون ممارسته لقيم وعادات المزارع، مما سيؤدي إلى بلبلة تفكيرهم واضطراب نفوسهم.

الصياد والذرية

رغبة الصياد في الذرية ناجمة عن أسباب ودوافع شخصية واجتماعية واقتصادية، فهم الدليل على الخصوبة والقدرة على الانجاب، والتي تمثل قيمة عالية للرجل والمرأة، وبدرجة أكبر في بعض المجتمعات عن غيرها، وهي ذات أهمية اجتماعية للسمعة والمكانة الاجتماعية بين الأقران، ومن خلال إنجاب الأبناء يستمر ذكر الابوين بعد رحيلهما من الدنيا، وهم أيضاً ورثة ثروة العائلة، والتي بدون أبناء ستذهب لأقارب أو ربما لغرباء، ومن خلال الأبناء يصبو الأبوان لبلوغ الأهداف والاحلام التي لم يتمكنا من تحقيقها، وفي بعض المجتمعات ما يزال للأبناء أهمية اقتصادية عالية تتمثل في مساعدة الأبوين في نشاطهما الاقتصادي أو توفير مداخيل إضافية لإعالة الأسرة.

تحت ظروف معينة قد تستحوذ على الصياد رغبة جامحة بالحصول على أبناء لجني واحد أو أكثر من فوائد الذرية، وتضفي القيم الموروثة في المجتمعات العربية أهمية كبيرة على القدرة على الإنجاب لدى الرجال والنساء، ويعتبر فقدان ذلك حتى ولو لعلة مرضية نقيصة، يعاب عليها الزوج أو الزوج.

تكون دائرة اهتمامات الصياد المصلحية عادةً ضيقة، ولا تتسع لأكثر من نفسه وأفراد عائلته، ويفرض عليه قدوم الأبناء توسعتها لتشملهم أيضاً، لكنه قد لا يكون مستعداً دائماً للتضحية ببعض ملذاته أو حتى عاداته المضرة لضمان صحة وعافية أبناءه، وتبرز أنانية الصياد جلية في سلوك النساء الحوامل المدخنات، اللواتي يتغافلن عن الأدلة الطبية على احتمال تضرر صحة الجنين نتيجة التدخين، وقدر كابلان Kaplan (1986) نسبة الحوامل المدخنات في أمريكا بأربعين بالمائة، وفي احدى مناطق استراليا كانت النسبة أدنى لكنها مقلقة (Mohsin and Bauman, 2015)، وتنطبق هذه الملاحظة أيضاً على الحوامل اللواتي يداومن على تناول الكحول أو المخدرات أثناء الحمل، ومن المحتمل أن يكون مولود المرأة المدمنة على الهيروين مدمناً أيضاً منذ ولادته، وتظهر عليه أعراض الإدمان، كما قد يتسبب شرب الحامل للكحول في قصور نمو الجنين، وتكون النتائج أكثر سوءاً لو كانت الأم مدمنة على الكحول.

من ناحية أخرى فقد تدفع ظروف الحياة السيئة بالصياد إلى وأد أبناءه، أو التخلص من غير المرغوب منهم بطريقة أو أخرى، ولقد مارست أقوام عديدة مثل قدماء الإغريق والرومان والعرب عادة الوأد، واستمر الصينيون والهنود على ذلك حتى فترة قريبة، وغالباً ما يكون ضحايا الوأد من الإناث، ومن المفزع أن أفلاطون لم يفلح في ابتداع حل أفضل لمشكلة تضخم السكان في مدينة ما غير قتل الأبناء، ويصف بوك وسينيجن (1969) Boak and Sinnigen سلطات الآباء في روما قديماً بالمطلقة، وشرعت قوانين الامبراطورية الرومانية والأعراف السائدة في المجتمع الروماني للآباء أو رؤساء العائلة الرومانية تعريض الرضع لعوامل الطقس القاسية وبيع أبنائهم أو قتلهم إن اختاروا ذلك، كما يؤكد ثوماس (1979) Thomas، وفي مسرحية الغضب The Furies لأسيخليس يظهر ربهم الوثني أبولو ليصرح بأن من حق الآباء قتل بناتهم، و كان الآباء العرب ما قبل الإسلام يعمدون أحياناً لوأد بناتهم، بدسهن في التراب ودفنهن وهن أحياء، وسبب ذلك هو تخوف ذويهن من اضطرارهن لبيع أجسادهن بسبب الفقر والعوز أو وقوعهن في اسر قبائل معادية مما يجلب العار عليهم، وتوقفت هذه العادة بعد النهي المطلق عنها في القرآن الكريم.

استمرت عادة الوأد في الصين حتى منتصف القرن العشرين، ووصف إيستمان Eastman(1988) هذه العادة الصينية القديمة كما يلي:

> في الصين يعتبرون تعدد البنات لعنة، وخاصة في أوساط العوائل الفقيرة... لذا تعمد في بعض الأحيان أم المولودة حديثاً لوضع رأس مولودتها في دلو ماء أو خنقها حتى تلفظ آخر أنفاسها، أو تتركها في العراء لتهلك.

وفي أواسط القرن التاسع عشر عانى الكثير من الأطفال في بريطانيا من أوضاع معيشية مزرية، ولم يلتحق الكثير منهم بالمدارس، وبدلاً من ذلك اضطروا للعمل في المصانع، فيما كدح في المناجم أطفال في الثانية عشر من عمرهم، واحتار الآباء في توفير لقمة العيش لسد غائل جوع أبنائهم، ولإسكات الجائعين منهم سقوهم ما عرف في حينها بشراب جودفري الودود Godfrey's Cordial، كما يبين ملنر (Milner 2000)، وهو خليط من الافيون ومواد حلوة المذاق، وأحياناً يضاعفون الجرعة ليموت الطفل غير المرغوب به ميتة سريعة ومن دون ألم.

نقرأ بين الحين والآخر عن قتل أباء لأبنائهم في دول غربية وعربية، مثل تلك الأم الالمانية التي كتبت عنها جريدة التورنتو ستار الكندية في عددها الصادر في التاسع من اذار عام 2000، والتي لم تتردد في قتل ثلاثة من أبناءها الرضع بعيد ولادتهم بقليل بذريعة عدم قدرتها على تحمل مسؤوليات تنشئتهم، وتؤكد كيلدي (2013) Kilday بأن قتل الأبناء ظاهرة موجودة في مجتمعات مختلفة.

أصبح الوأد نادراً في العالم، لأن من الممكن اليوم انهاء الحمل من خلال الإجهاض، قانوناً أو خلافاً للقانون، وتدعو حركات الدفاع عن حقوق النسوة إلى الاعتراف بذلك باعتباره حقاً مشروعاً للنسوة، وفي الهند يستخدم الإجهاض للتخلص من الإناث قبل ولادتهن، بعد ان أتاحت وسائل الطب الحديثة اكتشاف جنس الجنين، وقد بلغ النقص في الإناث في بعض الولايات الهندية بسبب ذلك حداً حرجاً، ومن المتوقع أن ترتفع قيمة الإناث نتيجة ذلك وتتوقف أو تقل هذه العادة، كما يمكن التخلص من المواليد غير المرغوب بهم من خلال التبني، وانتشرت في دول عدة أماكن تعرف بـ baby slots يودع فيها الأطفال الرضع غير المرغوب بهم بدلاً من رميهم في صناديق القمامة، أو تركهم في دورات المياه، ومن يقرأ فلسفة جاك جان روسو لا بد أن يتعجب من تخليه عن خمسة من أبنائه ليتربوا في ميتم، ولكن قد يزول الاستغراب عندما نتذكر بأننا جميعاً صيادون ومزارعون في نفس الوقت.

إن احتفظ الصياد بأبنائه فعلى الأغلب سيربيهم على طريقته، وسيرسخ في أذهانهم أن الحياة معترك قاس، ينبغي عليهم خوضه من أجل النجاح والتفوق على أقرانهم، ومن أهم مظاهر هذا

النجاح الاستحواذ على القوة والنفوذ والمكانة الاجتماعية العليا والثروة واكتساب المهارات التنافسية للحفاظ هذه المزايا المرغوبة والاستزادة منها.

مرحلة الطفولة في نظر الصياد

يتلهف الأبوان الصيادان لرؤية أبنائهما يكبرون بسرعة، ليصبحوا بالغين عقلانيين مهيئين للدخول في معترك الحياة التنافسي، ومن الواضح بأن تراث كل المجتمعات تقريباً يعتبر العقلانية أو سلطة العقل أساساً لكل انجازات البشرية الحضارية، بما فيها الحضارة العلمية الحديثة، والنقيض من ذلك هو انعدام أو ضعف العقلانية وتحكم العاطفة وما ينتج عنهما من فكر "غير ناضج" وسلوك "طفولي"، وبما أن التصرف العاطفي و الطفولي نقيض لقيم الصياد العليا، وبالذات العقلانية والنضج، يحرص الصياد على استعجال عملية نشأة ونمو أبناءه خلال مرحلة الطفولة، لكي يراهم مثله ناضجين وعقلانيين، ويتمنى هؤلاء الآباء والأمهات لو أمكن فطم أبناءهم وتعلمهم المشي والتخاطب في أقصر وقت ممكن أثناء طفولتهم، وينظر إلى اكتساب الأطفال هذه المهارات في وقت مبكر نسبياً على كونه دليلاً على تفوقهم العقلي وتكيفهم النفسي، وبالتالي مدعاة لرضا وتفاخر آبائهم وأمهاتهم.
تبدو طريقة الصياد في تربية أبناءه شبيهة بما يدور في مملكة الحيوانات، فمن الملاحظ أن صغار الحيوانات وبعد لحظات من ولادتها تتعلم الوقوف على أقدامها، إن كان لها أقدام، وتسعى للوقوف بجانب أمهاتها وبقية القطيع أو جماعتها طلباً للأمن والحماية، ومن يفشل في ذلك أو يتلكأ يكون مصيره عادة الموت أو الافتراس من قبل حيوانات أخرى، ويتولى الوالدان في هذه المرحلة الحرجة دفع صغارهم لمساعدتهم على الوقوف على أقدامهم. وقد استوقفتني وصف محاضر مختص بتنمية الدافعية لهذا السلوك الحيواني أثناء كلمة له في حفل تخرج ولدي من مدرسته الابتدائية في كندا، فقد وصف دفع أم الحيوان لوليدها بأنها "رفسة المحبة"، متناسياً بأنه سلوك غريزي في غابة أو برية تسكنها وحوش، وقد استند إلى هذا السلوك الحيواني الغريزي لتبرير دعوته الآباء إلى اعطاء أولادهم "رفسات" مماثلة، لكي يصبحوا قادرين على الوقوف على أقدامهم، والاعتماد على أنفسهم لا أبويهم، وهذه الرفسات أو الدفعات وإن بدت قاسية، هي في نظره دليل على محبة الوالدين لأبنائهم، وتكشف هذه المقارنة بأن الدافع وراء السلوك الحيواني وشبيهه البشري هو غريزة البقاء، التي ما زالت المحرك القوي لفكر وسلوك الصياد.
كما أن صغار الحيوانات غير قادرة على الاعتماد على نفسها ومجابهة أعدائها كذلك يرى الصياد أبناءه في طفولتهم، لذا المطلوب تجاوز مرحلة الطفولة بالسرعة الممكنة، وقديماً كانت مرحلة الطفولة أو تلك السنوات من العمر التي تتولى العائلة فيها كامل المسؤوليات عن صغارها أقصر نسبياً، حيث يتعلم الصبي المهارات الأساسية مثل ركوب الخيل واستعمال السلاح والمهارات المتعلقة بالحرفة أو العمل الذي سيمارسه مع عائلته أو قبيلته في سن مبكر، وتزوج البنات في أعمار صغيرة.
يرغب الصياد في تسريع نضج أولاده، لكي تنقضي فترة اعتمادهم على ذويهم بسرعة، ويصبحوا مستقلين، وقادرين على دخول حلبة التنافس مع الآخرين، والتصارع معهم على وسائل البقاء والنجاح، وهنا تتطابق نظرة الصياد مع الحيوان في اعتبار المجتمع غابة بشرية، يلتهم فيها القوي الضعيف، لذا فإن فرص البقاء والتطور متاحة للأقوياء المقتدرين والنشطين فقط.
منذ الصغر يتعلم الصياد أن يقدم العقلانية على العاطفة، ويحرص الأبوان على أن تكون الجوانب العاطفية في علاقتهما بأبنائهما عند أدنى حد، لكي يتعلم الأبناء الذكور التصرف كرجال أقوياء صارمين، فلا ينساقون وراء عواطفهم، ويبدو بأن أعلى درجة لشدة العلاقة العاطفية بين الأبوين الصيادين وابنائهم تكون عند ولادتهم، وتبقى الرابطة العاطفية قوية خلال الفترة الأولى من الطفولة ثم تبدأ بالانخفاض، حيث يعمد الأبوان إلى الابتعاد عاطفياً عن أبنائهم وبصورة متعمدة وتدريجية، اعتقاداً منهم بأن ذلك هو الأنفع والأصلح لهم.

ووصف أحد العرب القرويين معاملة أبيه له في الصغر بأنها محيرة، ففي السنوات الأولى من عمره أغدق عليه والده قدراً من الحنان والعطف الأبوي، ولكن بمرور سنوات الطفولة اضمحل هذا الحنان، وحلت محله معاملة جافة وأحياناً قاسية، وبينما كان الابن يهرع للقاء أبيه في السابق إذا رآه قادماً في الشارع صار يتفادى ذلك لئلا يسمع منه كلمة جارحة أو يتلقى صفعة، وفي غياب عوامل أخرى مؤثرة فإن التفسير الوحيد العقلاني لهذا التحول الجذري لعلاقة الأب بولده هو حرصه على اكتساب ولده الخشونة والشدة وغيرها من سمات الصياد الذكورية.

إهمال الصياد لأبنائه

يقصر الصياد في تربية أبنائه عندما يهجرهم أو يهمل تربيتهم، وإهمال الأبوين لتربية ابنائهما ظاهرة منتشرة في مجتمعات عديدة، ونتائجها التربوية والنفسية وخيمة، لا تقل وطأة وخطورة من القسوة في التعامل معهم، ويبلغ الإهمال في بعض الحالات حداً يدفع بإدارات الرعاية الاجتماعية في دول غربية إلى استصدار أحكام قضائية بحرمان الأبوين من حضانة ابنائهما، وتكليف عائلة حاضنة بتنشئتهما، ويبدو بأن هذه الظاهرة قديمة قدم التاريخ، كما يتضح من كتاب كاركوبينو Carcopino (2003) حول الحياة اليومية في روما القديمة، ويصف فيه انصراف الأمهات الرومانيات لمشاركة الرجال في صيدهم ولهوهم ومبارياتهم وعلى حساب واجبات الأمومة.

قد يوكل الصياد الثري مهمة العناية بأبنائه وتربيتهم لمربية أو يتركها للمدرسة والأقران، واستعمال المربيات ظاهرة تاريخية منتشرة بين العائلات الثرية في مجتمعات عديدة، ففي القرن الثامن عشر على سبيل المثال كان من عادة زوجات الأرستقراطيين إيكال مهمة تربية الأبناء لمرضعات ومربيات، وتخوفت المفكرة الإنجليزية ولستونكرافت (1759-1797) من إعاقة هذه الممارسة لنشوء عواطف محبة بين الأمهات وأبنائهن، وفي القرن العشرين لاحظ سيدجويك Sedgwick (1985) بأن المربيات يقمن بالجانب الأكبر من دور الأمهات في حياة أبناء الأثرياء حتى البلوغ، ونتيجة لذلك فإن صلاتهم بآبائهم وأمهاتهم تكون عادة محدودة، ومن المحتمل أن يقود حرمان الأطفال واليافعين من حنان الأم إلى ارتفاع مستوى عدائيتهم وسلوكهم غير الإيجابي في مجتمعاتهم كما يؤكد شور Schur (1973)، ونعثر على التفسير المقنع لذلك في ملاحظة جولمان Goleman (1994) بأن افتقاد الأبناء لحنان الأم قد يؤدي إلى تعطيل عملية تطور خاصية المشاركة الشعورية empathy لديهم، والتي هي مولدة القيم البشرية كلها- وللتذكير فإن من الخصائص المميزة لشخصية الصياد تدني مستوى المشاركة الشعورية، وليس من المستغرب أن يجد الباحثون بأن الساديين ومغتصبي النساء والمعتدين على الأطفال يفتقرون لهذه العاطفة الإنسانية الأصيلة.

وللمربيات في المجتمعات العربية دور هام في تربية أبناء الموسرين، وخاصة في دول الخليج النفطية، حيث تستخدم مربيات من بلدان غير عربية وذات ثقافات وديانات مختلفة أحياناً، والبعض منهن لا يمتلكن الخبرة أو المؤهلات المناسبة لأداء هذه الوظيفة، كما أن الفروقات الثقافية مصدر لبعض النتائج السلبية على تربية الأبناء، ومن أهمها ضعف ارتباط الأبناء بأمهاتهم.

ولعمل الام خارج المنزل تأثيرات سلبية محتملة على ابنائها، والباحثتان ناي وهوفمان Nye and Hoffman (1963) مقتنعتان بأن الأم الأمريكية في ستينات القرن الماضي أهملت تربية أبنائها، ومن المرجح أن يكون هذا الإهمال قد ازداد منذ ذلك الحين، ويقلل انشغال الأم بعملها ومستقبلها الوظيفي من الوقت والاهتمام الذي تخصصه لأبنائها، ومن دون رعايتها يزداد احتمال الانحراف بين ابنائها المراهقين، ويفيد هانسون وزملاؤه Hansson et.al. (1981) بأن بنات الأم العاملة في أمريكا أكثر ممارسة للجنس المبكر، والذي قد يفضي إلى حملهن قبل الزواج.

يميز السويديون بين نوعين من الأطفال، ويشبهون النوع الأول بزهرة الهندباء dandelion والثاني بالسحلبية orchid، وأطفال الهندباء يتميزون بقدرة عالية نسبياً على تحمل الظروف السيئة والتغلب عليها، اما أطفال السحلبية فهم على النقيض من ذلك حساسون، وفي مقالة مثيرة للاهتمام استعار الباحثان بويس وايليس Boyce and Ellis (2005) هذين المصطلحين في بيان نتائج دراستهما، والتي بينت بأن الوراثة والبيئة العائلية عاملان مؤثران في تطور شخصية الطفل، فالأطفال من نوع السحلبية حاملون لجينات تهيئهم للانحراف لذا فقد يكبرون ليصبحوا منحرفين لو أهملت عوائلهم تربيتهم وكانت ظروف نشأتهم مضطربة، وبالعكس فلو أحسنت التربية وكانت بيئة العائلة مساندة فعلى الأغلب سيكبرون ليكونوا أفراداً سويين ومنتجين.

وبعد مراجعة 96 دراسة منشورة في تسعينيات القرن الماضي استنتج أماتو (2001) بأن تقييم وضع أبناء غير المطلقين كان متدنياً مقارنة بأبناء غير المطلقين على عدد من العوامل تشمل التحصيل الدراسي والسلوك والتكيف النفسي والاجتماعي وصورة الذات والعلاقات الاجتماعية، وفي كتاب لمكلاناهن وسانديفور McLanahan and Sandefur (1994) حول تأثيرات نشوء الأبناء تحت رعاية أحد الأبوين فقط على تحصيلهم الدراسي ومستقبلهم الوظيفي وجد بأنهم مقارنة بأبناء عوائل غير مفككة حصلوا على درجات أقل في المواد الدراسية وكان احتمال تخرجهم من المرحلة الثانوية والتحاقهم بالجامعات والكليات وتوظفهم في أول شبابهم متدنياً بالمقارنة، وبالتالي فلا يستغرب أن تكون معدلات الفقر والسكنى في أحياء فقيرة بينهم مرتفعة، كما أن معدلات الحمل خارج الزواج بين البنات منهم أعلى أيضاً.

وتوصل رايت Wright (1994) إلى نتيجة بأن الأطفال المهملين عاطفياً أو الذين ربتهم عوائل حاضنة أكثر تعرضاً للاعتداءات البدنية والجنسية وغيرها من أشكال العنف من أولئك الذين كبروا في كنف والديهم، ومن النتائج السلبية على الأبناء في العوائل المفككة تولد اتجاهات غير سليمة لدى البنات تجاه الرجال بصورة عامة، وقد تؤدي إلى بطء عملية نمو الذكاء، كما يستدل من مقارنة نتائج قياسات الذكاء واختبارات الإنجازات بين أطفال من عائلات مفككة وآخرين من عائلات متماسكة، ومن النتائج السلبية الوخيمة لنشوء الأبناء من دون رعاية أبوية كما أوردها جولتر ومننجر Goulter and Minninger (1993) التسرب من المدرسة والفقر، كما أن انفصام الزوجين يؤدي في كثير من الحالات إلى نشوء اطفالهما في بيت زوج الأم أو رجل لا يمتون له بصلة قرابة، ويزيد هذا الوضع من احتمال تعرضهم للاعتداء وسوء المعاملة، وهو ما تأكد من نتائج إحدى الدراسات المسحية التي يشير لها ويبر Webber (1991) إذ تضاعفت ثلاث مرات نسبة حالات الاعتداء على الأطفال الذين يعيشون مع رجال غير آبائهم.

إذا أهملت أبناءك في طفولتهم فلا تتعجب أو تتذمر إذا تخلوا عنك في شيخوختك، أو وضعوك في بيت للعجزة وكبار السن وتحت رحمة موظفيه الصحيين والإداريين، وعلى أساس قاعدة واحدة بواحدة، وسيكون من غير المجدي لك لو تمثلت بقول الملك لير في مسرحية شكسبير التي تحمل اسمه: " الأسن من ناب الأفعى أن يكون ولدك جاحداً"، وهنالك قصة متداولة في المجتمعات العربية تصف إقدام ولد على التخلص من أبيه المسن تلبية لطلب زوجته، وقبل أن يهم الابن بالإجهاز على أبيه خاطبه والده بأن يكتفي برميه خارج المنزل، لأنه لم يفعل أكثر من ذلك بوالده هو الآخر، فلا غرابة أن يتكرر إهمال أو حتى إساءة المعاملة من الابن لأبيه في الأجيال المتعاقبة في العائلة الواحدة لنقص المشاركة الشعورية، وما ينتج عنها من تأثيرات سلبية على الفرد وانتقالها من جيل لآخر نتيجة هيمنة الأفكار والسلوكيات الخاطئة داخل هذه العائلة.

تربية الصياد الصارمة

في النوع الصارم من التربية يلعب الصياد دوراً هادفاً وتفصيلياً في تربية أبنائه، فهو لديه خطة واضحة لهم ويريد من خلال تربيتهم تحقيق أهداف هذه الخطة، وللتأكد من التزامهم بهذه

الخطة يتعامل معهم بصرامة، ويكون الصيادون الذين لعقولهم الغلبة على قلوبهم أكثر استعداداً للتعامل بصرامة وغلظة مع أبنائهم، ويعتمدون إلى حد كبير على المحفزات السلبية والإيجابية في ضبط سلوكهم، ولا يترددون في استعمال العقاب الجسدي أو التهديد به مراراً وتكراراً إذا اقتنعوا بضرورته.

في مجتمع سبارطة اليوناني المحكوم بقيم وأسلوب حياة الصياد لم يثق حكماء البلد بقدرات الآباء والامهات على تربية أبنائهم على الطريقة الصارمة المقبولة في المجتمع السبارطي، لذا استنوا قانوناً يقضي بفصل الأبناء عن أبويهم ووضعهم في مساكن خاصة للأطفال والطلاب ومدارس تديرها حكومة المدينة، وكما ذكرنا سابقاً فقد تشرب أبناء السبارطيين في هذه الاكاديميات القيم والمعتقدات السبارطية الممجدة للقوة، واكتسبوا المهارات التي تؤهلهم في نظر القائمين عليها ليكونوا جنوداً قساة غلاظاً، مطيعين لأوامر قادة المدينة بشن الحروب وتحقيق الانتصارات العسكرية، ومهيئين بدورهم لتربية أجيال جديدة، على نفس شاكلتهم، تضمن استمرار أسلوب حياتهم المبني على تقديس القوة والشجاعة والجرأة والقسوة.

توجد أوجه تشابه عديدة بين تربية الأبناء في سبارطة وفي ممالك وقبائل الجزيرة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام، وحرصت حتى العوائل الحضرية أو شبه الحضرية الساكنة في المدن والقرى في الجاهلية على اتباع نفس المنهج في التربية، فكانت ترسل أبناءها الذكور إلى البادية، ليعيشوا مع البدو، تاركين وراءهم عوائلهم ومنازلهم ولسنين عديدة، وفي وسط البيئة الصحراوية القاسية تتولى العوائل البدوية الموكلة برعايتهم المؤقتة تعويدهم على حياة البداوة وشظف العيش، ليخشوشنوا ويتعلموا المهارات اللازمة للبقاء في المجتمع الجاهلي مثل اتقان اللغة الفصحى والفروسية واستعمال السلاح.

وفي الصين الشيوعية كان الاطفال يقضون معظم أوقاتهم بعيدين عن آبائهم وأمهاتهم، ويعتني بهم موظفون وموظفات حكوميون وفقاً لتعاليم الحزب الشيوعي، وقد استغل الغربيون ذلك لتوجيه انتقادات حادة للنظام الشيوعي، قبل أن تنتشر في الدول الغربية حضانات الأطفال، التي تعتني بهم طيلة النهار، بعد أن أصبحت ضرورية كما هو الحال في الصين الشيوعية.

يبدو بأن القوانين والإجراءات التي تهدف لحماية الأطفال غير كافية لحمايتهم من العنف وسوء المعاملة، ويبين كار Carr (2006) بأن معدل حالات العنف ضد الأطفال في أمريكا ودول أوروبية تتراوح بين 5 و9% اثناء حقبة التسعينات من القرن الماضي، ويرى بأن أحد أسباب ذلك هو مشاعر الغضب الناتج عن مشكلة أو خلاف يعاني منها أحد الأبوين، مما يدفعه إلى التنفيس عنه من خلال إساءة معاملة الطفل، كما أن الفرد الذي يتعرض للتعنيف في الصغر قد يكون أكثر تقبلاً واستعداداً لاستعماله على أبناءه، فالعدوانية المتجذرة في جانب الصياد فينا قد تستهدف الغريب والقريب أيضاً متى ما توفرت المحفزات والظروف لذلك.

يسود الانطباع بأن نمط تربية الآباء العرب لأبنائهم يتسم بالشدة وأحياناً العنف، ولاحظ دويري وعشوي Dweiry and Achoui (2005) بأن عدد الدراسات المنهجية عن الأنماط التربوية في العائلة العربية قليلة، لكن المتوفر منها يؤكد انتشار النموذج التسلطي العقابي، وهو ما تؤيده دراسات أجريت في مصر والأردن والمغرب والكويت والبحرين، وتشير نتائج إحدى الدراسات (Dalal, Lawoko and Jansson, 2010) إلى أن الأمهات المصريات يستعملن أنواعاً مختلفة من العنف في التعامل مع ابنائهن مثل التوبيخ (90%) والضرب (69%) والصفع (39%)، كما تبين بأن الأمهات اللواتي تعرضن للعنف الزوجي ويتقبلن ذلك أكثر ممارسة للتعنيف ضد أطفالهن.

عندما يعامل الوالدان الصيادان أبناءهما بقسوة مفرطة، يكون الأبناء أكثر عرضة للانحراف، وتبين نتائج دراسة لبنسن وبوهلر Benson and Buehler (2012) بأن اتصاف بيئة العائلة بالعدوانية والعنف وصحبة الأقران المنحرفين يؤديان إلى انحراف المراهقين، وبالمقارنة فقد كانت حالات الانحراف في مرحلة المراهقة قليلة أو نادرة لو نشأ الأبناء في بيئة "دافئة" عاطفياً، حيث تكون العلاقات قوية وتسودها المودة والتفاهم، فالأطفال الذين يعيشون في كنف عائلة

مستقرة ومساندة كما يؤكد الباحثان إيفانز وواكس (Evans and Wachs (2010 وغيرهما يتعلمون التعاطف أو الإحساس بمشاعر الآخرين وكظم الغيظ ومهارات حل المشكلات والخلافات، أما لو كانت بيئة العائلة والظروف الأخرى على العكس من ذلك يكون الأطفال أكثر ميلاً للعدوانية، وهم يخطئون في فهم نوايا الآخرين ويسيئون الظن بهم، وبعد مراجعة العديد من البحوث الميدانية توصل أرون وزملاؤه (Eron et.al. (1970 إلى الاستنتاج بأن القسوة في معاملة الأطفال في البيت مرتبطة بارتفاع سلوكهم العدواني في المدرسة، وفي دراسة لنمط أبوة مدمني الهيروين في إيران توصل فريق من الباحثين
(Zarnaghash, Goodarzi and Mohseni 2010) إلى أن هؤلاء المدمنين تعرضوا لمعاملة عدائية وغاضبة وخالية من الحنان من أبويهم، ويؤكد جيل(Gil (1983 بأن الأبناء الذين يتعرضون لمعاملة سيئة داخل عائلاتهم يلجؤون لإخفاء ألامهم النفسية خلف قناع أو ستار من التظاهر بالقوة والمنعة والعدوانية، كما أن من النتائج السلبية لتربية الصياد الصارمة والقاسية أحياناً تعود الأطفال على الكذب والخداع، كما بينت تالوار ولي (Talwar and Lee (2011، وفي منظورنا يستعمل الصياد الضعيف هذه الأساليب بدلاً من العنف ولإخفاء نواياه والتملص من تبعات أفعاله.

ومن المعروف بأن بعض ضحايا العذاب الجسدي أو النفسي أو الاعتداء الجنسي من الأطفال يفشلون في تجاوز اثاره النفسية السلبية التي تبقى عالقة في نفوسهم بعد تجاوز مرحلة الطفولة، وقد يتصور البعض منهم بأن الملجأ من ذلك هو بالانضمام لعصابة شوارع، والأخطر من ذلك هو عجز الأطفال المقهورين جسدياً أو جنسياً من التغلب على شعورهم بالعجز والكره والقلق في مرحلة الطفولة فتنموا في نفوسهم نزعة العنصرية أو السادية، ويرى كلوز (Klose (1995 بأن الجروح النفسية الناجمة عن التعرض للسخرية والإهانة الشديدة والقهر والقسوة البدنية والاعتداءات الجنسية تتجسد في صورة شعور طاغ بالعجز والضعف الشديد وفقدان المناعة ضد الاعتداء، وهي العناصر الرئيسية اللازمة لتولد الشخصية السادية، ويذكرنا هذا بما كتبه مؤرخ سيرة أدولف هتلر، الذي قضى طفولة غير سعيدة، إذ يرى البعض بأن الخلل في شخصيته متجذر في طفولته، والتي تعرض فيها لسوء المعاملة، ويعتقد ملر (Miller (1990 بأن مؤيدي وأتباع هتلر هم أيضاً تعرضوا لتربية صارمة وقاسية، أثرت في نفسياتهم سلباً، ومن النتائج السلبية المحتملة لهذا النمط من التربية أن يكبر الأبناء ليصبحوا بدورهم أباء وأمهات قساة، يتعاملون مع أطفالهم بنفس الغلظة والشدة، تطبيقاً للمثل العربي القائل بأن من شابه أباه ما ظلم، أو هم كما يصفهم المثل الإنكليزي شظية من الخشب الذي صنع منه والديهما.

عندما كان أولادي صغاراً استغرب أحد جيراننا عدم سماحي لهم بالنزول إلى الشارع ليلعبوا مع بقية الأولاد، ونصحني بضرورة تشجيع أولادي على قضاء وقت أطول في الشارع، ليعركوا أو لتعركهم الحياة، ويتعلموا من تجاربهم، وإلا فأنهم سيجدون صعوبة في التعامل مع الآخرين عندما يكبرون، وفي المجتمعات الغربية يطلقون على الأفراد الحاذقين في التكيف مع متطلبات بيئاتهم الاجتماعية أو في مجال العمل، والتي غالباً ما تكون مشوبة بالتحديات والمطبات والعدوانية أحياناً، بأنهم أذكياء في التعامل مع ظروف الشارع street smart ، وهو وصف للشخص الذي يمتلك المهارات اللازمة للحياة والنجاح في المدن، ومن المثير للاهتمام أن أحد المتسائلين عن معنى هذا المصطلح على وجه الدقة كتب بأنه كان يظن في شبابه بأنه وصف لأولئك القادرين على اقتراف الممنوع أو المحرم من السلوك، مثل استعمال المخدرات والانضمام لعصابات الشارع، والغش في الامتحانات، والتملص من الجزاءات المترتبة على ذلك.

أبناء الصياد في المدرسة والملعب

ما هي أهداف الصياد من الدراسة؟ لاحظ أرونسون Aronson (2007) بأن الامريكيين لا يغرسون في نفوس أبنائهم حب المعرفة والتعلم من أجل المعرفة بل يحثونهم على الحصول على درجات عالية ومنافسة أقرانهم والتفوق عليهم، وتسري هذه الملاحظة في تقديري على كافة الآباء الصيادين في أمريكا وغيرها، وعلى الأغلب فإن أي معارف ومهارات يحصل عليها أبناء الصياد من المدارس سيوظفونها لاحقاً من أجل تحقيق الأهداف النمطية للصياد.

يضع بعض الصيادين أبناءهم في مدارس أهلية خاصة، ليس فقط لغرض الدراسة، ولكن أيضاً لتعلم الاعتماد على أنفسهم، وتولي أمورهم، والتنافس مع أقرانهم من دون نصائح أو سند عاطفي من عوائلهم، ويفضل بعض الآباء في الدول الغربية تسجيل أبنائهم في مدارس شبه عسكرية، وهي مدارس خاصة تشبه الأكاديميات العسكرية في صرامة نظمها وبرامجها التعليمية وتعاليمها السلوكية، حيث يضطر الطلاب من الجنسين إلى تحمل الانضباط الشديد وظروف الحياة والدراسة الصارمة والقاسية أحياناً، ويتوقع من هذه المؤسسات التربوية شبه العسكرية توفير التعليم المناسب لطلابها وطالباتها، وتطوير شخصياتهم، وتنمية سماتهم الفردية المميزة لنمط حياة الصياد، وبالتالي إعدادهم ليكونوا صيادين ناجحين هم أيضاً.

تستمر عملية تحضير الأبناء لدخول مجتمع الصياد أثناء مراحل دراستهم الجامعية، ويعمد الصياد أحياناً لاستخدام نفوذه وغيره من وسائل التأثير لضمان تسجيل أبناءه في أرقى الجامعات، ولا يقتصر حدوث هذه الظاهرة على الدول النامية بل نجدها أيضاً في دول متقدمة مثل أمريكا، ويؤكد ديرشويتز Dershowitz (1992) بأن الجدارة ليست المعيار الوحيد لحصول بعض الطلاب على مقاعد في جامعات أمريكية، فقد يصدر قرار قبول طالب في جامعة لأن أباه تخرج منها أو تبرع لها بمبلغ ضخم أو لأن عائلته من المشاهير، وأوضح مثال على انتهاك معيار الجدارة الجامعية في رأي الكاتب هو الرئيس الامريكي السابق جورج بوش.

وفي الجامعة يتواصل تدريب الصياد الطالب على منافسة أقرانه، لكي يتفوق عليهم في واحد أو أكثر من مجالات التنافس، الأكاديمية أو الرياضية أو الاجتماعية، ومن المعروف بأن أعز أمنيات الطالب الأمريكي الجامعي أن يصبح نجماً من نجوم جامعته، ناجحاً، متميزاً، محبوباً، وذي شعبية واسعة، ومحسوداً من قبل زملاءه، وفي هذه الجامعات يدرك الطلاب بأن التفوق في ميدان الرياضة سلم للترقي إلى صفوف النخبة الجامعية، لا يقل أهمية من السلم الأكاديمي، وقد يكون أفيد مادياً، كما يصبوا الطلاب الجامعيون إلى الانتماء إلى إحدى المجموعات أو النوادي الطلابية، ومن اللافت للاهتمام أن لهذه النوادي طقوس انتماء، تتضمن أداء أعمال مهينة، أو تحمل إساءات بليغة من قبل بقية أعضاء النادي، وهي أشبه بطقوس البلوغ في مجتمعات الصياد البدائية، التي تشتمل على تحمل الجوع والعطش والألم.

حتى الألعاب والدمى التي يشتريها الصياد لأبنائه منتقاة لترسيخ قيم الصياد فيهم، أي التنافس والفردية والصبو للتفوق، ومن الملاحظ أن العديد من الدمى المتوفرة في أسواق مختلف الدول هي نماذج لأسلحة فتاكة فعلية أو متخيلة، بينما تحاكي كثير من ألعاب الفيديو عمليات الحروب والقتال أو أشكالاً أخرى من التنافس العنيف أو غير العنيف، وتوجد أوجه تشابه عدة بين شروط اللعب فيها وأدوار شخصياتها وجوائزها من جهة والواقع الفعلي لنمط حياة الصياد واهتماماته من جهة أخرى، ومن المعتاد أن تكون من ضمن نتائج المشاركة في هذه الألعاب الموت أو الإفلاس أو مجرد الخسارة. والطبيعة العنيفة لهذه الدمى والألعاب مثار قلق عميق لدى شريحة من الآباء وعلماء النفس والمربين الذين يخشون من تأثيراتها السلبية الوخيمة على سلوك الأطفال، وبالتحديد تعويدهم على إيقاع الأذى وحتى قتل المنافسين وتقبل ذلك باعتباره مبرراً ومشروعاً تحت ظروف معينة، وليس بالمستبعد أن يكبر الطفل الذي يتمتع بقتل منافسيه المتخيلين أو هزيمة أفراد عائلته واصدقاءه في لعبة، ليكون أكثر استعداداً لممارسة القسوة والعنف في تعاملاته التنافسية مع الغير.

يشجع الأبوان الصيادان أبناءهم على قراءة الحكايات والقصص التي تمجد الشخصيات التاريخية أو الأشخاص الخيالية، والذين يشاركون الصياد قيمه ونمط حياته، وغالباً ما تضفى على هذه الشخصيات سمات أسطورية، مثل الشجاعة الفائقة والتصميم الفولاذي والقوة البدنية الهائلة والذكاء الخارق، وتتمحور هذه الروايات عادة حول شخصية البطل الذي يخاطر بحياته من أجل هدف جليل، مثل إنقاذ شعبه من خطر ماحق، أو تخليص أميرة أو امرأة جميلة من براثن شرير اختطفها، وغالباً لا يقدم البطل في هذه الروايات الخيالية على هذه الأفعال الخارقة خدمة للإنسانية أو من أجل مبدأ سامي، بل يحصل في النهاية على مكافأته كاملة ومن دون تأخير، والتي تتمثل في اعتلائه العرش، أو زواجه من الأميرة، وكسب إعجاب ومحبة الناس، والفارق الوحيد بين أبطال بعض القصص المنشورة والمصورة في زماننا وبين أبطال الأساطير والحكايات هو في المظهر ونوع الأسلحة فقط، ولا تختلف برامج وأفلام التلفزيون عن هذا النمط المائل إلى العنف، وينظر لمستوى العنف في هذه الافلام والبرامج والألعاب الإلكترونية بأنه مفرط حتى في مقياس بعض الصيادين، ووجد يوسن وسانتروك Yussen and Santrock (1978) نتائج بحوث منشورة تربط بين عدوانية الاطفال ومشاهدتهم لبرامج تلفزيونية وأفلام سينمائية تتضمن مشاهد عنف.

يشمل جدول التدريب الخاص بأبناء الصياد المشاركة في المباريات الرياضية التنافسية، وسواء كانت الرياضة هي الكريكيت أو البولو أو الجولف بالنسبة لأبناء الصيادين الأثرياء، أو لعبة الهوكي وكرة القدم بين أبناء الأقل ثراءً ينظر إلى الاهتمام بالرياضة والمشاركة فيها على كونها ضرورية للنمو البدني والتطور النفسي لشخصيات الأبناء، وقد يعتبر البعض منهم الرياضة ميداناً للتنافس، تزيد أهميته بكثير على الدراسة الأكاديمية، لما قد تجلبه للمتفوقين فيها من مكاسب مادية وذيوع للشهرة، ومن المحزن أن بعض الرياضيين المعاصرين هم اليوم أكثر اهتماماً بجني الأموال والشهرة منه ولو تطلب ذلك احياناً انتهاك قيم وأخلاق الرياضة، لذا يلجؤون لتعاطي الأدوية الخطرة والمنشطات الممنوعة لتحسين أدائهم في المباريات والمنافسات، مخاطرين بتلطيخ سمعتهم وحرمانهم من المشاركة في المباريات لفترات زمنية وغيرها من الجزاءات.

وتحصل بنات الصياد على نفس النوع من التربية والتوجيه، فهن يداومن في نفس النوع من المدارس، ويقرأن نفس الكتب والقصص، ويلعبن بنفس الألعاب، وبالنتيجة هن يسعين وراء تحقيق الأمنيات والأهداف ذاتها. وفي أيامنا المعاصرة ترفض الكثير من الإناث التقيد بأسلوب الحياة المقرر لهن سلفاً، والقبول بدور ثانوي في مجتمع الصيادين، ويطمحن إلى تحقيق كامل أهداف الصياد العليا في القوة والنفوذ والنجاح، وقد تطرقنا سابقاً للتأثيرات السلبية لهذا الاتجاه على مجتمعات الصيادين.

القدوة خارج عائلة الصياد

يواجه الأبوان الصيادان المحبطان صعوبة كبيرة في غرس قيم الصياد في نفوس أبنائهم، فهم اصلاً لم يفلحا في الحياة وفقاً لهذه القيم، لذلك فالنصح الذي يقدمانه لأبنائهما حول الطموح والحرص على النجاح في الحياة والسعي وراء القوة والاملاك يبدو غير مقنع وقليل التأثير فعلياً، وبالتالي فهما لا يصلحان كقدوتين لأبنائهما، كما أن الآباء الذين يهملون تربية أبنائهم لا يوفرون لهم قدوة فعالة، مما قد يدفع بالأبناء للبحث عن القدوة أو القدوات البديلة خارج العائلة، وبالتحديد بين أقرانهم وزملائهم في المدرسة والجيران، وكذلك بين المشاهير من المغنين والممثلين والسياسيين النافذين، وهؤلاء الأبناء الذين يسيرون حياتهم كما يشاؤون إلى حد كبير، ومن دون قدوات فعالة في محيطهم العائلي أكثر عرضة للانحراف من أبناء الصياد الناجح.

ومن المحتمل أن تفرض الظروف العائلية على أبناء الصياد المحبط الاعتماد على أنفسهم في وقت مبكر من شبابهم، لا بسبب حرص آبائهم على تسريع انتقالهم إلى مرحلة البلوغ

والرجولة أو ضعف سلطة الأبوين، وإنما نتيجة إهمال وقسوة الأبوين، وهو أمر متوقع لما يتصف به الصياد من أنانية عالية وحرص كبير على بلوغ أهدافه وتركيز على اهتماماته وهواياته الشخصية، فقد لا يبقى بالنتيجة من وقته وطاقاته الكثير ليصرفه على الرعاية الأبوية، ويلجأ أبناء الصياد المهملين إلى مصادر بديلة، تلبي تطلعاتهم للتوجيه والقدوة واحتياجاتهم إلى التفهم والحنان والنصح خارج عوائلهم.

من المحتمل أن ينحرف الأبناء الذين يتخذون من أقرانهم في المدرسة أو الشارع قدوات يقلدونها ويتأثرون بها، ويعكس رأي غالستاف في مسرحية شكسبير الملك هنري الرابع الجزء الأول الاعتقاد المأثور حول مضار الصحبة السيئة بقوله: "لقد أفسدتني رفقة السوء".

هل يا ترى إهمال الأبوين للأبناء أحد أسباب هوس المراهقين والمراهقات بالمشاهير celebrity worship؟ ومن المثير للانتباه هنا هو أن المراهق يعبر عن تعلقه الشديد بنجم سينمائي أو غنائي أو رياضي بأشكال عدة، منها اقتناء الصور والتواقيع ومتابعة الأخبار وكتابة الرسائل، وغيرها من مظاهر الإعجاب والمحبة، التي قد لا يبديها صياد أناني لأقرب الناس إليه، ومن الواضح بأنها علاقة من طرف واحد، إذ لا يكترث المشاهير بهؤلاء المعجبين، وهم لا يعرفون هؤلاء المراهقين شخصياً، ولا يهتمون بعواطفهم الجياشة، ومن أجل المحافظة على استمرارية هذه العلاقة من طرف واحد يشغل المراهق خياله لاختلاق استجابة من المعبود المشهور، وهكذا تقنع مراهقة نفسها بأن كلمات الغرام التي يترنم بها المغني في أغنية، أو يرددها الممثل في فلم سينمائي موجهة لها، وهي لا غيرها مقصودة بها، أو أن هذا المعبود لو عرفها لما فضل غيرها، وتدوم هذه العلاقة الخيالية، ما دامت تشبع حاجة المراهقة أو المراهق للاهتمام والحنان، وما دام العقل قادراً على الحفاظ عليها، ويعتبر بعض المختصين هذا الهوس نوعاً من الوهام delusional (Sheridan, North, Maltby and Gillett, 2007) وعلى الأغلب سيختفي أو يضمحل عندما يجد المراهق أو المراهقة مصدراً حقيقياً للعاطفة والاهتمام.

وفي قصة اليافعين الخيالية المعروفة هانسل وجريشل ينتهي المطاف بالطفلين المنبوذين والمحرومين من حنان وعطف ورعاية الأبوين في الغابة، وهي المكان الرمزي الزاخر بكل ما يخافه البشر، وتصورها حكاياتهم بأنها موطن اللصوص والقتلة والوحوش الضارية الحقيقية منها والمتخيلة، وفي الغابة ينخدع الطفلان بالواجهة الجميلة والحلوة لبيت الساحرة الشريرة التي تقتات على لحوم الأطفال، والمجتمع في نظر الصياد هو غابة، ومن دون حماية وتوجيه الآباء يكون الأبناء عرضة لالتهام وحوش الغابة.

سلبيات منهج الصياد في التربية

من المحتمل أن تكون لطريقة تربية الصياد لأبنائه نتائج سلبية على نمو وتطور شخصياتهم، كما تؤثر وبطريقة غير مباشرة على الآخرين والمجتمعات التي يعيشون فيها، ويبرر الاباء من هذا النوع منح أبناءهم هامشاً واسعاً من الحرية في التفكير والتصرف باعتباره ضرورياً لتعليمهم الاستقلالية في اتخاذ القرارات والمواقف، وهذا يعني ترك الكثير من القرارات الخاصة بالجوانب القيمية والأخلاقية للفكر والسلوك لاختيار الأبناء، وفي بعض الأحيان يضطر الأبناء لتلمس طريقهم لوحدهم وبتوجيهات محدودة من والديهم، وقد يشجع هذا الأسلوب في النشأة الأبناء على اتباع طريقة التجربة والخطأ في حياتهم، أو على الأقل في شبابهم، وقبل أن يعثروا على أفضل الطرق للتفاعل والتأقلم مع مجتمعاتهم فمن المحتمل أن يجرب أبناء الصياد أنماطاً فكرية وسلوكية متنوعة، بعضها غير سوي ومنحرف.

وقد تقود التوترات النفسية الناجمة عن تسريع عملية التحول من الطفولة إلى الرشد، والتي قد يفرضها الصياد على أبناءه في عمر مبكر، إلى أنواع مختلفة من الانحرافات، ويحدث ذلك عندما يحاول الأبناء غير المؤهلين وغير الناضجين تقمص أدوار البالغين، ويقترفون أخطاءً تؤدي بهم إلى الانحراف أحياناً، وعندما نشاهد طفلاً يدخن يقفز إلى عقولنا التفسير الأكثر قبولاً وانتشاراً:

إنه يقلد الكبار أو يتصرف مثل الكبار ليثبت بأنه لم يعد طفلاً، وهذا ينطبق إلى حد كبير على مظاهر سلوكية أخرى منحرفة في تقديري - أو هي في نظر الكثيرين غير إيجابية على الأقل بالنسبة لأطفال أو يافعين – مثل ممارسة الجنس المبكر وتناول المسكرات وتعاطي المخدرات، وينبغي التذكير هنا بأن هذه العادات الضارة وسائل للهروب من ظروف الحياة في مجتمع الصيادين القاسي وتوقعاته صعبة التحقيق، وينظر إلى ادمان المخدرات واضطرابات تناول الطعام والانتحار والعنصرية وكراهية الأجانب والتطرف الديني باعتبارها أعراضاً لحالة الاحباط والاكتئاب وانخفاض الروح المعنوية، التي يعاني منها الصيادون الشباب غير القادرين على التكيف مع الضغوط التي يتعرضون لها وتحقيق الأهداف المرسومة لهم، وفي اليابان يقدم العديد من المراهقين سنوياً على الانتحار بسبب إخفاقهم في الدراسة أو عدم حصولهم على المعدلات العالية التي يتوقعها منهم آباؤهم، كما تتكشف جوانب الخلل في شخصيات الصيادين الصغار في أعمار مبكرة عندما يمارسون التنمر على أقرانهم bullying أو يتسربون من مدارسهم.

وتدفع المجتمعات التي ينتشر فيها هذا الأسلوب في تربية الأبناء ثمناً باهضاً نتيجة ذلك، ونتطرق في الفقرات التالية لبعض سلبيات منهج الصياد التربوي.

الجنس المبكر

ومن المؤكد بأن الأبناء ومن كلا الجنسين يتصرفون اليوم وفي معظم مجتمعات العالم باستقلالية عالية، فهم يمارسون درجات عالية من الحرية في علاقاتهم الجنسية وفي وقت مبكر من أعمارهم، وتبين البيانات الإحصائية الحديثة مدى انتشار هذا الاتجاه السلوكي غير السوي ففي الولايات المتحدة الأمريكية (Centers for Disease Control and Prevention 2014) أقر حوالي نصف طلاب المدارس الثانوية في 2013م بممارستهم الجنس، والنتيجة الحتمية لذلك هي تضخم عدد الولادات غير الشرعية والإجهاض، وما ينجم عنهما من أثار نفسية ضارة، ومن الملاحظ أن معدلات الإجهاض في الدول الغربية في ارتفاع مضطرد منذ الثمانينات.

إن ظاهرة تنامي النشاط الجنسي للأطفال والشباب في أعمار مبكرة مؤشر على أن مجتمعاتهم تشجعهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال المعاملة داخل العائلة وتأثيرات الأقران في المدارس ووسائل الإعلام، على التصرف مثل الراشدين قبل بلوغهم النضج العقلي والنفسي اللازمين لاتخاذ قرارات عقلانية وتحمل النتائج المترتبة عليها، وبما أن هؤلاء الأطفال والشباب غير الناضجين يفتقرون لمقومات تولي أعباء المسئوليات الاجتماعية والمالية للأبوة فلا خيار أمام آبائهم ومجتمعاتهم سوى تحملها نيابة عنهم، ولا يعتبر الإجهاض أو التبني حلاً ناجعاً لهذه المشكلة، كما أن من الصعب على هؤلاء الأطفال والشباب الذين يجدون أنفسهم في خضم هذه الأزمات الجسيمة والاختيارات المصيرية تجاوز إفرازاتها النفسية بسهولة، أما الذين يرفضون الإجهاض أو التبني فسيتحتم عليهم إعادة النظر في خططهم وربما التخلي عن بعض طموحاتهم بما يتناسب مع مسئولياتهم الباهظة الجديدة، مما يسبب لكثير منهم خيبات أمل كبيرة.

التنمر وعصابات الشوارع

لا تقتصر شرور ومضار أطفال الصياد غير المنضبطين على أنفسهم وذويهم، بل قد يكتوي بها المجتمع أيضاً، فالتنمر على سبيل المثال مشكلة خطيرة في المدارس والمجتمعات في العالم قاطبة، ويتعرض الأطفال للتنمر bullying أي الإيذاء الجسدي أو النفسي من قبل أقرانهم في المدرسة والشارع، ويمكن وصف الأطفال واليافعين الذين يمارسون العنف بأشكاله على رفاقهم بأنهم صيادون صغار، وعدوانيتهم هي نتاج جيناتهم تربيتهم العائلية وبيئتهم الاجتماعية المباشرة.

وكان التنمر أحد الأسباب الرئيسية بالإضافة إلى العزلة الاجتماعية والفشل الغرامي وراء ثلاثة عشر من أصل 15 حالة إطلاق نار في مدارس أمريكية منذ أواسط تسعينات القرن الماضي كما بينت نتائج إحدى الدراسات (Leary, Kowlaski, Smith and Phillips, 2001)، ويقتبس جيرتنر وأيوزيني وأومارا (Gaertner, Iuzzini and O'Mara 2008 العبارات التالية من مفكرة الطالب كيبلاند كنكل الذي أطلق 50 طلقة داخل مدرسته الثانوية فقتل إثنين وجرح 22:

"الجميع ضدي...كل البشر أشرار...كل ما أريده هو القضاء على عالم الشر"، ويصعب تصور شاب في مقتبل العمر يكنّ كل هذا الحقد على الآخرين، وهو لا يصدر إلا من صياد معذب ومنحرف.

ولا تقتصر النتائج المفجعة للتنمر على القتل بل تشمل أيضاً ظواهر سلبية أخرى، ويؤكد سميث (1993) Smith بأن لهذه الظاهرة السلوكية المنحرفة نتائج وخيمة على ضحاياها مثل انخفاض الثقة بالنفس والشعور بالعجز، ولاحظ داوكنز Dawkins (1995) بأن التنمر يدفع بعض ضحاياه إلى الانتحار، ويقلد الطفل المتنمر البالغين من حوله، فهو يختار ضحاياه من بين الأصغر سناً والأضعف بدناً، وعندما يقاتل يتحايل ويغدر، والدافع الرئيسي وراء التنمر هو اكتساب الشعور بالقوة والسيطرة على الغير، ويبين مقال لفريق من الباحثين (Baughman, Dearing, Giammarco and Vernon, 2012) بعض نتائج التنمر الموثقة في بحوث عديدة، ومنها العزلة الاجتماعية وارتفاع احتمال الإصابة بالكآبة وانخفاض الثقة بالنفس وخاصة بين الإناث من ضحايا التنمر والانحراف وتدني الأداء الدراسي، ويشيرون إلى نتيجة مهمة توصل إليها باحثون آخرون وهي أن المكانة الاجتماعية للمتنمرين غالباً ما تكون مرتفعة، وهي نتيجة متفقة تماماً مع تصورنا للصياد العدواني الذي ينشأ منذ صغره على الولع بالقوة والسيطرة على الغير، والطبقة العليا أو الفئة الاجتماعية الأعلى مكانة في مجتمع ما هي الأكثر قوة والأكثر حرصاً على الاحتفاظ بقوتها وتنميتها.

ولا يقدم مجتمع الصيادين حلولاً ناجعة لهذه المشكلة، والدليل على ذلك ازدياد حلات التنمر، كما أن بعض أولياء أمور المتنمرين لا يكترثون، ولا يفعلون شيئاً لمنع أولادهم من تكراره، ولعل سبب ذلك كامن في استعداد الصيادين أفراداً ومؤسسات للقبول بظاهرة التنمر باعتبارها نوعاً من التدريب والتأهيل للأبناء، ليكونوا أكثر استعداداً لمجابهة التحديات في مجتمع الصيادين عندما يكبرون، وأفضل نصيحة يقدمونها هي التوصية بتشجيع المتنمرين على توجيه طاقاتهم ونزعاتهم العدوانية إلى الرياضة وغيرها من الأنشطة التنافسية.

ويساهم أسلوب التربية – وأحياناً إهمال التربية – المتبع من قبل الصياد في نشوء ظاهرة انحرافيه أخرى، وهي عصابات الشوارع، ومن المعروف أن الشباب ينضوون في هذه العصابات للتعبير عن تجاوزهم لمرحلة الطفولة وبلوغهم مرحلة الرجولة، وتأكيداً على قدرتهم على التفكير المستقل واتخاذ القرارات الهامة من دون وصاية الأبوين، وعندما يحمل البعض منهم الأسلحة النارية أو المدى، ويتحدون عصابات منافسة، ويتناولون المخدرات، ويسرقون ويبتزون، ويمارسون العنف المفرط أحياناً في عراكهم، ويقترفون جرائم القتل، فإنهم يطمحون من خلال كل ذلك لإثبات رجولتهم وقوتهم واستقلاليتهم واستهانتهم بالسلطة، وهي كلها مظاهر سلوكية متأصلة في قيم الصياد، وبالذات الجانب المظلم وغير الإيجابي منها، وغالباً ما تكثر هذه السلوكيات المنحرفة في الأحياء الفقيرة في مدن الغرب، حيث يعيش الصيادون المحبطون والناقمون على مجتمعاتهم، لتقاعسها في توفير الفرص لتحقيق طموحاتهم، بالمقارنة لا يجد أبناء الصياد الناجح حاجة للتعبير عن انتقالهم من مرحلتي الطفولة إلى البلوغ عبر هذه السلوكيات المنحرفة والخطرة، إذ لديهم وسائل أخرى مثل الرياضة التنافسية والانتصارات الغرامية والتفوق الأكاديمي وغيرها.

الغش والكذب

يمارس الغش في كل المدارس، وفي كل مراحل الدراسة، بدءاً بالابتدائية وحتى الدراسات العليا، وفي كل المجتمعات، ولا فرق هنا بين مجتمعات متطورة علمياً واقتصادياً وأخرى أقل تطوراً إلا في التفاصيل، والغش ظاهرة مشتركة بين أبناء كل الشرائح الاجتماعية، فلا يمكن القول بأن الغش منتشر بين الفقراء ويتعفف عنه الأثرياء وأصحاب المكانة الاجتماعية العالية، وهذه كلها حقائق تؤكدها نتائج البحوث الكثيرة حول الموضوع.

اعترف أكثر من نصف العينة من طلاب الجامعات الأمريكية المشمولة بدراسة بورز Bowers (1964) بممارسة واحد أو أكثر من أنواع الغش في الدراسة، وبينت نتائج دراسة مماثلة للباحثين ماكيب وترافينو(1993) Mccabe and Trevino بان نسب الغش بين طلاب الجامعات ازدادت بنسبة قليلة بصورة عامة، ولكنها ارتفعت بشكل ملحوظ في الامتحانات، ويبدو أن الطلاب في بعض حقول الدراسة أكثر ممارسة للغش من غيرهم، فقد أفادت دراسة لطلاب الدراسات العليا في مجال إدارة الأعمال بأن الغش منتشر بينهم بمعدلات تفوق طلاب التخصصات الجامعية الأخرى (Mccabe, Butterfield and Trevino, 2006) ومن أهم أسباب هذه المشكلة الخطيرة التي شخصها الباحثون أجواء التنافس الشديد بين الطلاب والتركيز على الدرجات والطموح العالي للحصول على وظائف مرغوبة بعد التخرج وضعف الوازع الأخلاقي وتقليد الأقران الغشاشين، وهم بذلك يخالفون القيم وقواعد الأخلاق الرافضة للغش أو يعطونها أهمية وأولوية أدنى من النجاح والتفوق، وهي كلها صفات أو تبريرات متوقعة من جانب الصياد في النفس البشرية، وليس من المستبعد أن يواصل هؤلاء الطلاب ممارسة الغش بعد التخرج في حياتهم الاجتماعية والعائلية والمهنية والوظيفية.

باختصار يستدل من نتائج الدراسات والتجربة البشرية بأن الأطفال الذين يربون على تبني أفكار وقيم الصياد قد يعانون من مشاكل وأزمات في طفولتهم وفي حياتهم بصورة عامة، ومن أبرز أسباب ذلك تسريع الآباء لعملية نضوج أطفالهم وتحميلهم مسؤوليات قبل أوانها واستغراقهم بشؤونهم واهمالهم لاحتياجات أبنائهم العاطفية ومعاملتهم بقسوة أحياناً، ولو تجنب الآباء التعامل بهذا الأسلوب مع أبناءهم فعلى الأغلب سيكبرون ليكونوا صيادين أسوياء وناجحين في معايير الصياد.

منهج التربية لدى المزارع

المزارع كما الصياد حريص على تربية أبنائه، لكنهما وكما يختلفان في القيم ونمط الحياة يفترقان حول نظرتهما للأبناء ومنهج تربيتهما المناسب، ويعامل المزارع أبناءه بطريقة مختلفة، ومن الطبيعي أن يتطلع إلى تنشئتهم على شاكلته، من حيث الأهداف والفكر والقيم، وهو يستخدم في ذلك وسائل متنوعة، ويستعين بمصادر مختلفة على إتمام ذلك، ولكنه يواجه صعوبات ومعوقات في ذلك، أهمها ضعف الاسناد المجتمعي، وبما أن قيم الصياد تتحكم بدرجة أو أخرى بكافة المجتمعات البشرية فعلى الأغلب سيكون لهذه المجتمعات تأثيرات غير مساندة أو حتى معاكسة ومضادة لطريقته وأهدافه في تربية أبنائه، وقد تتضافر هذه العوامل الخارجية مع أخرى داخل العائلة لإفشال مسعاه.

للحالات السلبية أو المرضية حصة أكبر من اهتمام وموارد الباحثين في حقول دراسة المجتمع والنفس، وبسبب ذلك فنحن نعرف عن هذه الحالات أكثر مما نعرف عن الحالات السوية، وبما أن هذه السلبيات ناجمة عن جانب الصياد في نفوسنا فليس من المتوقع توفر مصادر كثيرة عن المزارع وأسلوبه في الحياة، بما في ذلك منهجه في تربية الأبناء.

المزارع والذرية

للأبناء في نظر المزارع قيمة حقيقية، إنسانية بحتة، لا تشوبها اعتبارات منفعية أنانية، اقتصادية أو غير ذلك، فهم أولاً بشر مثله، مستقلون عنه في الفكر والإرادة، ويعاملهم كما يعامل الآخرين من غير أفراد عائلته، فهم ليسوا تابعين له أو مجرد امتدادات بايولوجية لكيانه، ولا يتوقع منهم استنساخ طريقته في الحياة بل الاقتناع بها، ولهم حقوق كاملة، بما في ذلك تقرير مصائرهم وانتقاء أفكارهم واختيار طريقة حياتهم، حتى لو فضلوا منهجاً مختلفاً، وأدى ذلك إلى ابتعادهم عنه.

الحياة في نظر المزارع حق لجميع البشر، وأبناؤه من أهم البشر في حياته، لذا هو الأكثر حرصاً على سلامتهم، ويمكن الجزم بأن أولئك الذين وأدوا أبنائهم من العرب قبل الإسلام لم يكونوا مزارعين، ولكن لم يخلو عصر الجاهلية من مزارعين، ومن أبرزهم صعصعة التميمي جد الشاعر الفرزدق، الذي لم يحرص على حياة ذريته فقط، بل حركته قيم وعواطف المزارع لإنقاذ بنات غيره من الوأد، وتروي مصادر التاريخ بأنه أحيا ثلاثمائة وستين موءودة، اشترى حياة كل واحدة منهن من ابائهن مقابل ناقتين وجمل، وكان صعصعة في حينها يدين بالوثنية مثل معظم العرب قبل الإسلام.

أبناء المزارع محور حياته، بكامل معنى الكلمة، إذ يضعهم في مقدمة سلم اهتماماته، ولهم الأولوية المطلقة في توزيع موارده ووقته وجهوده، وهو لن يظن عليهم بما يمتلكه ولو كان قليلاً، ويؤاثرهم على نفسه ولو كان به خصاصة، وسيبذل كل ما يستطيع من أجل مصلحتهم، ولا يتوقع منهم مقابل ذلك ثمناً، ولا يحملهم جميل تربيته لهم، ولو أصابه منهم أذى عمداً أو من دون قصد فسيغفر لهم ذلك.

لن يبيع المزارع أبناءه مهما تعسرت أحواله، ولن يقدم على التنازل عنهم لكي يتبناهم غيره، ولن يهجرهم أو يتخلى عنهم، ولن يستغلهم في أعمال غير قانونية ولا أخلاقية، ولا يكلفهم بمهام فوق طاقاتهم واحتمالهم، ولا يؤذيهم متعمداً، ولا يسيء معاملتهم، ولا يقسو عليهم. ولا يفرق المزارع بين أبنائه، ولا يفضل الأولاد على البنات، أو العكس، ويفرح إن رزق بابنة كما يفرح لو رزق بولد، فليس هو المقصود بالوصف القرآني التالي: وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً.

وسائل التربية لدى المزارع

يستعمل المزارع وسائل عديدة في تربية أبنائه، ومن أهمها القدوة الحسنة والعقيدة أو الفكر والتوجيه والإرشاد والروايات التاريخية والحكايات الخيالية، ولا يتعلم المزارع هذه الوسائل وكيفية تطبيقها من كتب إرشادية أو دورات تدريبية حول تربية الأطفال، وإنما هي نابعة أساساً من فكره ومنهج حياته ومن مصادر أخرى متنوعة مثل التراث المحكي والثقافة العامة، لذلك لا نتوقع من المزارع أن يستند إلى نصائح الطبيب الأمريكي سبوك Spock الذي نشر كتاباً في أواسط القرن الماضي يتضمن إرشادات حول كيفية تربية الأطفال، ولكنه بالطبع منفتح على المعرفة، وعلى الأغلب سيقرأ الكثير من المصادر حول الموضوع، ويختار منها ما يناسب منهجه.

بيئة عائلة المزارع

من أهم وسائل المزارع في تنشأة ابناءه بيئة العائلة، وتوفر هذه البيئة مناخاً صحياً ومسانداً لنمو الأبناء، فهو في ذلك يتفق مع بلاكبرن Blackburn (2001) في أن الطفل الذي ينشأ في بيئة عطوفة ومحبة يكبر ليكون عطوفاً ومحباً، وبيئة العائلة هنا أشبه بالتربة المعدة للزراعة، وما

يتمناه المزارع هو أن تغذي هذه التربة الصالحة أو بيئة العائلة في نفوس أبنائها مشاعر المزارع الإنسانية مثل المحبة والتعاطف والتعاون والتكافل والاهتمام بالغير، ويحصلون منها على الرعاية الكاملة ليكبروا ويصبحوا رجالاً ونساء معطاءين ومتعاونين وقادرين على تحمل مسئولياتهم الفردية والاجتماعية، ويمكن اعتبار بيئة العائلة بمثابة عالم مصغر تمارس وتطبق فيه كل قيم المزارع، ويتبادل أفرادها عواطفه الإنسانية.

لكي تكون لبيئة العائلة التأثيرات الإيجابية المرجوة على الأبناء فلا بد أن تخلو من الاتجاهات والسلوكيات التي يعتبرها المزارع سلبية وضارة، كما ينبغي أن تكون التوجيهات بالقول أو الفعل متجانسة وغير متناقضة، فلن يصدر عن المزارع مثلاً توجيه لأبنائه ثم يتصرف بطريقة مخالفة لذلك التوجيه، فمن يدعو ابناءه للالتزام بالصدق لا بد أن يكون صادقاً، لذلك فقد يكون المزارع أكثر التصاقاً بفكره وتطبيقاً لقيمه ومبادئه بعد أن يرزق بأطفال، لأنه سيرى نفسه مسئولاً عن توفير القدوة الصالحة لهم.

من المحتمل أن لا تتحقق مزايا التربية على طريقة المزارع إذا كان الأبويان مختلفين، أي أن أحدهما صياد والآخر مزارع، في هذه الحالة سيتلقى الأبناء تدريباً متبايناً وتوجيهات متناقضة، فبينما يحثهما الأول على التحلي بقيم وأخلاق المزارع يحرضهما الثاني على تبني أسلوب حياة الصياد، ويمكن تصور حيرة هؤلاء الأبناء وتبلبل فكرهم خاصة إذا كانوا لم يبلغوا المرحلة من العمر التي يستطيعون فيها فهم وتمحيص هذه الرسائل المتضاربة، ومن الصعب التنبؤ إن كانت ستكون الغلبة للصياد أم المزارع في هذا التنافس حول التأثير على شخصيات أبناءهما، ولكن من المهم أن نتذكر أن المجتمع يؤازر الصياد.

عقيدة المزارع والتربية

يستمد المزارع عقيدته من واحد أو أكثر من مصدر، فقد يكون هذا المصدر ديانة معينة أو تيار فلسفي أو فكر إنساني، وللعقيدة دور هام في تكوين وتطبيق منهج تربية المزارع، وغالباً لا تكون هذه العقيدة ابداعاً فردياً، وهو ليس الوحيد المؤمن بها، ويوجد آخرون يلتزمون بها أو بجوانب منها، مما يوفر لمنهج المزارع درجة من الشرعية والتبرير، وتتضمن عقيدة المزارع الدينية أو الإنسانية القيم والمبادئ الأخلاقية، والتي يرغب في نقلها إلى أبناءه، لأنه يراها مفيدة لهم، ولأن هذه العقيدة ليست أيديولوجية بالضرورة، والقيم التي تنادي بها إنسانية لا يتردد المزارع في تعليمها لأبنائه، وحثهم على تبنيها، مستعملاً في ذلك وسائل الاقناع والشرح والأمثلة من دون إكراه أو قسوة.

من خصائص ومزايا منهج المزارع التربوي

على عكس الصياد لا يتبع المزارع منهجاً صارماً في التربية، وهو بطبعه لا يميل للصرامة والشدة، بل يعتمد اللين والتفاهم، ولكن من دون تفريط، فلا ينبغي الخلط هنا بين اللين وعدم الاكتراث، والمزارع بصورة عامة أكثر اهتماماً وتفاعلاً مع أبنائه من الصياد، وهو لن يكتفي بإصدار التوجيهات والتعليمات بل سيبذل جهده لإقناع أبنائه بضرورتها وفوائدها، فإن طلب منهم الحفاظ على الترتيب والنظام فستجده موجهاً ومشاركاً في ذلك، وسيعود مرة وأخرى لتذكيرهم بذلك حتى يصبح الترتيب عادة مستقرة في نفوسهم، يلتزمون بها من دون الحاجة إلى توجيه أو تلويح بحافز إيجابي أو سلبي.

لا يشاطر المزارع الصياد في نظرته السلبية للطفولة، ولا يعتبرها مرحلة "طفيلية" لا تنتج شيئاً ملموساً، والطفولة في نظر المزارع من أجمل مراحل العمر، ومن الطبيعي أن يترك الطفل على سجيته ليتمتع بطفولته، وفيها يلعب الطفل ويبدأ مسيرة التعلم التدريجي، كما أن المزارع وعلى عكس الصياد لا يستعجل انقضاء مرحلة الطفولة، ولا يضغط على أبنائه ليكبروا قبل

الأوان، لذلك يقل احتمال وقوع أبنائه في الانحراف نتيجة ممارساتهم لأفعال الكبار مثل الجنس المبكر والعادات الضارة كالتدخين قبل أن تتطور قدراتهم الفكرية لاتخاذ القرار المسئول والإدراك الكافي لنتائج وعواقب تقليدهم للكبار.
بما أن المزارع غالباً ما يكون زوجاً مخلصاً ووفياً ومضحياً فاحتمال انفكاك عائلة المزارع أقل بكثير من عائلة الصياد، وكما بينت نتائج البحوث المشار المبينة سابقاً فإن العائلة المتماسكة والخالية من الشحناء والبغضاء خير بيئة لتنشأة أبناء ذي شخصيات سوية ومحصنة ضد الانحراف في دور المراهقة والاضطرابات النفسية والعاطفية في المراحل اللاحقة من حياتهم، وبالرغم من الصعوبات التي يواجهونها في الحياة والتكيف داخل مجتمعات الصيادين فإن احتمال انحرافهم ضئيل مقارنة بأبناء الصياد، إذ تؤكد نتائج الدراسات بأن الأطفال الذين يترعرعون في بيئة عائلية توفر لهم الحب والرعاية لا ينحرفون، حتى لو كانت الأحياء التي يعيشون فيها فقيرة وموبوءة بالانحرافات والعنف والادمان على المخدرات والجرائم، وفي بعض الحالات فقد يدرأ عن الأطفال الانحراف لو كان أحد الأبوين فقط محباً وراعياً لهم، ومن الواضح أن أسلوب المزارع في التربية يحصن الأبناء جيداً ضد الانحراف، وهم على الأغلب سيكبرون ليكونوا رجالاً راشدين ونساءً راشدات، تستفيد منهم مجتمعاتهم.

عقبات أمام المزارع المربي

على الأغلب سيكبر أبناء المزارع ويعيشون في مجتمعات يسيطر عليها الصياد، وبالتالي فإن فرص نجاحهم، أو على الأقل وصولهم إلى مراتب عليا، ضئيلة ومحدودة، فهم يعرفون جيداً بأن الذين يتمسكون بفكر وقيم ونمط حياة المزارع ويتصرفون وفقاً لذلك غير مهيئين فكرياً للتنافس مع الصيادين، وعلى سبيل المثال لا يبحث أولاد المزارع المتطبعين على قيمه ومبادئه عن النجاح بأي ثمن ووسيلة، ولو نتج عن التنافس شقاق وعدوانية فسيفضل أبناء المزارع الانسحاب على الاستمرار في المنافسة، وبما أن معظم مؤسسات المجتمع بما في ذلك المدارس والجامعات مسيرة بقيم وفكر الصياد فسيجد أبناء المزارع صعوبة في عمليات التنافس داخلها، وحتى المتفوقين في دراستهم لن يشعروا برضى عن انجازاتهم، وبسبب شعورهم بالعزلة فقد لا يتمكنون من الاستفادة بدرجة كبيرة من إمكاناتهم وقدراتهم وطاقاتهم الذاتية نتيجة التأثيرات السلبية، لكونهم وسط بيئة يجدون صعوبة في التأقلم معها، وفي نفس الوقت فإن صفاتهم الشخصية مثل التعاطف والاهتمام بالغير والأمانة والانصاف والأخلاق الدمثة واحترام حقوق الإنسان لا قيمة لها في مؤسسات الصياد، بل من المحتمل أن يجد أبناء الصياد أنفسهم منبوذين من قبل الغالبية من أبناء الصيادين، ومحرومين من فرص المشاركة في الألعاب الرياضية وغيرها من الأنشطة الجماعية، ومستهدفين بالسخرية والاضطهاد وحتى الاعتداءات البدنية، وعندما يدرك أبناء المزارع الاختلاف البين بين أسلوب الحياة الذي تعلموه من أبائهم ونمط حياة الغالبية من زملاءهم في المدرسة فقد يبدؤون بالتساؤل حول أسباب وجدوى ذلك، كما قد يتعرضون لضغوط من قبل المؤسسات التربوية و أقرانهم وزملائهم، لدفعهم إلى التخلي عن منهج ونمط حياة المزارع وتبني أسلوب الصياد، ولو استجابوا لهذه الضغوط فسيرى آباؤهم في ذلك هزيمة كبرى ومؤلمة.

نتائج غير متوقعة لمنهج تربية المزارع

بفعل تأثير بعض العوامل الداخلية أو الخارجية أو تحت ظروف معينة فقد لا تنتج أبوة المزارع النتائج المرجوة منها، فمن المحتمل أن تدفع بيئة المجتمع غير الملائمة بالمزارع إلى المبالغة في حماية أبنائه من تأثيراتها ومخاطرها، وينتج عن ذلك ما يعرف بأبوة الحماية المفرطة over-protective parenthood وهنا يضع المزارع نفسه بمثابة الحاجز أو الجدار الفاصل

بين المجتمع وابنائه، فيقرر أن يتولى تدريسهم في البيت بدلاً من المدرسة، لتخوفه من التأثيرات الضارة للاختلاط بأبناء الصياد في المدارس، وبالنتيجة سيحرم أبناءه من فرص التعرف والتعامل مع أقرانهم والتعلم من تجارب الحياة، وهم في النهاية سيضطرون للخروج إلى المجتمع والدراسة في جامعة أو كلية والعمل في مهنة أو وظيفة، ولا مهرب من التعامل مع صيادين لا يشاركونهم قيم وأفكار المزارع، وكان الأجدر به التركيز على تحصينهم بالقيم والمبادئ والأخلاق لا بالعزلة، وأن يمكنهم من اكتساب مهارات الاتصال والتعامل مع مختلف البشر منذ صغرهم، حتى يكونوا مستعدين لذلك في المراحل اللاحقة من حياتهم.



الفصل السابع
الصياد والمزارع في حقل العمل والانتاج

لو كان مؤلف هذا الكتاب صياداً لوجدتم ترتيباً مختلفاً لفصول الكتاب، وعلى وجه التحديد لتقدم ترتيب هذا الفصل على الفصول السابقة الخاصة بالعلاقات الاجتماعية والزواج وتربية الأبناء، ففي نظر الصياد يأتي العمل على رأس اهتماماته، ومن المتوقع أن يقضي أوقاتاً أطول، ويصرف جهداً أكبر، ويخصص اهتماما أعلى لأمور العمل وتحصيل معاشه مقارنة بما يبذله من وقت وجهد واهتمام لتوفير الاحتياجات العاطفية لعائلته، ومن المحتمل أن يكون لذلك تأثيرات سلبية على علاقاته الاجتماعية، باستثناء تلك العلاقات التي تخدم تحقيق طموحه المهني أو الوظيفي، وعلى النقيض من ذلك يضع المزارع سعادة العائلة وديمومة علاقات المحبة والتفاهم بين أفرادها في مقدمة اهتماماته، وتكون لها أولوية على بلوغ أهدافه المهنية والوظيفية، وينعكس التباين في القيم بين المزارع والصياد على اختيارهما لنوع العمل والمهنة وقيم العمل التي يطبقانها، وطبيعة علاقاتهما برؤسائهما ومرؤوسيهما وزملائهما وغيرها من جوانب أدائهما وسلوكهما الوظيفي.

اختيارات الصياد الوظيفية والمهنية

لو رجعنا بالتاريخ إلى الوراء، وبالتحديد إلى الزمن الذي كانت فيه هناك مهنتان فقط: الزراعة والصياد لكان من السهل التنبؤ بالاختيارات المهنية للأفراد الذين يميلون لحياة الصياد أو الذين يفضلون نمط المزارع، ومن الواضح أن هذه الاختيارات نابعة من فكر وقيم وميول الأفراد، فالصيادون يفضلون ويختارون المهن والوظائف والأعمال التي توفر لهم أفضل الفرص لبلوغ أهدافهم المرغوبة من قوة وثراء وشهرة ومكانة اجتماعية مرموقة، وهم أيضاً يرغبون بمهن ووظائف معينة، لأنها تتيح لهم المجال لاستعراض وتطبيق قدراتهم المتطورة ومهاراتهم المتميزة، في الوقت الذي قد لا تجتذبهم الوظائف والمهن، التي تنطوي على قدر عال من التعاون بدلاً من التنافس وتضطرهم للمشاركة في ثمرات العمل المشترك، وتفرض عليهم العمل وجهاً لوجه مع آخرين في فرق واكتساب وممارسة مهارات اجتماعية متقدمة، ومن المهم للصياد أيضاً أن تيسر له الوظيفة أو المهنة الفرص لارتقاء السلم الوظيفي أو المهني لأعلى المراتب على الهيكل التنظيمي.

ما الذي اجتذب الصياد إلى المجتمعات البدائية الأولى وجعلته يترك بيئته التي تعود عليها في الغابة أو الصحراء؟ ضرورة البقاء والحاجة للغذاء أولاً ومن ثم إغراءات السلم الاجتماعي، وما سيجره ذلك عليه من قوة ومنافع شخصية، وعلى وجه التحديد التطلع لتسلق السلم لبلوغ أعلى الدرجات عليه، ومن الملاحظ بأن الأفراد الذين يتعيشون بالفعل على الصيد أو الرعي والغزو يحتقرون المزارع ومهنته، ويعتبرون عمل الفلاح اليدوي أمراً مشيناً يترفعون عنه، وما زال العرب البدو في الجزيرة العربية والدول المجاورة ينظرون بازدراء للفلاحين وكل الذين يعملون بأيديهم، وهي أعمال لا تليق في نظرهم بالعرب الأقحاح، لذا ينتشر بينهم افتراض ظني بأن كل العاملين اليدويين هم أما غير عرب أو من أصول غير معروفة أو من قبائل ضعيفة لم تحافظ على سمعتها بين القبائل أو عبيد، ويطلقون على العاملين بأيديهم تسمية "الصناع"، ويأنفون من التزاوج معهم أو حتى مصادقتهم.

بعد استقرار الصيادين في المدن أسسوا مؤسسات هيكلية، اجتماعية وسياسية ودينية وعسكرية وإدارية، وتسلق الأقوى بينهم أو الذين يمتلكون الطموح وصفات القيادة والسيطرة هذه التنظيمات الهيكلية إلى قممها، ليصبحوا حكاماً وقادة عسكريين ورؤساء كهنة وكبار الإداريين، بينما شغل الوظائف الإدارية الوسطى والدنيا صيادون ذوي مهارات وقدرات أدنى.

إن المؤسسات الهيكلية تنظيمات رأسية، وكل ما يعتبره الصياد مهماً وثميناً هو بالضرورة ذو بعد عمودي أو رأسي، وهذه صفة معظم إنجازات الصياد الاجتماعية والمعمارية المبكرة، ففي المجال الاجتماعي استحدث الصياد الحكومات المستبدة والامبراطوريات والتنظيمات الكهنية والجيوش الجرارة، وترك لنا أثاراً معمارية دالة على أهمية قيم القوة والسيطرة والعظمة لديه، كالأهرامات والزقورات أو الأبراج الدينية الشاهقة والمراصد والمعابد الضخمة والمقابر الفخمة والتماثيل العظيمة وغيرها مما تعرف بعجائب الدنيا القديمة، وهي كلها هياكل أو إنجازات رأسية أو عمودية، ويعد ارتفاع أو ضخامة هذه الصروح الإنشائية من أهم مزاياها، إن لم تكن الميزة الأساسية، وكان من الطبيعي بالنسبة للصياد الوثني أن تسكن آلهته على قمم أعلى الجبال، فكان الإغريق يعتقدون بأن آلهتهم يقطنون أعالي قمم جبال أولمبوس، وطمح الصيادون في القدم كما تروي أساطيرهم للحصول على الخلود، وبرهنوا على شجاعتهم بتحدي سلطات الآلهة ومحاولة الالتحاق بهم في عليائهم، ولهذا السبب ربما بنى البابليون برجهم المشهور، ويبدو بأن هذه التطلعات والطموحات ما زالت مؤثرة في تفكير وسلوك الصياد، وإن بصور مختلفة، فالغربيون يسمون عماراتهم الشاهقة skyscrapers، وترجمتها العربية بناطحات السحاب ليست دقيقة، فالترجمة الحرفية للمصطلح الإنجليزي هي كاشطات أو ناطحات السماء، وعندما يعلنون عن استنساخ حيوان أو هبوط مسبار فضائي على سطح المريخ تظهر تعليقات عن مدى اقتراب الإنسان، أو بالتحديد الإنسان الغربي، من الصعود على المسار الرأسي للخلق ليكون هو الآخر خالقاً، أو شبيهاً بالخالق ومتصرفاً إلى حد ما بشؤون الخلق.

الصعود إلى القمة هو الشغل الشاغل لجميع الصيادين ومؤسساتهم ودولهم، وحتى أولئك الذين لا يستطيعون التنافس في الصعود إلى الفضاء أو تحقيق إنجازات باهرة في العلوم يهتمون بإيجاد ما يشمخون به فوق الآخرين، سواء كان ذلك في مجال السياسة أو القوة العسكرية أو التطور الاقتصادي وغيرها من مجالات التنافس بين الأمم، ويحرص هؤلاء على متابعة مراتبهم بين الأمم في تقارير المقارنة والمفاضلة بين الدول والصادرة عن مؤسسات عالمية، وتتضمن على قوائم للدول حسب مدى تقدمها في مجالات شتى، ومنها تقرير الموارد البشرية الصادر عن الأمم المتحدة.

وحتى وقت قريب كانت اليابان تفاخر بموقعها خلف الولايات المتحدة الأمريكية من حيث قوة اقتصادها، قبل أن تكتسحها الصين، كما تقترن صورة ماليزيا في أذهان الكثيرين بأعلى مبنى في العالم، قبل أن تفتتح إمارة دبي مبنى أكثر ارتفاعاً، ومن المعروف بأن طموح هذه الإمارة لاحتلال موقع بين دول العالم، وعلى الأخص في نشاط العمران، تسبب لها بأزمة مالية حادة، مما يبرهن بأن ثمن طموح الصياد لبلوغ القمم الإنشائية فادح أحياناً، وتضع بعض الدول مثل السعودية ضمن أبرز إنجازاتها صروحاً معمارية مثل أعلى نافورة أو وأعلى ساعة في العالم. وما أكثر الفيلة البيضاء في الدول النامية، وتطلق هذه التسمية على المشاريع الإنمائية، التي تستثمر فيها هذه الدول من أجل التفاخر والسمعة أكثر منه لتحقيق منافع تنموية تتناسب مع تكلفتها.

وفي مسرحية بيت الدمية لهنريك إبسن تعكس أراء شخصية كروجستاد أهمية الوظيفة على سلم الترقي بالنسبة للصياد إذ يقول: "لو تطلب الأمر سأقاتل في سبيل وظيفتي الصغيرة في المصرف وكأنها [بقيمة] الحياة كلها. وهذه الوظيفة في المصرف بمثابة أول درجة على سلمي، والآن يريد زوجك أن يرفسني لأسقط في الوحل مرة أخرى"، ويتضح لنا من هذا الخطاب بأن كروجستاد يرى في الوظيفة سلماً صعد عليه ولو درجة واحدة من الوحل الذي كان يرزح فيه.

تعكس التنظيمات الرأسية الهيكلية مثل البيروقراطيات والشركات الكبرى توق الصياد للتسلق إلى القمم وتوفر له سبل تحقيق ذلك، ويمثل التنظيم الرأسي الهيراركي نظاماً لتوزيع السلطات والمسؤوليات والمكانة والرواتب والمكافآت المالية، وأعز أمنيات الصياد الصعود أو الترقي على الهيكل لبلوغ قمته، ويحصد الناجحون في الوصول إلى القمة كل المنافع المرتبطة بذلك من مرتبة عالية ومكانة اجتماعية وشهرة ونفوذ وغيرها من مظاهر السلطة والقوة، وتخدم هذه المظاهر في

التفريق بين الأقوياء والأدنى منهم، ففي الصين مثلاً ميز كبار موظفي الإمبراطورية أو الماندرين قديماً أنفسهم بالملابس المزركشة وإطالة الأظافر، واليوم يحصل كبار موظفي الشركات العملاقة على مزايا خاصة مثل السفر في طائرة الشركة الخاصة والصرف من حساب خاص على أنشطتهم الاجتماعية إضافة إلى قبض المكافآت السخية جداً، وقد حاول الزعماء الصينيون الشيوعيون إلغاء أهمية المرتبة والمكانة وغيرها من رموز القوة في تنظيماتهم الحكومية والحزبية، فوحدوا الألقاب والأزياء وغيرها، ولكنهم تخلوا عنها فيما بعد.

الصيادون في شركات الأعمال

نحن نعيش في عصر شركات الأعمال، إذ تعول عليها الدول الغربية وغيرها في تحقيق النمو الاقتصادي ومجتمع الرفاهية من خلال استثماراتها الكبيرة وتقنياتها الحديثة وانشطتها التطويرية والبحثية وفرص التوظيف التي توفرها للملايين، ويتعدى دور ومجال تأثير هذه الشركات، وخاصة الكبرى منها، الحقل الاقتصادي ليشمل الحقول السياسية والاجتماعية والشخصية أيضاً، وقد لا يرى كثيرون أي مبالغة في رأي جروسمان Grossman (1988) بأن الشركات العملاقة هي الوحيدة القادرة على ردم الهوة النفسية الناجمة عن تآكل التنظيم والمعنى والفهم في الحياة العامة، وبالفعل فقد وضع الصياد كل أمله وثقته بهذه المؤسسات لصنع كل مقومات حضارة الصياد الحديثة، ويتكل عليها لبلوغ كل أهدافه في الحصول على القوة والأمن والسعادة، وطغت معايير وقيم الشركات الكبرى على كل المعايير والقيم الأخرى في نظره، حتى صار يقاس مدى أهمية الفرد بما يقدمه من إسهامات في السوق، وغدا مؤشر التفوق الرئيسي هو الحصول على وظيفة في هذه المؤسسات، أو توفير الخدمات لها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومن المتوقع أن يشعر الذين لا يفلحون في ذلك بالإحباط والضعة، وتتمثل أهمية العمل في هذه المؤسسات من الإقبال الكبير على الحصول على شهادة في حقل إدارة الأعمال والإدارة، ويذكر لينبرجر وتكر Leinberger and Tucker (1991) بأنه في 1971م كان واحد من كل سبعة خريجين من الجامعات الأمريكية في اختصاص إدارة الأعمال، وارتفعت النسبة في عام 1985 إلى واحد من كل أربعة خريجين، وهي نفس النسبة تقريباً في 2010م، كما يلاحظ ازدياد مضطرد في عدد الحاصلين على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال، والتي يعتبرها الصياد أفضل مؤهل لحصوله على وظيفة جيدة في شركات الأعمال وتحسين فرصه في الترقية الوظيفية، وليحقق طموحه في تسلق السلم الوظيفي إلى قمته، فيصبح قائداً مرموقاً في مجال الأعمال، ومتمتعاً بالنفوذ والمال والشهرة، وإن لم يحصل على مبتغاه في شركته فلن يتردد في الانتقال إلى شركة أخرى تعرض عليه مركزاً وظيفياً أرقى وراتباً ومخصصات أكبر، فليس لهذا الصياد من ولاء إلا لطموحه ومصلحته الشخصية.

ومن الطريف والدّال أيضاً أن المختصين بالبحث عن أفضل المرشحين للوظائف القيادية في الشركات يعرفون باسم " صائدي الرؤوس"، وللتذكير فصائدي الرؤوس هي التسمية التي عرفت بها بعض القبائل البدائية في جزيرة بورنيو وغيرهم، ومن طقوسهم القتالية قطع رؤوس أعدائهم وتحنيطها وتقليصها لكي يرتديها المحاربون المنتصرون في قلائد حول أعناقهم، أو لتعليقها على جدران بيوتهم، وهي بالمناسبة لا تختلف في الجوهر والرمزية عن الميداليات والنياشين، التي يزين بها الضباط والجنود في الدول "المتحضرة" صدورهم، واستعمال مصطلح صائدي الرؤوس في دنيا الأعمال الحديثة مثال آخر على مدى تأثير ثقافة وإرث الصياد على مجتمعاتنا الحديثة.

في عالمنا المسير بقيم الصياد هنالك العديد من المهن والوظائف التي يفضلها الصيادون ويتنافسون للحصول عليها، وبالإضافة إلى مهن ووظائف الأعمال الحرة في الشركات والبنوك والمتاجر يرغب الصياد في أن تكون له مؤسسته الخاصة، حتى لو كانت صغيرة، كما تجتذب الصيادين الوظائف الحكومية، وخاصة تلك التي تتيح لهم الترقي إلى مناصب عليا، وتضعهم

بالقرب من صانعي القرار على الهرم الإداري الحكومي، وللعمل السياسي أفضلية في نظرهم، لأنه مفتاح بلوغ أعلى درجات السلطة والنفوذ في بلدانهم، كما يرغبون بالوظائف العسكرية طمعاً بالوصول إلى أعلى المناصب، ويشهد التاريخ القديم والحديث على أن شهوة الكثير من القادة العسكريين لم تتوقف عند تلك المناصب بل طمحت أعينهم إلى السلطة السياسية، فقادوا انقلابات عسكرية مخاطرين بأرواحهم، وتربع الناجحون منهم على سدد الحكم لمدد زمنية، قد تطول أو تقصر، قبل أن تطيح بهم انقلابات أو أزمات سياسية أو ثورات شعبية.

أمثلة على مهن الصياد المفضلة

يتهافت الصيادون على مهن كثيرة مثل الطب والمحاماة والتعليم العالي بسبب المكانة الاجتماعية المرموقة التي يحظى بها أصحاب هذه المهن، وما توفره لهم من مدخولات كبيرة ومكانة اجتماعية مرموقة وشعور بالقوة والتأثير، ومن ناحية أخرى لا يقبل الصياد على وظائف أخرى لأنها لا توصله إلى أهدافه، أو لأنها لا تحقق له ذلك بالدرجة والسرعة المرغوبتين، وموقف الصياد من المهن والوظائف متغير ومتقلب وخاضع لقوى السوق والاتجاهات الاجتماعية.

لاحظ مينوتي Menotti (1953) قبل أكثر من نصف قرن بأن الفرد الأمريكي العادي في تلك الحقبة من الزمن يكن الاحتقار لبعض المهن مثل الموسيقى والتأليف والرسم، ويعتبرها متنافرة مع الصورة المثالية للرجل أو حتى متناقضة مع القيم الأمريكية الأصيلة، وذلك لأن معظم أصحاب هذه المهن لا يمتلكون من الموهبة ولا يحالفهم الحظ ليصبحوا بشهرة وثروة الروائي أرنست همنجواي أو الموسيقارين جلبرت وسوليفان أو الفنان بيكاسو، إذاً ليس المهم أن يمارس المرء مواهبه والأعمال التي يحبذها بل ما يمكن أن يحصل عليه من ثروة وشهرة منها، ولكن ازدياد الطلب على هذه المواهب من قبل القطاعات الترفيهية والإعلامية ودور النشر وارتفاع مدخول أصحاب هذه المواهب أدى إلى تغيير جذري في صورتها في أذهان العامة من الأمريكيين، وبالتحديد إلى ارتقاء مكانتها وترتيبها على سلم المهن في المجتمع.

لماذا يقدم الصياد على اختيار مهنة المحاماة؟ الإجابة على هذا السؤال معروفة سلفاً بالنسبة للعديد من رؤساء الدول، وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية (Bogus,1996)، الذين بدأوا حياتهم المهنية في المحاماة، قبل التحول إلى المعترك السياسي، ويبلغ عددهم 26 رئيساً من مجموع 43 رئيساً، أي بنسبة 60 بالمائة، كما أن معظم نواب الرئيس يحملون مؤهلات قانونية، وفي عام 2006م كانت نسبة الحقوقيين بين أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي تزيد على النصف.

ومن الواضح أن مهنة المحاماة تمهد لحصول الصياد على أعز أمانيه في النفوذ والمال وربما السلطة السياسية، وهي في أقل الاحتمالات مهنة مربحة، وهذه المزايا كافية لتحفيز الصياد على بذل الكثير من الجهد والوقت والمال من أجل الحصول على الشهادات وفترات التدريب اللازمة لممارسة هذه المهنة، والمحامون الذين يختارون العمل في شركات كبرى في مجال قوانين الشركات أو القضايا التجارية يفعلون ذلك مدفوعين أيضاً بالرواتب المجزية والمكانة الاجتماعية المميزة، وبالإضافة للعوائد الضخمة التي يحصل عليها المحامون في الترافع والدفاع عن القضايا أمام المحاكم يحصلون على الشعور بالرضا من عدد القضايا التي ينجحون في التوكل عنها وفي التغطية الإعلامية لعملهم وإنجازاتهم، وبعد قضاء سنين في مهنة المحاماة فقد يقع عليهم الاختيار لملأ وظائف قضاة في المحاكم، مما سيرفع من مكانتهم المهنية والاجتماعية، ويمهد الطريق للراغبين منهم في العمل بالسياسة، ومن البديهي بأن بيد القضاة سلطات كبرى، بما في ذلك اصدار الأحكام على المتهمين المدانين، والتي قد تصل إلى الحكم بالإعدام، وهم في عداد قلة قليلة مثل القادة السياسيين والشرطة الذين يفوضهم القانون مثل هذه السلطة وفق شروط محددة، ومن المحتمل أن ينحرف بعض القضاة وغيرهم من الحقوقيين في تطبيقهم للقوانين وخدمة العدالة، وعادة ما يكون ذلك استجابة لتأثيرات سلطة أعلى أو مصالحهم الذاتية، والمرجح ان يكون هؤلاء

صيادين، كما أن القضاة القساة المعروفين بفرض أقصى العقوبات بما في ذلك الإعدام هم بالضرورة أقرب إلى شخصية الصياد.

يتوقع من العاملين في مهنة المحاماة الالتزام بقواعد المهنة وأخلاقها، ولو خالفوا ذلك فقد يتعرضون لإلغاء رخص ممارسة المحاماة بالإضافة إلى الجزاءات القانونية المناسبة، وقد شطب أسمي رئيسين من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية من سجلات المحامين، كما يوضح جيس(2011) Geis، ففي 1976م ألغي ترخيص الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون بتهمة عرقلة مسار العدالة، وفي 2001م علقت ولاية أركنساس الأمريكية رخصة ممارسة المحاماة الممنوحة للرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلنتون بسبب إدلاءه بشهادة كاذبة أمام المحكمة.

كتب وارن بيرجر (1995) Burger الرئيس الأسبق للمحكمة الفدرالية الأمريكية مقالاً انتقد فيه تدهور معايير وسلوكيات المهنية في عمل المحامين، ونتيجة ذلك فقد تدنت سمعة المحاماة إلى أدنى مستوى لها في تاريخ بلاده، أما بوغوس (1996) Bogus فقد ذهب إلى أبعد من ذلك باختياره عنواناً لمقالته حول تدهور مهنة المحاماة في أمريكا وهو : موت مهنة محترمة.

لو اختار الصياد العمل في حقل الطب فقد يصبح طبيباً بارعاً أو جراحاً ماهراً أو باحثاً طبياً مبدعاً أو صيدلانياً ناجحاً، وللمهن الطبية عوامل جذابة عدة من وجهة نظر الصياد، من أهمها الأمان المعاشي والعائد المالي المجزي، أضف إلى ذلك المكانة الاجتماعية المرموقة والاحترام والتقدير الذي يعامل به أصحاب المهن الطبية، وليس من قبيل الصدفة وصف المهنة بـ " المقدسة"، ففي القدم كان الكهنة يداوون الناس بالرقي والأعشاب، ولعل رواسب تلك الفترة من التاريخ وراء الإعجاب والتقدير غير الاعتيادي الذي يخص العامة به مهنة الطبيب، وتفرض الضوابط المهنية الأخلاقية على ممارسي المهنة بذل كل ما لديهم من معرفة ومهارات لعلاج المرضى والتخفيف من معاناتهم.

عندما لا تتوفر برامج ضمان صحي حكومية يضطر المرضى لدفع تكاليف علاجهم وأدويتهم، وقد يعيق ارتفاع أجور الأطباء وتكاليف العلاج من حصول الكثيرين على خدمات صحية كاملة وجيدة، ومن النادر اليوم أن يعود الأطباء مرضاهم في منازلهم، أو أن يخصصوا أكثر من دقائق معدودات لكل حالة مرضية، ويشتكي بعض المرضى في زماننا من المعاملة الجافة التي يلاقونها في المستشفيات والعيادات، ويبرز جانب الصياد في صورة الطبيب السلبية العالقة في أذهان الكثيرين، والتي تبرز أنانيته وجشعه وولعه بجمع الأموال الطائلة من مهنته، وانغماسه في إبرام الصفقات التجارية والاستثمارات المالية لتنمية ثروته الشخصية، واهتمامه بأمور لهوه وترفه، إذ يتندر البعض بأن الوقت الذي يقضيه بعض الأطباء الأمريكيين في ملاعب الجولف والرحلات السياحية يفوق ما يخصصونه لحضور المؤتمرات الطبية ومتابعة التطورات الحديثة في مجالات تخصصهم، وأسوء الأمثلة على انحطاط بعض الأطباء هم النفر القليل من الأطباء الالمان واليابانيين الذين أخلوا بقيم المهنة واقترفوا جرائم لا إنسانية، عندما أجروا اختبارات طبية خطيرة على سجناء حرب وغيرهم من دون اكتراث لما نتج عنها من معاناة وألم ووفيات، وفي نفس الفترة الزمنية تقريباً جرت دراسة مخالفة لأخلاق المهنة الطبية على مرضى سود مصابين بمرض السفلس في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ أخفى الباحثون التابعون لإحدى المؤسسات الحكومية عمداً أهداف الدراسة الحقيقية عن عينة الدراسة، وحثوهم على المشاركة في الدراسة من خلال المحفزات المادية، وأخضعوهم لإجراءات مؤلمة وخطيرة، وفي وقتها لم يتوفر دواء فعال للمرض، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية اكتشف دواء البنسيلين، وثبتت فاعليته في علاج السفلس، وبدلاً من تزويد المرضى في عينة الدراسة بالعلاج قرر الباحثون حجبه عنهم لأنهم اعتبروا دراستهم وما يمكن أن ينتج عنها أهم من حياة عينة الدراسة من السود، وبسبب ذلك فقد توفي البعض منهم وكذلك أفراد أسرهم الذين أصيبوا بالعدوى، ولم تتوقف الدراسة إلا في عام 1972م (Roy,1995)، وبعد اكتشاف الظلم الفادح الذي وقع على ضحاياها اعتذر الرئيس الأمريكي بيل كلنتون للناجين من عينة الدراسة وعوائلهم في 1997م، وفي الماضي القريب ثبت

مشاركة أطباء أمريكيين في تعذيب سجناء عراقيين بعد الاحتلال الأمريكي للعراق في 2003م، كما يؤكد جيس (2011) Geis.

ادعت إحدى المؤسسات الخيرية البريطانية Age Concern بأن بعض الأطباء في عدد من المستشفيات يشجعون على اهمال إسعاف مرضى مسنين بهدف تعجيل وفاتهم، ليتسنى توفير أسرة لمرضى آخرين، واستدلوا على ذلك من عبارة: " لا تسعفوهم! "المدونة على بطاقات هؤلاء المرضى من دون علمهم، وبالنتيجة فلو أصيب أحدهم بأزمة صحية حادة مثل سكتة قلبية تتطلب إسعافاً فسيتركونه ليموت(Ebrahim, 2000) ، وقد أدى الجدل الذي أثاره هذا الموضوع إلى إصدار تعليمات جديدة بشأن إسعاف المرضى المسنين تقضي بعدم اتخاذ قرار طبي بشأن ذلك من دون مشاورة المريض.

نقرأ بين الحين والآخر عن اتهامات لأطباء بإجراء عمليات جراحية غير ضرورية على مرضاهم طمعاً بالعائد المالي وبتشجيع من إدارات المستشفيات التي يعملون بها والسياسات النفعية المعتمدة فيها، ويشير فردريش (2010) Friedrichs إلى أن بعض أفعال الأطباء تعتبر أو ينبغي اعتبارها جرائم طبية يحاسب عليها قانونياً ومسلكياً، وعلى سبيل المثال ذكر تقرير صحفي للكاتبين بيرينسون وبولاك (2007) Berenson and Pollack منشور في النيويورك تايمز بأن إثنتين من كبرى شركات صناعة الأدوية في العالم يدفعان مئات الملايين من الدولارات سنوياً لأطباء مقابل وصفهم دواء معين لفقر الدم على الرغم من أن الجرعات الموصوفة تزيد من احتمال إصابة المرضى بالسكتة القلبية والجلطة الدماغية.

وتتسبب الأخطاء الطبية في عيادات الأطباء والمستشفيات بأعداد كبيرة من الوفاة او الإعاقة أو الإصابة بأمراض، وبعد مراجعة عدد من التقارير الإحصائية توصل ليبي (1994) Leape إلى أن حوالي 180 الأف أمريكي يتوفون سنوياً نتيجة أخطاء طبية، وتقدر مراجع أخرى أن يكون العدد أكبر من ذلك (Null, Dean, Feldman and Rasio, 2005).

ويرى البعض بأن احتمال تعرض الأطباء في الدول الصناعية للمحاسبة أمام القضاء بسبب اقتراف خطأ طبي malpractice أمضى تأثيراً في سلوكهم من قسم المهنة (قسم أبي قراط)، ويلاحظ هوجان (2003) Hogan ارتفاعاً مضطرداً في عدد قضايا الأخطاء الطبية في القرن العشرين، ولكن الاحتكام إلى القضاء للبت في حالات الأخطاء الطبية عملية مطولة ومكلفة قد تستغرق سنين وتستهلك الكثير من موارد طرفي القضية، كما يبين سلون وجيبكي (2009) Sloan and Chepke.

وفي المجتمعات العربية نجد أمثلة على الطبيب الأقرب إلى نموذج الصياد في أولئك الذين يؤسسون المستشفيات والمستوصفات كمشاريع استثمارية لجني أعلى العوائد والأرباح منها، وهم يفرطون بقيم وأخلاق المهن الطبية عندما يفرضون على مرضاهم علاجات وتحاليل مختبرية وصور أشعة غير ضرورية، كما تقود دوافع وسلوكيات الصياد بعض الأطباء إلى اتباع ما يعرف بالكشف المستعجل، ليحصل المرضى الذين يدفعون أجرة أعلى للطبيب على ميزة الكشف قبل الذين يدفعون أجرة اعتيادية، وفي المملكة العربية السعودية تبين أن أعداد الشكاوى من الأخطاء الطبية المحتملة تصاعدت في الفترة الزمنية بين 1999 و2008م، كما أفاد السعيد Al-Saeed (2010) .

قد يظن البعض بأن الافراد الأقرب إلى نموذج الصياد نادرون في عالم الأكاديميات والبحث العلمي، لكن الحقائق تؤكد عكس ذلك، وتحذر واشبورن (2005) Washburn من التنافس الحاد بين الجامعات والكليات الأمريكية وتحولها إلى مؤسسات ذات أهداف تجارية، وتورد على سبيل المثال قرار جامعة يوتا بتسجيل براءة اكتشاف أحد مورثات مرض سرطان الثدي وبيعه إلى شركة خاصة أسسها أحد أساتذة الجامعة بدلاً من توفيرها للباحثين على الرغم من أن الحكومة الأمريكية مولت البحث الذي أدى إلى هذا الاكتشاف العلمي الهام.

تجتذب مهن التعليم الصياد، لأنها تمنحه شعوراً بالقوة والأهمية بالدرجة الأولى، وهو بطبيعته أقل اهتماماً بالقيمة المعنوية العليا للتعليم ودوره في مساعدة الطلاب على التعلم وتنمية فكرهم

وانضاج شخصياتهم، ووجد ماكليلاند(McClelland (1975 بأن الكثير من العاملين في سلك التدريس يضعون اكتساب القوة في مقدمة احتياجاتهم ورغباتهم، لذا فمن المنطقي الافتراض بأن الحصول على هذه القوة وممارستها سبب رئيسي لاختيارهم هذه المهنة، ويخشى من التأثيرات السلبية لأهداف ومنهج حياة المعلم الصياد على أداء مهامه التعليمية والتربوية، فقد لا يكون البعض منهم متحمسين بدرجة كافية لتزويد طلابهم بكل ما يحتاجونه من معارف ومهارات، لذا يضنون عليهم ببعضها، وقد يفسر هذا التباين الكبير في تقييم الطلاب لمدرسيهم، فبينما يحصل البعض منهم على تقييم عال من طلابهم يكون تقييم معلمين آخرين منخفضاً، والمهارات التعليمية وحدها غير كافية لضمان نجاح المعلم، إذ لا بد أيضاً من امتلاكه للاستعداد الشخصي لأداء مهام مهنته بأمانة وفاعلية، فإذا كان الأستاذ يتوقع من طلابه الاتفاق مع أراءه ولا يشجع على التفكير الحر فمن المحتمل جداً أن لا يشجع طلابه على تطوير مهاراتهم في البحث والتحليل.

اقترنت صورة المعلم العربي في الماضي بالعصا، وكان من المقبول اجتماعياً استعمال العقاب الجسدي على التلاميذ، وبعد اعتماد أساليب التربية الحديثة انخفض استعمال العقاب الجسدي في المدارس، لكنه لم يختفي تماماً، وقد استبدل في بعض الحالات بالعنف اللفظي حيث يتعرض الطالب للتوبيخ والإهانة، وقد وجد المحارب (2005) بأن لمعاملة الأساتذة وإدارة المدرسة تأثير أكبر في ظهور بعض السلوكيات المنحرفة من معاملة الآباء القاسية في البيت.

كما ان معدلات الغش بين الطلاب مرتفعة كذلك الغش الأكاديمي والبحثي موجود بنسب جديرة بالاهتمام والقلق، مما يشي بوجود صيادين في الصفوف ومراكز البحوث، فقد نشر مارتنسون واندرسون وديفري (Martinson, Anderson and De Vries (2005 نتائج دراسة على عينة من العلماء تفيد بأن حوالي ثلثهم أقروا بقيامهم بممارسات مشكوك في شرعيتها الأكاديمية، وفي المراجعة التي أجراها فانيلي (Fanelli (2009 لنتائج بحوث سابقة حول نفس الموضوع توصل إلى أن نسبة المعترفين على أنفسهم بمخالفات كبيرة أقل من 2 بالمائة وبالمخالفات المشكوك فيها 30 بالمائة، ولكنهم أفادوا بأن غيرهم ارتكب مخالفات كبرى بنسبة 14 بالمائة ومخالفات صغرى بنسبة 70 بالمائة، ويتضح مدى انتشار الغش الأكاديمي من عدد المقالات العلمية التي يتم سحبها من الدوريات العلمية سنوياً كما يفيد فانج وكاساديفال

(Fang and Casadevall (2013، ويؤكد الباحثان على الآثار الوخيمة المترتبة على التلاعب بنتائج بعض البحوث المنشورة، فعلى سبيل المثال أدى نشر مقال للدكتور أندرو ويكفيلد في 1998م في دورية لانسيت العلمية المعروفة حول وجود ارتباط بين لقاح الأطفال ضد الحصبة والنكاف والحميراء والإصابة بأمراض جهاز الهضم والتوحد إلى امتناع الكثير من الآباء من تلقيح أطفالهم، وحتى بعد سحب المقال من الدورية ما يزال الكثير من الناس يعتقدون بأن التلقيح يؤدي إلى الإصابة بالتوحد، وتعزي ارتفاع الإصابات بمرض الحصبة في أمريكا الشمالية مؤخراً إلى ذلك.

وفي 1999م ادعى أحد العلماء الباحثين في مركز للأبحاث تابع لجامعة كاليفورنيا اكتشاف عنصرين كيماويين جديدين، وكما هو متوقع تحمس للاكتشاف الباحثون في مجال الاختصاص، ولكن عندما حاول البعض منهم تكرار التجربة لم يحصلوا على نفس النتائج، فاضطر مركز الأبحاث لسحب تقرير البحث، وبعد تأكد فريق تابع للمركز من أن نتائج التجربة مختلقة صدر قرار بفصل الباحث عن العمل (Monastersky, 2002).

والأسوأ من ذلك هو استغلال بعض الأساتذة لمهنتهم في الحصول على مكاسب مالية أو جنسية من طلابه، وتشير نهاد أبو القمصان Abul Komsan إلى أن 27 بالمائة من الطالبات الجامعيات في الجزائر اشتكين من تحرش اساتذتهن وتورد احصائيات أخرى عن حالات مشابهة في دول عربية أخرى، لذا نجد أن المؤسسات التربوية اليوم وفي دول عربية وغيرها لا تكتفي بالتعويل على الانضباط الذاتي لأعضاء المهنة، أو التذكير بأن "المعلم كاد أن يكون رسولا" وتضع قواعد مهنية وأخلاقية صارمة لأعضاء هيئة التدريس فيها، وتحاسب المخالفين حساباً عسيراً يصل أحياناً إلى الطرد من الوظيفة والمحاسبة القانونية.

مهن ووظائف المزارع

لا توجد اختلافات في الذكاء والقدرات والاتجاهات بين المزارع والصياد لأن كل واحد منا صياد ومزارع في نفس الوقت، ولكن وبشكل عام يبدو الصياد في وضع أفضل للفوز بالكثير من المهن والوظائف من المزارع، فإن لم يتمكن الصياد من دخول جامعة عامة أو حكومية أو الحصول على بعثة فستمكنه ثروته أو شبكة صلاته الاجتماعية من الانتساب لجامعة أهلية، وستساعده هذه الصلات في التدريب والتوظف بعد حصوله على الشهادة، وعندما تكون وظيفة معينة محط أنظار الصيادين فسيكون من الصعب على مزارع الظفر بها، فالصياد يكرس الكثير من وقته وجهده لتنمية صلاته مع المتنفذين داخل المؤسسات، والتي يديرها صيادون على الأغلب، لذلك تكون فرصته في الفوز بالوظيفة أو المرتبة المهنية أفضل بكثير من المزارع الذي يعتمد على مواهبه فقط في المنافسة على هذه الوظائف أو المهن. كما أن معايير الصياد في اختيار الوظائف والمهن أقل تشدداً من معايير المزارع، إذ تقف قيم المزارع الأخلاقية عائقاً أمام قبوله بالعمل في بعض المهن والمؤسسات، التي لا تنسجم أهدافها وسياساتها مع القيم التي ينادي بها ويطبقها.

يقبل الصيادون والمزارعون على مهن الطب والتعليم ولكن لأسباب مختلفة، فالصياد يبحث فيها عن القوة والمكانة بينما يرغب بها المزارع من أجل رسالاتها الإنسانية، ومن الأمثلة على الأطباء المزارعين أولئك العاملون في منظمة أطباء بلا حدود والمتطوعون لمعالجة وباء الإيبولا والدكتور الأمريكي باتش أدامز الذي يقدم العلاج المجاني للمرضى.

ويحجم المزارع من التوظف في مؤسسات تعتمد العنف أو التهديد بالعنف في أداء مهامها مثل الجيش والشرطة والسجون، أو مصانع أسلحة وأدوات قمع، وينفر من العمل في مؤسسات تستغل ضعف الإنسان في بلوغ أهدافها مثل إنتاج وبيع السجائر ودور القمار والدعارة والإباحية، وقد يكون صعباً أو حتى متعذراً على المزارع التكيف مع متطلبات وظروف العمل في مؤسسات كبيرة حكومية أو خاصة، والتي تركز على الالتزام بالقواعد الرسمية والعلاقات النمطية أكثر من الإبداع والعفوية، كما تحرمه من التمتع برؤية نتاج عمله، وهو يعتبر معظم هذه التنظيمات منشأت أسسها صيادون لتحقيق أهدافهم الخاصة بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وفي الوقت الذي لا يعارض مبدأ الربحية والكفاءة يرفض أن يكون ذلك على حساب المصلحة العامة وحقوق العاملين وسلامة البيئة، وهو يتفق مع روبرتس (1991) Roberts في نظرته للتنافس إذ يرى أن من دون التنافس تكون مؤسسات الأعمال بطيئة، ولكن مع وجود التنافس يتحفز الكثيرون من أصحاب العمل لتحقيق السبق بدون اعتبار للتكلفة، وعندما يربحون المنافسة تكون الفائدة للمدى القصير فقط، أما على المدى الطويل فهؤلاء وغيرهم من الخاسرين.

يفضل المزارع الوظائف التي تلبي احتياجاته الأساسية للعمل والإنتاج، وتمكنه من تحصيل معاشه من دون التفريط بقيمه وقواعده الأخلاقية، وتنطوي على التعاون مع زملاءه في العمل، وقد تتوفر هذه الشروط بدرجة أكبر في وظائف المؤسسات متوسطة وصغيرة الحجم أو ضمن فرق عمل يعمل أفرادها وجهاً لوجه، ويكون فيها استعداد وحماس المزارع الكبير للاتصال والتعاون مطلوباً ومثمناً، ولا تعكر العلاقات فيها المنافسة الحادة والصراعات المكتبية والوظيفية.

ويبرع المزارع في الوظائف التي تتطلب الاتصال مع آخرين والتفاعل العميق معهم ومساعدتهم، مثل العمل الاجتماعي والتمريض والتنمية المحلية، وعادة ما يتجاوز عطاؤه في هذه الوظائف مستويات الأداء التقليدية المطلوبة، ولا عجب لو شجع إخلاصه وتفانيه في العمل واستعداده الذاتي للتعاطف مع الآخرين المستفيدين من خدماته ونصائحه على الانفتاح عليه ومناقشة مشاكلهم معه بكل صراحة ووضع ثقتهم فيه وتصديق وعوده وتطبيق إرشاداته ونصائحه.

وقد يحصل المزارع على درجة عالية من الرضا في وظائف المؤسسات اللاربحية، التي تعنى بتقديم الخدمات الإنسانية والإحسان، كما يجد في الوظائف التطوعية الفرصة للتعبير عن تعاطفه مع قضايا إنسانية ولتقديم الرعاية والخدمة لأناس محتاجين، ولو انضم لمؤسسة ذات طابع ديني فسيكون ذلك من أجل الاعتبارات الإنسانية لا الكهنوتية أو التبشيرية.
عندما تكون ظروف العمل ملائمة فإن من المتوقع أن يكون المزارع الذكي والمحب للعمل متألقاً في عطاءه، وسباقاً في إبداعه، وأن تستفيد المؤسسة من مقترحاته وأفكاره التطويرية والحلول الناجعة التي يسهم بها لحل مشكلات العمل والتغلب على معوقات الأداء، ومن أهم إسهامات المزارع في بيئة العمل مشاركته الفعالة في الحفاظ على العلاقات الودية والمنتجة بين زملاء العمل، ومبادرته إلى حل الخلافات التي تنشأ بينهم، وتوفير الدعم النفسي لهم عند مواجهتهم الأزمات في العمل وخارجه، فهو اللحمة التي تبقي الجماعة متماسكة ومتعاونة ومتضامنة، وهمزة الوصل التي تربط فيما بينهم، وبما يخدم أهداف المؤسسة.

سلوك الصياد في بيئة العمل

لكل موظف أهداف يريد تحقيقها من خلال عمله وهي لا تتطابق بالضرورة مع أهداف المؤسسة التي يعمل بها، وقد لا تتجانس أحياناً أو حتى تتناقض معها، ومن البديهي بأن الموظف يسعى جهده لبلوغ أهدافه ومصالحه أو الحصول على الوسائل التي تتيح له ذلك، والعلاقة بين الموظف والمؤسسة التي يعمل بها تبادلية، يتبادل فيها الطرفان المصالح، ويترتب على الموظف بموجبها أداء المهام المناطة به وتنفيذ الأوامر والتقيد بالسياسات والتعليمات وغيرها من الواجبات الوظيفية، ويحصل مقابل ذلك على أجر أو راتب منتظم ومخصصات مالية أخرى وبدلات ومزايا عينية، كما يحقق له العمل احتياجات أخرى مثل الحاجة للتفاعل مع آخرين وغيرها.
إن تبادل المصالح والمنافع هو الأساس الذي يبني عليه الصياد معظم علاقاته وارتباطاته مع الآخرين، وما دام الموظف الأقرب للصياد في الفكر والسلوك يرى بأن أهدافه الذاتية ستتحقق من خلال العمل فسيبقى في وظيفته والمؤسسة التي توظفه وأداء مهام وظيفته بإخلاص وتنفيذ الأوامر الصادرة له، والمساهمة بدرجة أو أخرى في تحقيق أهداف المؤسسة، ولن يفكر بتغيير ذلك حتى سنوح الفرصة للحصول على وظيفة أفضل، ولأن فقدان وظيفة قد يهدد مصادر قوته ومكانته لذا ينظر بقلق وخوف لاحتمال حدوث ذلك، ولو حدث فسيكون صدمة كبيرة وخيبة أمل أشد إيلاماً من المصاب الشخصي.
وبما أن الصياد يفضل الأخذ على العطاء يحرص على أن تكون الفوائد الناتجة عن عمله أكثر من الجهد الذي يبذله، وهذا يولد لديه الشعور بالتفوق والغلبة، فهو لا يطيق أن يغلب في أي أمر، ويبذل كل ما أوتي من قوة ليكون الفائز والمنتصر في كل الساحات بما فيها سوح العمل.
يتفاوت موقف الصياد من المؤسسة التي يعمل فيها، فقد نجد صياداً في مؤسسة ما محتجاً على المعاملة التي يلقاها، ومطالباً براتب مجزي وترقية وغيرها من المطالب، وفي الوقت نفسه فقد يبدو صياد آخر في نفس المؤسسة ويشغل وظيفة مماثلة قانعاً وراضياً ومطيعاً لأوامر رؤساءه، وممتدحاً لسياسات مؤسسته، وإن كان في قرارة نفسه ساخطاً على المؤسسة والوظيفة وظروف عمله، والتباين في موقف هذين الصيادين ناجم عن اختلاف درجة التزامهما بقيم وأسلوب الصياد وما يمتلكانه من قدرات ومواهب مطلوبة، وكلما قلت مواهب الصياد كلما أبدى استعداداً أكبر لتقبل أجور أقل وتحمل ظروف عمل صعبة، وكل الصيادين المحبطين يدركون الحكمة البليغة في حكاية الأسد والحمار والثعلب للكاتب أيسوب، فبعد أن قتل الأسد الحمار لأنه أراد تقاسم الطريدة مع الأسد تنازل الثعلب عنها بالكامل للأسد، فمن الأفضل إعطاء الاقوى حصة الأسد بدلاً من المخاطرة بإغضابه، ويملي موقف الصياد المحبط الضعيف عليه القبول بوضعه الوظيفي غير المرضي من دون اعتراض أو شكوى، وربما أدى هذا الخنوع للسلطة بالصياد إلى

نهاية مؤسفة، ففي اليابان قضى موظف نحبه بعد أن عمل ولأسابيع كثيرة ثمانين ساعة في الأسبوع، وحملت المحكمة المسئولية الشركة التي عمل بها المتوفي وفرضت عليها دفع تعويض مناسب لذويه، ولن يرضى الصياد القوي بأن يكون خاضعاً تماماً لصاحب العمل ومعتمداً بصورة كاملة على وظيفته، ولكن إن كان البديل هو خسارة وظيفته والانضمام إلى صفوف العاطلين من دون أمل قوي في الحصول على وظيفة بديلة بسرعة فسيكظم الصياد القوي غيظه ويكبت سخطه، ويعمل ساعات أكثر من غيره، ولكن من دون التخلي عن طموحاته وتطلعاته.

الصياد المدفوع بالحرص على وظيفته بالدرجة الأولى موظف مطيع لرؤسائه وحريص على تنفيذ أوامرهم وتوجيهاتهم والتقيد بتعليمات وسياسات مؤسسته، وأشدهم تحمساً لذلك هو الصياد الذي يعتبر الوظيفة محور حياته واهتماماته، وينصرف للنجاح فيها ولو على حساب أموره العائلية، ويصبح شغله الشاغل إرضاء رؤساءه والتملق لهم ومسايرتهم ومجاراتهم وتجنب الاختلاف معهم، وجواب هؤلاء لمطالب وأوامر رؤسائهم هو نعم دائماً لذلك يعرفون في أدبيات الإدارة Yes-men- women، ولا يخالفون لهم أمراً حتى لو كانوا مقتنعين تماماً بعدم جدوى هذه الأوامر، ويلخص ماكوبي Maccoby (1976) صفات هؤلاء الأفراد الذين يطلق عليهم تسمية " رجال المؤسسة" بالنقاط التالية:

- التقيد بالتعليمات.
- الحفاظ على الوضع الراهن للمؤسسة ومقاومة التغيير.
- تملق قادة المؤسسة.
- الحصول على رضا الرؤساء قبل أي شيء آخر.
- الاقتداء بقادة المؤسسة وتقليدهم.
- تجنب القرارات ذات النتائج غير المضمونة والمخاطرة العالية نسبياً.

وأفضل مثال على هؤلاء الموظفين المخلصين لمؤسساتهم والمطيعين لرؤسائهم العاملون في المؤسسات العسكرية والأمنية، الذين يدربون ليكونوا على استعداد تام لتنفيذ أوامرها، بما في ذلك المشاركة في الأعمال الحربية والأمنية وغيرها من الأنشطة العنيفة، ومن المعروف أن الامتثال للأوامر والطاعة العمياء صفة مميزة لما يسميه علماء النفس بالشخصية السلطوية authoritarian personality، ويمارس الصيادون الأقوياء في مراكز السلطة سمات شخصيتهم السلطوية بإصدار الأوامر والتحكم بمرؤوسيهم ومحاسبتهم، فيما تبرز هذه السمة في سلوك الصيادين الأقل قوة في تنفيذهم الأوامر الصادرة لهم.

وبينت نتائج البحوث لعالم النفس الأمريكي ستانلي ملجرام Milgram (1963) بأن الاستعداد لطاعة الاشخاص الذين يمتلكون السلطة سمة كامنة في الجميع، ولكن بدرجات متباينة، ولاختبار هذه الفرضية نفذ ملجرام سلسلة من التجارب المشهورة على عينات من الأمريكيين، الذين يمثلون عامة الشعب من حيث الفئة العمرية والمؤهلات الدراسية والوظائف، وهم جميعاً أسوياء لا يشتكون من علل نفسية مثل السادية أو غيرها من الأمراض النفسية، وتضمنت التجربة إصدار أوامر لأفراد هذه العينة، تقضي بتعريض أشخاص غير مرئيين لصعقات كهربائية متفاوتة الشدة، تراوحت بين مؤلمة إلى مميتة (450 فولت)، وبالطبع لم تكن هنالك صعقات كهربائية في الواقع، والذين استمع افراد العينة لصراخهم وتوسلاتهم تظاهروا بأنهم يتعرضون لصعقة كهربائية، وهم في الحقيقة متعاونون مع الباحث، والمهم أن ثلثي العينة من الرجال والنساء نفذوا الأوامر الصادرة لهم من الباحث ومساعديه و"صعقوا" هؤلاء المتعاونين لمجرد فشلهم في الإجابة على سؤال بسيط.

عندما يتجمع الصيادون السلطويون تحت قيادة صياد متطرف لا أخلاقي تتألف قوة شريرة ومدمرة، وهذه القوى مسؤولة عن معظم الفظائع الكبرى التي اقترفت عبر مسيرة تاريخ البشرية، وكان الفاشيون من أنصار موسوليني في إيطاليا سلطويين، اختاروا الذوبان في جماعتهم، وعبروا عن ذلك بارتدائهم القمصان السود وتمثلهم بأقوال قائدهم، وغالباً ما غيبوا عقلهم في

ولاءهم الأعمى والمطلق له وامتثالهم لأوامره من دون اعتبار لعقلانيتها وخطورتها على مصالحهم الشخصية وحتى حياتهم، ومثلهم النازيون السلطويون الذين ارتكبوا المجازر قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية بتبريرات واهية، يرفضها المنطق السليم والقيم الإنسانية، وتذرعوا بضرورة أداء واجباتهم وطاعة رؤسائهم وتجنب العقاب الشديد الذي كانوا سيتعرضون له لو تجرأوا على عصيان أوامرهم، وفي تحليله لدوافع مجرمي الحرب النازيين أكد جولدبرج Goldberg (1996) على اهتمامهم المفرط بالحصول على رضا الرؤساء والحظوة عندهم، لذا كانوا مستعدين للذهاب إلى أبعد الحدود – وحتى تجاوز الحدود الإنسانية – في تنفيذ أوامرهم، وتحت الظروف العادية لا يطلب من الصيادين السلطويين اقتراف مثل هذه الفظائع لإثبات ولاءهم لرؤسائهم، ولكنهم ومن أجل الحصول على رضا هؤلاء الرؤساء وضمان احتفاظهم بوظائفهم وقت الشدة فسيعملون بجد ولساعات طوال.

بينما يميل الصيادون الضعفاء للخضوع للأعلى منهم على هرم السلطة يبدي الصيادون الملتزمون الأقوياء درجة عالية من الاستقلالية، ويسعون لأداور أكبر ومؤثرة في القرارات المؤثرة في وضعهم الوظيفي وفي تحديد مهامهم وواجباتهم وصلاحياتهم، وكلما كان الطلب على مؤهلاتهم ومهاراتهم مرتفعاً كلما زادت قوة موقعهم التفاوضي مع المؤسسات التي يعملون بها، مما يشجعهم على المطالبة بترقيات وظيفية ورواتب أعلى، والموظف في هذه الحالة يطبق مبدأ تحقيق المصلحة الأدنى فلو اقتنع بأنه الطرف الأقل تضرراً لو استقال من وظيفته فسيكون في وضع يمكنه من المطالبة بمزايا إضافية من رب العمل، لذا فإن لم يكن راضياً عن وظيفته ومطمئناً لمستقبله الوظيفي فعلى الأغلب سيبحث عن فرص أفضل في مؤسسة أخرى، ومن المحتمل أن يصبح الصياد القوي مدمناً على العمل workaholic ولكن لدوافع مختلفة عن الصياد الضعيف، فهو على أتم استعداد للبقاء في العمل بعد ساعات الدوام وسهر الليالي لو اقتنع بأن ذلك سيدنيه من بلوغ طموحاته الوظيفية.

بشكل عام يتطلع الموظفون الصيادون لزيادة قوتهم داخل المؤسسة، ومن أهم مصادر القوة الصلاحيات المفوضة لهم، وقد لاحظ هيرشبورن وجليمور Hirschborn and Gilmore (1989) في إحدى المؤسسات بأن أي برنامج لرفع التمكين لدى العاملين من خلال المشاركة والتفويض وغيرها أدى إلى ازدياد نهم القوة لدى بعض الموظفين والمتمثل في ارتفاع حالات السلوك العدواني الصادرة عنهم، مما يوحي بأن هؤلاء الموظفين صيادون ملتزمون.

كل التنظيمات الهرمية عريضة عند القاعدة، وتضيق كلما ارتفعنا وصولاً إلى القمة التي يتربع عليها شخص بمفرده، وبالنتيجة لا توجد وظائف عليا كافية لإرضاء طموحات كل الصيادين التواقين لتسلق الهرم الوظيفي، لذا لا مناص أمام البعض منهم سوى القبول بأقل من الطموح، وعلى هؤلاء تخفيض سقف تطلعاتهم بما يتناسب مع الممكن والمتاح وتعديل أسلوب حياتهم بما يتلاءم مع ذلك، ولكن من الصعب على بعض الصيادين التغلب على ما يفرزه الفشل من إحباط وخيبة أمل، وينعكس سخطهم على المؤسسات بصورة سلوكيات سلبية مثل اضطهاد زملاءهم الأضعف في المدرسة والغش، وتأخذ أشكالاً أخرى في مؤسسات العمل مثل قبول الرشوة واستغلال النفوذ والسرقة وبيع أسرار العمل والغياب والتأخر عن الدوام وتبديد وقت العمل أو حتى تخريب الممتلكات والمعدات والأجهزة.

تؤدي اتجاهات وسلوكيات بعض الصيادين في مكان العمل إلى تولد جفاء بينهم وبين زملائهم وإلى نفور البعض منهم وتجنب التعامل معهم ما أمكن أو قصر الاتصال معهم على أمور العمل فقط، وبناء علاقات عمل ايجابية هدف ثانوي بالنسبة للصيادين أصلاً، إلا إذا كانت تخدم أهدافهم، لذا لا يتوقع منهم التفاعل مع زملائهم بدرجة عالية وإيجاد علاقات اجتماعية قوية معهم، وبدلاً من ذلك يكتفون بالصلات السطحية التي لا تصل إلى درجة تكوين الصداقات الدائمة، وفي ذات الوقت لن يتحمس زملاؤهم لتكوين علاقات وثيقة معهم، لما يرونه فيهم من أنانية وانصراف كامل أو شبه كامل لخدمة مصالحهم الشخصية ولهاثهم المحموم وراء المناصب واكتساب المزيد من القوة والنفوذ والمكانة الوظيفية واستعدادهم لاستعمال كل الطرق والوسائل – بما فيها غير

المستساغة وأحياناً غير الأخلاقية- في سبيل ذلك، وكل هذه الأسباب تجعل من الصيادين وخاصة المتطرفين منهم أشخاصاً غير مرغوبين اجتماعيا، فلا يسعى كثيرون لمصادقتهم أو حتى الاتصال بهم إلا إذا كانوا صيادين مثلهم، تجمعهم مصالح مشتركة أو منافع يمكن تبادلها بينهم، وليس من المستغرب أن يكون لمثل هؤلاء الصيادين أعداء أو خصوم أكثر من الأصدقاء في مؤسسات عملهم، ومن الواضح بأنه كلما ارتفع الصياد على هيكل المؤسسة كلما قل عدد أصدقاءه الحقيقيين، وأحياناً يكون ثمن الجلوس على القمة هو العزلة، إذ قد تضع المراسيم والمظاهر المرتبطة بالاتصال بهؤلاء القادة حواجز عالية تجعل مرؤوسيهم يتجنبون الاتصال بهم ما أمكن ذلك، أو يحاذرون في تعاملاتهم معهم، وبالتالي تضعف صلة هؤلاء الرؤساء بالواقع، مما قد يعرضهم للسخط والاستهجان من قواعد المؤسسة، ولعلها من أكبر وأخطر المشاكل التي يتعرض لها الحكام المتسلطون، إذ يضطرون وبسبب إحجام غالبية الناس عن الاتصال بهم وتخوفهم من مكاشفتهم بحقائق الأمور للاعتماد على المقربين منهم أو ما يعرف بالبطانة أو الحاشية، وهؤلاء غير معنيين بنقل صورة صادقة عن الواقع، ويعمدون إلى تغيير الكثير من الحقائق والمعلومات أو حتى تزييفها لخلق انطباع لدى الحاكم أو الرئيس الأعلى للمؤسسة بأن كل شيء على ما يرام، وبأن الرعية أو العاملين في المؤسسة راضون ويسبحون بحمده، ومن المؤكد بأن هؤلاء الأعوان مخادعون ومنافقون ومضرون بالمصلحة العامة، ولكن يجب الانتباه إلى أن الحاكم أو الرئيس الأعلى للمؤسسة هو المسؤول الأول، فلو كان نظيف اليد نقي السريرة ومخلصاً لمصالح رعيته لما استقطب هؤلاء الطفيليين من حوله، والذين يطردون الناصحين المخلصين وحاملي الأخبار السيئة هم بالتأكيد صيادون.

يصف باخ وجولدبرج Bach and Goldberg (1974) بيئة العمل في المؤسسات المعاصرة بأنها حقل خصب لكل أنواع العدوانية المباشرة وغير المباشرة، والتي تولد الاحباط والغضب والقلق في نفوس العاملين، لذا يستثقل الكثير من الأمريكيين وظائفهم، ويعتبرونها مملة ومهينة ومتعبة ومكروهة، وهم يتجرعون مرارتها مرغمين، في حين يرون بأن حياتهم الحقيقة تبدأ بعد نهاية الدوام وتتوقف عند بدئه، وهذه الظروف السلبية وما تنتجه من معاناة وسخط هي من فعل الصيادين في المؤسسات.

هل الصيادون أجدر بمناصب الإدارة؟

من الواضح بأن الصيادين أكثر توفيقاً في الحصول على وظائف الإدارة، وكلما ارتفع المنصب الإداري كلما ازداد احتمال شغله من قبل صياد، وهذا ما تؤكده نتائج بعض البحوث الميدانية، ومن بينها دراسة ماكوبي Macoby (1976) لعينة من كبار المديرين وعددهم 250، يعملون في مؤسسات أعمال أمريكية، خلص منها إلى تصنيفهم إلى أربعة أنواع هم كما يلي: النوع الماهر أو الحاذق الذي يهمه بالدرجة الأولى اتقان عمله، والنوع الثاني اسماه "مقاتل الغابة" الذي شعاره في الحياة: قاتل أو مقتول أو بتعبير ثان، مهيمن أو خاضع، والنوع الثالث وهو ما أطلق عليه تسمية "رجل المؤسسة"، الذي يضع نصب عينيه تسلق الهرم الوظيفي إلى قمته، أما الرابع فهو اللاعب الذي يسعى للنجاح والتفوق على الآخرين، ومن الملاحظ بأن النوع الأول فقط يملك بعض صفات المزارع، وهم وفقاً لنتائج دراسة ماكوبي قلة قليلة في العينة.

ويتبين من نتائج دراسة كيلدوف وداي Kilduff and Day (1994) لعينة من 739 من حملة الماجستير في إدارة الأعمال بأن الأكثر حصولاً على الترقيات من بين العينة هم الأشخاص الذين يتصفون ببعض الصفات المقترنة بشخصية الصياد، ويشبهم بالحرباء، وغالباً ما تركز دراسات سمات القادة على صفات هي أقرب لشق الصياد في نفوسنا منه للمزارع، وهي نفس الصفات التي تتضمنها المقاييس الخاصة بتقييم جدارة الموظفين للترقية إلى وظائف إدارية أو المديرين لوظائف إدارية أعلى، وفي اليابان التي عرفت مؤسساتها بإعطاء قيمة عالية عند التقييم لعوامل مثل القدم والخبرة وروح الفريق تحول التركيز فيها مؤخراً إلى الفردية والطموح والجرأة

العالية، وفي كل الحالات يعمد المديرون الصيادون إلى اختيار أشباههم لخلافتهم حرصاً منهم على غلبة قيم الصياد وأسلوبه في العمل.

في الدول الغربية تتسابق الشركات الكبرى لتوظيف كبار القادة العسكريين وخاصة المتقاعدين حديثاً منهم لملأ وظائف قيادية ولعضوية مجالس إداراتها، ومن الواضح بأن هؤلاء قد لا يمتلكون التخصص والخبرة الملائمة لنشاط الشركة فما الذي يجعل الشركات تتهافت عليهم؟ الجواب هو الاعتقاد السائد في بيئة العمل المطبوعة بقيم الصياد بأن من ينجح في الصعود إلى القمة على هرم مؤسسة يمتلك القدرات والسمات القيادية والشخصية ومهارات صنع القرار المطلوبة لشغل وظيفة قيادية في مؤسسة أخرى، وكما يقفز بطل القصص المصورة والأفلام مثل الرجل العنكبوت من سطح عمارة شاهقة لأخرى يقلع الأشخاص الذين برهنوا على امتلاكهم لمهارات الصياد الإدارية بين قمم المؤسسات من دون خشية السقوط.

هنالك طلب كبير على المدراء التنفيذيين والقادة الإداريين في كل مكان في العالم، وتقدم لهم محفزات مغرية ومكافآت مجزية تشمل المسميات الوظيفية المفخمة والرواتب الضخمة التي تعد بالملايين أحياناً والمزايا الجزيلة إضافة إلى القوة والنفوذ، وتدفع للكثير من كبار المديرين في أمريكا الشمالية ودول أوروبا ملايين الدولارات سنوياً بشكل رواتب وأسهم ومخصصات أخرى بهدف اجتذابهم والحفاظ عليهم، ويتمتع البعض منهم بمكانة هامة وسمعة قوية وشهرة واسعة، حيث تكرمهم الحكومات بالألقاب الفخمة والأوسمة العالية، وتمنحهم الجامعات العريقة الشهادات العليا الفخرية، وتسعى لاستضافتهم في حفلات تخرجها السنوية، وتستعطفهم الجمعيات الخيرية، وتشيد بهم وسائل الإعلام المختلفة، وتثني على جهودهم في تنمية الاقتصاد وتطوير تقنيات العمل ورعاية البحوث والاختراعات وخلق الفرص الوظيفية للملايين، وسنوياً تنشر دور النشر العالمية العديد من الكتب عن تجارب هؤلاء النخبة من المديرين الكبار، يستعرضون فيها تجاربهم وخبراتهم في الإدارة، وغالباً ما تلقى هذه الكتب رواجاً كبيراً، وتباع منها ملايين النسخ، كما يحرص المستثمرون في أسواق المال على متابعة قراراتهم وتصريحاتهم، فإن كانوا متفائلين تفاءل الجميع، وإن تشاءموا تشاءم معهم السوق كله، إذ كثيراً ما ترتفع أو تنخفض أسعار الأسهم في البورصات الكبرى بفعل تأثيرات تصريحاتهم وتنبؤاتهم، التي لا تكون دائماً صحيحة ودقيقة، ولو أصاب شركاتهم الركود، أو حتى أفلست فسيجدون المخارج للنأي بأنفسهم عن تحمل النتائج، ونقرأ أحياناً عن شركات أفلست أو شارفت على الإفلاس خرج منها رؤساؤها التنفيذيون بمكافآت نهاية خدمة، تزيد على عشرات الملايين من الدولارات.

يبرهن كبار المديرين وأعضاء مجالس الإدارة في البنوك والشركات الكبرى والمؤسسات الحكومية الضخمة على قدراتهم القيادية ومهاراتهم الإدارية العليا من خلال تحسين أوضاع مؤسساتهم التنافسية، وزيادة حصص شركاتهم من الأسواق، وجعلها الرائدة في التطوير والإبداع، ولكي ينجحوا في عملهم ينبغي عليهم وفقاً للعرف الإداري السائد الايمان بمعتقد رجل الأعمال الأمريكي الشهير جون روكيفلر بأن ازدهار ونمو شركات الأعمال محكوم بقانون البقاء للأصلح، وهو نفس القانون الذي اقتبسه الصياد من الطبيعة المتوحشة، واتخذه نبراساً وقاعدة لحياته، وليس من قبيل الصدف أن تزخر لغة الأعمال والكتب والاتصالات في مجال العمل بمصطلحات الصياد المستمدة من نمط حياته وفكره، وعلى سبيل المثال توصف المنافسة الحادة بأنها "قاطعة للرقاب"، ويشبه بعض رجال الأعمال الشرسين بـأسماك القرش، أما تسمية "غزاة المؤسسات" فتطلق على الذين يطمحون للاستحواذ على مؤسسات الأعمال وشرائها بكل الطرق الممكنة، ولو كانت محاولاتهم غير مرحب بها من مجلس إدارة الشركة المستهدفة تسمى محاولتهم بـ " الاستحواذ العدواني" .

وفي الوقت ذاته يشغل هؤلاء المديرون الكبار مكانة رفيعة يحسدون عليها، إذ يتودد لهم القادة السياسيون، وينصتون لمطالبهم ونصائحهم باهتمام، ويؤثرون في الرأي العام، وهم في رأي البعض يشكلون اليوم شريحة كبرى ضمن الطبقة الحاكمة في الدول الغربية وغيرها من دول العالم. وهم واثقون من قوتهم وتأثيرهم في حاضر ومستقبل اقتصاديات هذه الدول،

ويصرون على أن يتركوا وشأنهم ومن دون تدخلات الساسة ليقودوا مسيرة الاقتصاد والازدهار الاقتصادي، وهنالك أحزاب وفئات سياسية تساند هذه الدعوة، وتتبنى مطالبهم وقضاياهم، وتسعى إلى التقليل من الضرائب المفروضة على أصحاب الثروات الضخمة والاستثمارات الكبيرة بدعوى أن الضرائب تؤدي إلى هروب رؤوس الأموال وضياع الفرص الاستثمارية.

أسلوب إدارة المدير الصياد

لا يوجد أسلوب إداري وحيد يطبقه جميع المديرين الصيادين، ويعتمدونه أينما عملوا، إذ يتأثر أسلوب الإدارة الناجح بعوامل موضوعية متعددة، تشمل طبيعة نشاط المؤسسة وتقنيات عملها وبيئتها الخارجية ومستويات موظفيها التخصصية، ومن هذه العوامل أيضاً قيم وأفكار المدير.

إن أسلوب إدارة الصياد محصلة لتأثيرات كل هذه العوامل، وفي حالة انعدام أو ضعف تأثيرات عوامل مضادة فسيصطبغ هذا الأسلوب بقيم وميول الصياد إلى حد كبير، ويمكن تلمس ذلك أساساً في نظرة الصياد للمؤسسة بصورة عامة، ويميز المختصون بين نموذجين فكريين للمؤسسات: عضوي وميكانيكي، ويصور النموذج العضوي المؤسسة على شاكلة كيان حي، يخطط وينفذ وينسق بين أعضائه مثل أي مخلوق حي، وبالمقابل تكون المؤسسة وفقاً للنموذج الميكانيكي أشبه بالماكنة، وفي تصوري يميل الصياد عادة إلى النموذج الميكانيكي، أو على الأقل يتمنى لو كانت مؤسسته تعمل مثل ماكنة، ويقتصر دوره فيها على التأكد من أن مكوناتها بما في ذلك قواها البشرية سليمة وصالحة وموجهة بطريقة صحيحة لضمان عملها بكفاءة وتنسيق نحو تحقيق الأهداف المحددة لها، وبالفعل فقد اقتربت خطوط الإنتاج في الكثير من الشركات الصناعية من هذا النموذج بفعل التوسع في استخدام الروبوتات.

كيف ينظر المدير الصياد إلى موظفيه؟ توصل بعض المختصين بالإدارة من تحليل أساليب عمل المديرين إلى تصنيفهم إلى فئتين: الأولى تركز على القوى البشرية والثانية على العمل، والمدير الصياد من النوع الثاني بالتأكيد، فهو يهتم بالعمل وأداء المهام المكلف بها بالدرجة الأولى، ويخصص معظم وقته وجهده لزيادة المبيعات والأرباح وتطوير العمليات الفنية وتحسين إجراءات العمل، فيما يقضي وقتاً أقل في التعرف على احتياجات مرؤوسيه والعمل على تلبيتها، عدا المالية منها، لأنه يعتقد بأن الموظفين يعملون من أجل الراتب فقط، وهو لا يتردد في الاستغناء عن الكثير من موظفيه بجرة قلم، إذا اقتنع بضرورة هذا الإجراء لتخفيض النفقات وزيادة العوائد والأرباح وتقوية المركز التنافسي لمؤسسته في السوق، وهو لا يكترث كثيراً بالنتائج الاجتماعية والعاطفية لقراره.

بصورة عامة ينظر المدير الصياد إلى القوى البشرية في مؤسسته بحذر وقلق، لأنهم يشكلون في تصوره المصدر الرئيسي للغموض، إذ يصعب التنبؤ بأدائهم وسلوكهم، وقد تذهب جهود المدير الرامية لتنظيم سير العمل وانتظامه هدراً لو قرر موظفوه الإضراب عن العمل، أو حادوا عن الخطط والبرامج والتعليمات، والواقع أن كل عناصر العمل والإنتاج الأخرى خاضعة إلى حد كبير لسيطرة المدير إلا العنصر البشري، فلو أصبحت تقنيات العمل قديمة وبالية يستطيع المدير استبدالها بتقنيات حديثة، ومن السهل كذلك اصلاح المكائن والأجهزة المعطوبة، وبإمكانه تعديل استراتيجيات وخطط المؤسسة لو تبين عدم جدواها، لكن المشاكل والصعوبات المتعلقة بالأفراد قد تكون عصية على محاولات المدير لحلها، فالموظفون يقدمون أحياناً مطالب غير قابلة للتحقيق مثل زيادة الرواتب في فترة كساد للعمل، ويوقفون العمل أو يخربون المكائن والأجهزة أو يتغيبون عن الدوام، أو يلجؤون للإضراب للضغط على الإدارة، وهي كلها سلوكيات مضرة بالمؤسسة ونشاطها وأرباحها، وسبباً لشعور المدير الصياد بالقلق والإحباط والغضب، لأنها تفقده السيطرة على الموقف، وتعرض سمعته الإدارية للاهتزاز، وإحكام السيطرة والسمعة العطرة عنصران هامان في حياة كل الصيادين.

باختصار يعتقد المدير الصياد بأن موظفيه مهتمون فقط بالحصول على المنافع الشخصية من عملهم، ولن يعملوا بجد ويطيعوا أوامره تماماً من دون رقابة دقيقة وحوافز ومحاسبة، لذا يتعامل معهم غالباً على أساس سياسة الثواب والعقاب، فهم يثابون إن أطاعوا أوامره حرفياً، وأدوا واجباتهم كاملة، ويعاقبون لو تهاونوا في تنفيذ الأوامر والأداء، وتتطلب سياسة العقاب والثواب إشرافاً تفصيلياً ومتابعة دقيقة لأداء الموظفين.

أطلق دوجلاس ماجريجور Mcgregor (1960) تسمية النظرية (س) Theory X على هذا النمط من الإدارة، وقد تبين للباحثين بأن المديرين الذين يطبقون هذا النمط من الإدارة يتصفون بخصائص مثل قوة الأنا الفردية والتسلط، وهي من أبرز سمات الصياد أيضاً، واعتبر أحد كبار علماء النفس وهو ابراهام ماسلو Maslow (1965) وصاحب نظرية هرم الحاجات المشهورة بأنه النمط الإداري الوحيد الذي يضمن أداء المرؤوسين للمهام والواجبات المناطة بهم، في كل المجتمعات عدا الغربية، وكان مقتنعاً بأن "فرقعة السوط فوق الأفراد الخائفين" ضروري لترويضهم قبل أن يكونوا مستعدين للاستجابة لمعاملة كريمة ورقيقة، ويكمن وراء هذا النمط الإداري افتراض صحيح إلى حد كبير هو أن أقوى محفز لدفع المرؤوسين للعمل بأقصى طاقاتهم هو الخوف من فقدان الوظيفة، لذلك يتعمد بعض المديرين الحفاظ على درجة من التوتر والقلق لدى مرؤوسيهم، ويستغلون ذلك للضغط عليهم.

تدفع قيم الصياد إلى تطبيق أسلوب (س) في الإدارة، إذ يتيح له ممارسة درجة عالية من السيطرة على العمل والمرؤوسين، واحتكار معظم سلطات اتخاذ القرار، وتسليط الأضواء على أداءه، كما أن بعض سمات الصياد تدفع بنفس الاتجاه، فالصياد المتسلط يكره الانتقاد ولو كان موضوعياً وبناءً، ويرتاح للمديح والتملق ولو كان مختلقاً، وهو على عكس شخصية أدجر في مسرحية شكسبير الملك لير، الذي يفضل أن يكون المرء متسولاً ومحتقراً بالعلن من أن يكون هدفاً للمنافقين، الذين يكنون له الاحتقار في قرارة نفوسهم، ويلعنونه في سرهم، وعادة لا تخلو مؤسسة الصياد من منافقين وصوليين، ومن المحتمل أن يسقط هذا المدير في شراك أحابيل هؤلاء المتملقين.

الثلاثي المظلم في سوح العمل

في فصول سابقة تبين بأن العدوانية صفة مشتركة بين الثلاثي المظلم، وهم للتذكير النرجسي والماكيافلي والسيكوباتي المعتدل، كما وجد الباحثون بأن هؤلاء الافراد يفضلون علاقات قصيرة الأمد مع الجنس الاخر، ويبتغون من وراءها مصلحة ذاتية، مثل تقدمهم في العمل أو المهنة، كما اهتم الباحثون بالتعرف على أساليب هؤلاء الأفراد في العمل والتعامل مع مرؤوسيهم، وتوصلوا إلى نتائج جديرة بالاهتمام.

يؤثر وجود هؤلاء الأفراد كما يؤكد الباحثان بني وسبكتر (Penny and Spector,2002) سلبياً على الأداء وبيئة العمل في المؤسسات، فهم أشبه بالسم في البدن، أما بابياك وهير (2007) Babiak and Hare فيصفا السايكوباتيين في المؤسسات بأنهم "أفاعي في بدلات"، ويعدد الباحثون جونسون وسلومسكي وبارتيكا (Jonason, Slomski and Partyka, 2012) جملة من النتائج السلبية لوجودهم في المؤسسة استناداً إلى بحوث سابقة، ومن أهمها ما يلي:

1. نرجسية الرؤساء التنفيذين للشركات تبرز في سلوكهم اللاأخلاقي وتهافتهم على اكتساب القوة.
2. انخفاض درجة تحمل المسؤولية لدى المديرين والموظفين السايكوباتيين مما قد يؤدي إلى انخفاض إنتاجية مؤسساتهم.
3. يترافق تفشي المكيافلية في المؤسسة مع انخفاض ملموس في اِلتزام وتمسك مديريها وموظفيها والمؤسسة بشكل عام بأهدافها.
4. ارتفاع شكوى المرؤوسين من التعسف في ظل وجود النزعة الماكيافلية في بيئة المؤسسة.

5. مع وجود الماكيافيلية في المؤسسة يتركز الاهتمام على اكتساب القوة والنفوذ والتلاعب والمناورة.
6. يعمد السايكوباتيين والماكيافليين لاستعمال الوسائل الحازمة مثل التهديد بالعقوبات في التأثير على سلوك مرؤوسيهم وزملائهم بينما يفضل النرجسيون استخدام الأساليب الرقيقة مثل التودد والاطراء والتلويح بالمكافآت لنفس الغرض.
7. وبشكل عام فإن نسبة الثلاثي المظلم بين الموظفين الذكور أعلى منها بين الإناث.

الصفات التي يفضلها المدير الصياد في مرؤوسيه

أشد ما يثمن المديرون الصيادون في مرؤوسيهم اتصافهم بالولاء والطاعة، فهم يفضلون الموظف المطيع والملتزم، والذي لا يسبب لهم المتاعب، وفي اليابان يعتبر الولاء من أهم الخصائص المرغوبة في العاملين، وهي تكاد أن تكون خاصية شبه مستقرة في الثقافة اليابانية المتوارثة، حيث يشتهر العاملون اليابانيون بولائهم للمؤسسات التي يعملون فيها وثباتهم في وظائفهم حتى التقاعد، ومقابل هذا الولاء يحصل العاملون على امتيازات هامة مثل التوظف الدائم والسكن المدعوم، وفي بعض الحالات تخصص لهم قبور في مقبرة الشركة الخاصة، وبالمقارنة يعتبر عدم أو قلة الولاء خيانة، وسواء كانت المؤسسة يابانية أو غيرها.

قلة الولاء أو عدم الولاء من الصفات التي يكرهها المدير الصياد في مرؤوسيه، وفي مراجعته لتجربته في الإدارة قارن أحد المديرين السعوديين بين مرؤوسيه على أساس الولاء، وليس الأداء، فالأفضل بينهم في تقييمه لهم هو أكثرهم ولاءً له، أي المرؤوس المطيع الذي يتغنى بأفضاله ولا ينسى إحسانه ورعايته، فهو يذكره بخير ويمتدحه لأنه – أي هذا المدير – وافق على ابتعاثه للحصول على شهادة أعلى، ووفر له فرص التدريب، ورشحه للترقية.

وليس هناك أسوء في نظر المدير الصياد من الموظف المتمرد، وأقصى درجات التمرد أو عدم الولاء في نظره إقدام المرؤوس على إفشاء أسرار المؤسسة، أو قضايا قد تعرضه أو المؤسسة للمحاسبة القانونية أو تسيء إلى سمعتهما، وتجربة روجر بويزجولي وألان ماكدونالد شاهد على ذلك، وهما في نظر المدير الصياد اقترفا الجريمة التي لا تغتفر بحق الشركة الأمريكية التي عملا فيها، أي شركة مورتان ثيوكل، عندما فضحا تقصير مديري الشركة في إهمالهم للتحذيرات من وجود خلل وخيم وخطير في مكوك الفضاء تشالنجر، ووافقوا على إطلاق المكوك، وقد اعتبر رؤساءهم وزملاءهم كشفهما لأسرار الشركة خرقاً كبيراً لمبدأ الولاء للشركة، ومن المعروف بأن المكوك جالنجر تفكك بعد دقيقة من انطلاقه، وتحطم مما أودى بحياة رواد الفضاء السبعة على متنه في 1986م.

في 1996م توصلت الدكتورة نانسي أوليفيري الباحثة في جامعة تورنتو إلى ان أحد الأدوية الموصوفة لمرض الدم الثالسيميا غير فعال وله مضاعفات خطيرة على الكبد، مما دفع بالشركة المصنعة للدواء للسعي إلى منعها من نشر نتائج بحثها، ويروي رودس وستراين (2004) Rhodes and Strain بأن جامعة تورنتو وبدلاً من مساندة الباحثة والعضو في هيئة التدريس وقفت في صف الشركة وأغلقت مختبرها ثم طردتها من الجامعة، واضطرت الباحثة للتظلم إلى اتحاد الأساتذة الجامعيين في كندا الذي توصل إلى نتيجة لصالحها، فرضخت الجامعة واعادتها إلى وظيفتها.

مساوئ أسلوب المدير الصياد

لكل المديرين وحتى الصيادين قيم وقواعد أخلاقية، ولكن لا يعتبر المدير الصياد هذه القيم والقواعد ثابتة ودائمة وواجبة التطبيق دائماً، وفي كافة المواقف وتحت كل الظروف، ولأنه مسير

بمصالحه الذاتية أولاً لا يتورع عن مخالفة هذه القيم والأخلاقيات إن اقتضت مصالحه ذلك، ويزداد احتمال حدوث ذلك طردياً مع قوة الدافع المصلحي، ومن الواضح بأن الشرور والمصائب التي حلت بالبشرية لم تكن نتيجة فتح صندوق باندورا وفقاً للأسطورة الإغريقية، وإنما بسبب جشع وأنانية القادة السياسيين الطامحين للسيطرة وصناع وتجار الأسلحة والعتاد وأصحاب شركات السجائر وغيرهم من الذين يسعون وراء مصالحهم الأنانية من دون اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية أو اكتراث لما يسببونه من قتل ودمار وتشريد ومعاناة وتلوث للبيئة، وكل هؤلاء يعتمدون على مديرين في مؤسساتهم، وحتى يستطيع هؤلاء المديرون العمل في وظائفهم والإخلاص في عملهم وإرضاء رؤسائهم لا بد لهم من وضع القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية جانباً، ولو كانوا من النوع الذي يقيس أعماله على معايير العدل وعدم الاستغلال لما تحملوا تأنيب الضمير الناتج عن العمل في هذه الوظائف.

تأثيرات مؤسسات الصياد على السياسة

يمتلك رجال الأعمال ومديرو الشركات الكبرى قوة اقتصادية، ولا يترددون في استخدامها للتأثير على القرارات السياسية، ويسعى هؤلاء المديرون لاستمالة السياسيين، ودفعهم لتشريع قوانين واتخاذ قرارات تخدم مصالح مؤسساتهم، أو على الأقل لا تتعارض معها، ولديهم وسائل متعددة، مباشرة وغير مباشرة، للضغط على قرارات الساسة، ومن ضمنها شن الحملات الإعلامية الرامية إلى توجيه الرأي العام بما يخدم مصالحهم وإقناع الجمهور بأن مصالح هذه الشركات مطابقة للمصلحة العامة، كما توظف الشركات الكبرى مكاتب مختصة بالاتصال بصانعي القرار والتأثير في مواقفهم من خلال تزويدهم بالمعلومات والدراسات، وتتبرع الشركات الكبرى بمبالغ كبيرة للحملات الانتخابية للمرشحين، ولكل هذه الأسباب فقد لا يحتاج الصياد القوي لمخالفة القانون ما دامت لديه الامكانية لتغيير القانون أو كيفية تطبيقه لصالحه أو للحصول على استثناءات من القوانين، فبينما يعارض رجال الأعمال القيود على التجارة الدولية والمعونات الحكومية، لأنها تخالف قواعد المنافسة الحرة ومبدأ عدم تدخل الدولة في السوق يضغطون على الحكومة لمنحهم المعونات وغيرها من التسهيلات إذا اقتضت الحاجة، ولولا المعونات الضخمة التي قدمتها الحكومة الأمريكية للشركات والبنوك الكبرى في العام 2008م لأشهر العديد منها إفلاسه، وكالعادة كان التبرير لهذه المعونات السخية هو خدمة المصلحة الاقتصادية العامة.

لو كان في شن حرب والتسبب في مقتل وجرح الألاف مصلحة للمدير الصياد فهل سيحجم عن ذلك؟ يسود الاعتقاد بين أوساط المعارضين لحروب أمريكا ونشاطها العسكري الواسع خارج حدودها بوجود ما يسمى بالتحالف العسكري الصناعي، يروج لهذه السياسة العسكرية العدوانية، لأنها تخدم المصالح المشتركة للمؤسسة العسكرية وكبار صانعي السلاح، كما لا ينكر أحد بأن للدول الغربية مصالح نفطية في منطقة الشرق الأوسط لذا تنشط سياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً في العديد من دولها، ومن الواضح بأن مصالح هذه الدول الغربية وشركاتها النفطية الكبرى متطابقة، وقد أقر ألان جرينسبان المدير السابق للبنك الفدرالي الأمريكي بأن السبب الرئيسي للغزو الأمريكي للعراق هو النفط.

ولا يختلف المديرون السائرون على منهج الصياد في دول أخرى كثيراً عن أمثالهم في الدول الغربية في سعيهم لضمان مصالح مؤسساتهم بالتفاهم والتعاون مع الساسة، أو التأثير عليهم من خلال الضغوط والرشوة أحياناً، والتعاون الوثيق والتنسيق بين الوزارات الحكومية والشركات الكبرى عامل رئيسي في النمو الاقتصادي السريع في اليابان أولاً ومن بعدها كوريا الجنوبية، وكان له في بعض الأحيان نتائج سلبية على العملية السياسية، فقد انهارت عدد من الحكومات في البلدين، وتلطخت سمعة بعض السياسيين، المدانين بقبول الرشوة من رجال أعمال وشركات وإساءة استخدام سلطاتهم ومخالفة القوانين في محاباتهم لهؤلاء الأقوياء المتنفذين.

الصياد وجرائم الشركات

في القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين حُملت مؤسسات الأعمال والحكومات المتسترة عليها أو المتغاضية عن انشطتها المسؤولية المباشرة أو غير المباشرة عن العديد من الظواهر السلبية في العالم، مثل استغلال العمال، واجبارهم على العمل ساعات طويلة بأجور زهيدة، وتوظيف النساء والأطفال في المناجم وغيرها من الأعمال الخطرة والضارة بالصحة، ومحاربة النقابات، والتسبب بالنكسات الاقتصادية مثل الكساد الكبير في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي، والتلاعب بالعمليات السياسية الديمقرطية من خلال التبرعات للحملات الانتخابية ورشوة الساسة، وتشجيع الاستعمار ونهب ثروات الشعوب المستضعفة، واسقاط حكومات الدول الصغيرة المناوئة لمصالح الشركات الكبرى، وغيرها من الأعمال المستهجنة التي رسمت صورة قبيحة للنخبة من رجال الأعمال وكبار مديري شركاتهم.

وفي الوقت الحاضر فقد زالت أو اضمحلت بعض هذه التأثيرات السلبية، لكن نفوذ رجال ومديري الشركات الغربية الكبرى لم يخبو، وما تزال سياساتهم المصلحية تسبب المزيد من الأزمات والمشاكل وحتى الصراعات والحروب، ومنها على سبيل المثال احتلال العراق والأزمة الاقتصادية الحادة التي كادت أن تؤدي إلى كساد كبير في بداية القرن الحالي، وتلوث البيئة والانحباس الحراري، واستغلال موارد الدول النامية بما في ذلك قواهم العاملة، واستهلاك موارد الأرض إلى حد التبذير، كما تنتقد سياساتهم التي تركز على جني المنافع في المدى القصير، وعلى حساب مصالح شركاتهم ومالكي الأسهم للمدى الطويل، وهم في كل قراراتهم وسياساتهم مدفوعون برغبة عارمة في تحقيق مصالحهم والتفوق في أعمالهم ومناصبهم، وهي صفة مميزة للصيادين.

ويقدر هارتلي (Hartley (2008 بأن الشركات الكبرى في أمريكا تتسبب في وفيات وإصابات بشرية وخسائر مالية تفوق ما ينتج عن الجرائم الكبرى الثمانية المصنفة في التقارير السنوية لمكتب التحقيقات الفدرالي وهي: القتل العمد والاغتصاب والسرقة والسطو والاعتداء العنيف والسرقة لما يزيد على 50 دولاراً وسرقة السيارات واشعال الحرائق.

قد يكون المدير الصياد وبحكم قيمه ومعاييره المطاطية أكثر استعداداً للفساد والإفساد، ولا يوجد بلد في العالم اليوم خال من الفساد الإداري، ولكن الفساد في بعضها مستشري بدرجة أكبر من غيرها، وسنوياً تنشر قائمة بمستوى الفساد الإداري بين الدول، وغالباً ما تكون الدول المضطربة أمنياً بسبب الاحتلال الأجنبي أو الحروب الأهلية أو التمردات الواسعة ومن بينها بعض الدول العربية مثل العراق والصومال أكثر فساداً من غيرها، وذلك بسبب ضعف الرقابة والردع الإداري والقانوني، ولكن حتى الدول المتقدمة تعاني من جرائم أصحاب الياقات البيضاء - أي الموظفين والمهنيين - مثل الرشوة والتهرب من الضرائب والاحتيال وتلويث البيئة، ولا يخاطر المدير الصياد عادة بمخالفة القوانين إلا لتحقيق مصلحة تتناسب مع المخاطرة وبشرط أن يكون احتمال اكتشاف ذلك ومسائلته فيا بعد ضئيلاً.

وأشار جولدمان (Goldman (1988 إلى ارتكاب ثلثي الشركات الخمسمائة الكبرى في أمريكا لأعمال غير قانونية، كما اتهم أوليف (Olive (1987 مديري الشركات الكبرى باقتراف مخالفات جسيمة للقانون، منها على سبيل المثال تلك المخالفات التي أدت إلى انهيار العديد من المصارف والمؤسسات المالية في أمريكا الشمالية في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، وفي أوائل الستينات من القرن الماضي تسبب عقار الثاليدوميد المهدئ بولادة ألاف الأطفال المشوهين، ويشير مخيبر (Mokhiber (1988 إلى وجود أدلة على علم الشركة المصنعة بمضار الدواء المحتملة وفاعليته المحدودة لكنها مضت قدماً في ترويج العقار وبيعه من دون وصفة طبية حتى ظهرت نتائجه المفجعة مما اضطرها لسحبه من الأسواق. وفي 1965م نشر رالف نادر Nader كتابه حول إهمال شركات تصنيع السيارات لشروط السلامة في منتجاتها،

وتطرق في أحد فصول الكتاب إلى المخاطر الكامنة في سيارة كورفير لشركة جنرال موتور الأمريكية، وكان لهذا الكتاب دور كبير في تطوير قواعد السلامة في صناعة السيارات.
أما في التسعينيات من القرن المنصرم فقد استأثرت قضية دواء مخفض الوزن المركب والمعروف بفنفن Fen-Phen باهتمام الرأي العام بعد أن تأكد بأن استعماله مرتبط بالإصابة بمرض رئوي مميت واضطرابات في عمل القلب، ويقدر بأن ملايين من النسوة الأمريكيات استعملن هذا الدواء، وأقام المتضررون من الدواء دعاوي قضائية على الشركة المصنعة للمطالبة بتعويضات كما أوضحت بندي Bundy (2001).

المدير الصياد استغلالي

استغلال الفرص المواتية هو الشغل الشاغل للمدير الصياد، وقد ينطوي ذلك على استغلال للبشر، شعوباً وأفراداً، واتكال العديد من الدول الأقل نمواً على الشركات الكبرى في استخراج المواد الأولية من أراضيها وتسويقها يعرضها لاستغلال هذه الشركات، وتتهم هذه الشركات بدفع أسعار غير مجزية ثمناً لهذه الموارد، ولا تكفي هذه الإيرادات لتسديد التكاليف الباهظة للمواد الانتاجية والاستهلاكية التي تستوردها هذه الدول من الشركات الكبرى الصناعية، لذلك استبدل المزارعون في المكسيك زراعة القمح بالطماطم والفواكه لتصديرها إلى أمريكا، وفي أفريقيا حلت الزهور وغيرها من المحاصيل التي يوجد طلب عليها في الدول الأوروبية الغنية محل الحبوب والمحاصيل الغذائية الأساسية.
وفي سعي المدير الصياد للتملص من مسئولياته الاجتماعية والمحاسبة القانونية أقدم على نقل المصانع الإنتاجية الملوثة للبيئة إلى الدول الأقل نمواً، والتي لا تطبق قوانين صارمة لحماية البيئة، كما تهمل إدارات بعض الشركات الكبرى توفير شروط السلامة والأمان في مصانعها المشيدة في بلاد فقيرة، وقد أدى هذا الإهمال إلى كارثة بهوبال في الهند في 1985، والتي راح ضحيتها الألاف من الهنود إثر تسرب غاز خطر من مصنع لإنتاج مواد مكافحة الآفات الزراعية تملك شركة يونيون كاربايد الحصة الأكبر فيه، ومن المعروف أيضاً بأن العاملين المحليين في فروع الشركات عابرة القارات لا يحصلون على أجور مكافئة لأجور أمثالهم في الدول الغربية.
إن الدافع الرئيسي وراء الاستغلال المتسارع وغير المنضبط للموارد الطبيعية في العالم هو جشع الصياد وسعيه لامتلاك القوة والثروة والسيطرة، لهذا السبب نحن نستهلك اليوم في العام الواحد من موارد ما تحتاج الطبيعة لعام وأربعة شهور لتعويضه، وعلى سبيل المثال يتطلب تجهيز الورق الكافي لطباعة عدد واحد من جريدة النيويورك تايمز ليوم الأحد قطع ألاف الأشجار في غابات كندا، وتتواتر تقارير الدراسات العلمية عن اضمحلال الطبقات الجليدية في القطبين بسبب ظاهرة الانحباس الحراري الناتجة عن ازدياد معدلات ثاني أوكسيد الكاربون في البيئة بسبب التلوث، ويحذر المختصون من نتائج وبيلة على الحياة الطبيعية برمتها إن لم تعالج هذه المشكلة قبل أن تتفاقم وتصبح عصية على الحل، ولكن ذلك لم يكن كافياً لإقناع عدد من الدول الصناعية بالمصادقة على اتفاقيات الحد من التلوث الصناعي، متذرعةً بأن ذلك سيرفع من تكاليف الانتاج في شركاتها ويزيد نسب البطالة في مجتمعاتها.
هل سيقتنع الصياد بهذه الحقائق ويقبل بما تمليه من ضرورة ترشيد استهلاك الطاقة والبحث عن بدائل أقل ضرراً بالبيئة؟ وبالرغم من كل ما جره جشع الصياد في دنيا الأعمال من كوارث على الحياة والطبيعة يصر البعض مثل الاقتصادي المعروف مليتون فريدمان على عدم وجود حاجة لوضع قواعد أخلاقية للنشاط الاقتصادي الحر.
نجح المديرون الصيادون في الحصول على السلطة والنفوذ والثروة والمكانة الاجتماعية والشهرة، ولكن السعادة تبدو غير مضمونة، وهم ساهون عن حكمة المزارع القائلة بأن الممتلكات والثروة لا تحقق السعادة، ولم يكن المديرون الناجحون الذين درسهم ماكوبي Macoby (1976) سعداء، وتنبع معاناتهم من علاقاتهم السيئة بمن حولهم، فهم لا يثقون

بمرؤوسيهم ولا بالمزارعين المكسيكيين الذين استحوذوا على أملاكهم، ويفتقدون الأصدقاء والصلات العائلية القوية مع أفراد عوائلهم، ويتحسرون على العلاقات الطيبة مع أفراد مجتمعهم المحلي.

المزارعون في مجال العمل

بينما يفضل الصيادون العمل لوحدهم ويقبلون على مضض بالعمل مع الغير والتعاون معهم إذا اقتضت الضرورة ذلك لبلوغ أهدافهم يحبذ المزارعون العمل الجماعي، جنباً إلى جنب مع آخرين، ويحقق هذا التعاون المنتج بحد ذاته شطراً رئيسياً من حاجاتهم الاجتماعية، والمرجح أن تكون التنظيمات الأولى التي جمعت بين أفراد لتحقيق أهداف مشتركة من ابتداع جانب المزارع في الجنس البشري، قبل أن يستولي عليها أو يتسلط على مقدراتها الصياد ويحولها إلى هياكل سلطوية رسمية وبيروقراطية، وعلى الرغم من حماس المزارع للعمل واستعداده لبذل الجهود اللازمة يجد صعوبة نسبية في الحصول على فرص العمل في المؤسسات التي يهيمن عليها الصياد، لأنها لا تقدر عالياً شخصية وقيم المزارع، أو حتى تعتبرها غير ملائمة وغير منتجة، وهذه المؤسسات هي كما وصفها ماكوبي Maccoby (1975) تكافئ خواص العقل لا القلب، من ناحية أخرى توصل رتشرسون وكولينز وجينيت
Richerson, Collins and Genet (2006) إلى أن نتائج البحوث الحديثة لا تؤيد صحة النظرية الاقتصادية المبنية على نموذج الإنسان الأناني والعاقل، واستنتجوا بأن البشر متعاونون بالسليقة، وهم يقبلون على التعاون مع معارفهم والغرباء، ودعوا إلى تعديل نظريات التنظيم والإدارة وفقاً لهذه النتائج الحديثة، وهم مقتنعون بأن المؤسسات المتعاونة مع بيئتها الاجتماعية والطبيعية تحقق أرباحاً أفضل من تلك التي لا تعير أهمية لذلك.

وسواء عمل المزارع في وظيفة رئيس أو مرؤوس فسيخلص في عمله، ويبذل قصارى جهده في أداء مهامه وواجباته، خاصة إذا كان راضياً عن أهداف وسياسات المؤسسة، ويتحقق هذا الشرط بأعلى درجة عندما يعمل المزارع في المؤسسات اللاربحية، مثل التعاونيات والجمعيات الخيرية وأمثالها من مؤسسات الخدمة العامة، كما يفضل المزارع وعلى العكس من الصياد العمل في مؤسسات صغيرة الحجم، تكون تنظيماتها بسيطة، وأعداد العاملين فيها قليلة نسبياً، والفروقات في السلطة والمكانة فيها محدودة، وتحفز ظروف العمل في مثل هذه المؤسسات المزارع على الأداء المتميز والخلاق والمشاركة بحماس في فرق العمل، ويكون رضاه الوظيفي عالياً في هذه الحالة.

أسلوب المزارع في الإدارة

يميل المدير المزارع إلى النموذج العضوي بدلاً من الميكانيكي في فهم المؤسسة والتعامل معها، أي اعتبار المؤسسة أشبه بالكائن الحي بدلاً من الماكنة، وهذا يستدعي التركيز على كونها منفتحة على بيئتها المحيطة بها، بما في ذلك المجتمع الذي تعمل ضمنه، وهي تؤثر في بيئتها المباشرة كما تتأثر بها، ولا يمكن لها أن تعمل بكفاءة عالية من دون مرونة مناسبة في تنظيمها وهيكلها وتواصل وثيق بين إداراتها وفروعها، لذا لا بد من الاهتمام بتحسين كفاءة نظم الاتصالات والتنسيق والتعاون فيها، وتفويض الصلاحيات واشراك الموظفين في اتخاذ القرارات، كما يفرض تبني النموذج العضوي اعتبار المرؤوسين أهم وأثمن موارد المؤسسة، والالتفات إلى تلبية احتياجاتهم وتطلعاتهم، والاستماع لمطالبهم، وحل مشاكلهم وتظلماتهم، ورفع معنوياتهم ورضاهم الوظيفي.

لعدة عقود من السنين بعد نشر كتاب ماكريجور حول النظرية أكس (س) في الإدارة والقيادة، والمشار إليه سابقاً، ظل الأكاديميون والمدربون والمستشارون في حقل الإدارة ينصحون

المديرين بالتحول من النظرية (س) السلطوية إلى ما أسموه بنظرية واي (ص) Theory Y، والجدير بالذكر أن منطلق مناصري النظرية (ص)، أي الاهتمام بالعنصر البشري، إنساني بحت، يوجب نبذ معاملتهم كأدوات أو وسائل إنتاجية، وتهيئة الظروف اللازمة لشعورهم بالرضا، مما سينعكس إيجابياً على أداءهم وإنتاجيتهم، ومن المؤكد أن التعسف في معاملة الموظفين أمر سلبي، وقد يؤدي إلى انجاز العمل، لكنه لا يشجع على الابتكار، ويفشل في إيجاد حلول لمشاكل العمل، وإذا كان استعمال التخويف ليس مجدياً في كل الحالات فإن التساهل إلى حد قريب من الميوعة قد يؤدي إلى التسيب أيضاً، لذا توصل المختصون في حقل الإدارة إلى استحالة وجود طريقة مثلى وناجحة لكل المواقف والظروف، فقد تنفع الطريقة السلطوية في بعض الحالات، ولكن في حالات أخرى لا بد من اتباع أسلوب أقرب لنموذج (س)، لذا ينبغي على المدير الأخذ بالاعتبار كافة العوامل المؤثرة بما في ذلك طبيعة العمل والتقنيات المستخدمة وكذلك صفات العاملين، فلو كان العاملون يميلون بحكم ثقافتهم وشخصياتهم لاحترام السلطة والقوة، ويحبذون أن يبلغوا بالتفصيل بما هو مطلوب منهم فالأفضل أن يكون إشراف المدير عليهم دقيقاً وتفصيلياً، وتكون مشاركتهم في اتخاذ القرارات بالحد المناسب.

إضافة إلى أسلوبه الإنساني في الإدارة يؤدي المدير المزارع دوراً هاماً وحيوياً في توثيق الصلات داخل المؤسسة، فهو كما وصفناه سابقاً همزة الوصل التي تربط العاملين ببعضهم البعض، وفي المؤسسات الضخمة التي تتعدد فيها مستويات الإدارة والسلطة، ويشتد فيها التنافس، تكون بيئة المؤسسة موحشة، والعلاقات بين موظفيها متوترة وضعيفة، بسبب التصارع والخلاف والتحاسد، وغيرها من المشاعر السلبية المصاحبة للتنافس والتباين الحاد في السلطة، لذا تكون الحاجة ماسة للمزارعين، الذين يتولون مهمة التآلف والتوفيق بين الأفراد، والتنسيق بين أعضاء فرق العمل، وحل المشاكل والخلافات التي قد تطرأ بينهم، والحفاظ على تماسك الفرق والوحدات التنظيمية، ويمكن القول بأنه لو كان جميع أفراد المؤسسة من نوع الصياد، أو يغلب على فكرهم وسلوكهم جانب الصياد، فستواجه المؤسسة خطر الفشل والتفكك بسبب صعوبة التنسيق بينهم، إلا إذا كانت تعتمد القسر والمحفزات السلبية مثل المنظمات العسكرية والأمنية، ولكن حتى الرؤساء في مثل هذه المنظمات يدركون بأن أساليب المدير الصياد قد لا تكون كافية دائماً لضمان تنفيذ الأوامر والالتزام بالقواعد والسياسات الرسمية، وقد بين لي بعض الجنود العراقيين الذين شاركوا في الحرب مع إيران في ثمانينات القرن العشرين بأن الانضباط العسكري الصارم المعروف به الجيش العراقي آنذاك والعقوبات الرادعة لم تكن كافية لضمان الأداء القتالي بالمستوى المطلوب، لذا كان رؤساؤهم يعاملونهم بطريقة مختلفة تماماً قبل المعركة، إذ تختفي الفظاظة والإهانات من خطابهم لتحل محلها عبارات ودية مثل: أيها الأخوة أو الأبناء، وبدلاً من الانتقاد والذم يمتدحون ذكاءهم وشجاعتهم ونبلهم ووطنيتهم العالية.

لاحظ بعض باحثي الجماعات الصغيرة في مجال العمل وجود قائدين في كل مجموعة، أحدهما هو الرئيس الرسمي للمجموعة، والذي يمتلك السلطة والمعرفة والخبرة لإدارة العمل الذي تقوم به الجماعة، فهو الأقدر بينهم على توجيه الجهود وشرح ما هو مطلوب والتأكد من انجاز المهمة المطلوبة، ولكن قائد واحد غير كاف، إذ يظهر عضو آخر ضمن الجماعة، ليهتم بالجوانب الاجتماعية ويعمل على ايجاد الألفة بينهم، ولو حدث خلاف بينهم فهم على الأغلب سيلجؤون إليه لا إلى الرئيس الرسمي للمجموعة، وقد أطلق الباحثون على الاول مسمى قائد أو مدير العمل task manager والثاني المدير أو القائد الاجتماعي social manager، ومن منظور هذا الكتاب يمثل الأول الصياد فيما يؤدي الثاني دور المزارع، ولا بد من وجود الإثنين لإنجاز العمل بكفاءة عالية.

ينجح المزارع في عمل الإدارة لأنه أقدر على تفهم الحاجات الفردية لمرؤوسيه، كما لا تخفى عليه ضرورة تحمل مسؤولياته في انجاز العمل المكلف به لأنه يعتبر هذا التكليف أمانة يتحتم عليه اداؤها، والمدير المزارع الذي يجمع بين هذين الشقين من عمل الإدارة بكفاءة هو أجدر بتولي مهام تأليف وقيادة فرق العمل والتنسيق بين أفرادها والحفاظ على ارتفاع معنوياتهم

ورضاهم الوظيفي، ولأنهم – وعلى عكس الصياد - غير مهتمين بالشعور بالقوة الذي تمنحه لهم سلطاتهم الوظيفية يكونون أكثر استعداداً لتطبيق اللامركزية الإدارية وتفويض بعض صلاحياتهم لمرؤوسيهم واشراكهم في صنع القرارات، وهذه صفة مطلوبة في مديري المؤسسات والمراكز المهنية مثل مؤسسات البحوث والتطوير والجامعات، التي يعمل فيها أفراد ذوي كفاءات عالية، ويتصفون بالنضج والعقلانية، ويتوقعون ممارسة درجة عالية من الاستقلالية والمبادرة الشخصية في عملهم وبالحد الأدنى من الإشراف والتوجيه، ولكن تبقى الأفضلية للصياد في شغل الوظائف الإدارية، لأنه النصير الأقوى للهرمية التنظيمية والسلطة والتنافس والمرونة في التعامل مع القيم والأخلاق، وعندما تفضل المؤسسة الصياد على المزارع لوظيفة إدارية فهي تختار الرأس أو العقل أولاً بدلاً من القلب والعاطفة.

أيهما أفضل في العمل الصياد أم المزارع؟

لا يتخيل الصياد إمكانية وجود مؤسسة يديرها ويعمل فيها مزارعون فقط، لأنها ستكون خالية من التنافس، والذي يعتبره الصياد عصب الحياة ومسيرها الأقوى، وبدونه تخمد الهمم ويذوي الإبداع، ولا يعارض المزارع التنافس من حيث المبدأ، بل هو يقبل به كوسيلة من أجل تحقيق أهدافه، ولكنه يرفض الإفراط في التنافس واعتباره المحرك الأساسي لعمل وإبداع البشر، ويرى بأن الاعتقاد بفاعلية المنافسة وتأثيراتها الإيجابية على حياة البشر في العمل والمجتمع مبالغ فيه، لأنه يغفل تأثيرات دوافع إنسانية أخرى، مثل الفضول البشري والبحث عن المعرفة والالتزام بالقيم والأخلاق وخدمة الإنسانية، والدليل على صحة ذلك هم العباقرة السباقون والمخترعون الأوائل الذين قدموا الكثير من الإبداعات والاكتشافات المبكرة في حقول العلم والتقنية، فهؤلاء لم يواجهوا منافسة تذكر، وإن كانت موجودة فربما لم يعرفوا بوجودها، وبالتأكيد لم تكن المنافسة عنصراً حافزاً ومؤثراً في إبداعاتهم، وعلى الرغم من الظروف الصعبة والعقبات الكأداء والتشكيك والسخرية والفقر والحرمان فقد ثابر هؤلاء العلماء والكتاب والفلاسفة والفنانون على عملهم، وخلفوا لنا إرثاً غنياً من الفكر والأدب والعلم والفن ومن دون أم يجنوا ثماره مادياً في كثير من الحالات.

لا توجد دراسات ميدانية مقارنة تفاضل بين أسلوب الصياد التنافسي ومنهج المزارع التعاوني في العمل، ولكن يمكن استخلاص بعض النتائج المفيدة في هذا الصدد من دراسات في حقلي الاجتماع والنفس الاجتماعي، ومن بينها دراسة لعالم النفس الاجتماعي المشهور مظفر شريف Sherif (1961) وشركاءه، وموضوع الدراسة الخلافات والتعاون داخل المجموعات، واستعمل فيها أسلوب التجربة الميدانية على عينة من الشباب في معسكر صيفي، وقام الباحث بتوزيع الشباب إلى فريقين متنافسين في تمرين، ولاحظ الباحث ورفاقه احتدام التنافس والتنازع بين الفريقين إلى درجة كبيرة بلغت أحياناً طابعاً عنيفاً، وباءت كل محاولات الباحثين لإنهاء العداوة والنزاع بين الفريقين بالفشل، ودفعهم ذلك إلى تجربة منهج مختلف وهو تغيير التمرين المطلوب من الفريقين المشاركة فيه، إذ استبدلوا التمرين التنافسي بتمرين تعاوني، أي يتطلب من أفراد الفريقين التعاون بدلاً من التنافس لبلوغ النتيجة المرغوبة، وعندما حل التعاون محل التنافس خرج الجميع رابحين وتوقف العداء بينهم، وتوصل باحثون آخرون إلى نتائج مماثلة، تؤكد بأن الجماعات التي تعتمد التعاون في عملها تحقق نتائج أفضل، وهي أقل عرضة للتوترات والعداءات بين أفرادها.

يبقى سؤال أخير هو: ما هو اختيارك أنت؟ هل تفضل أن تدير حياتك على أساس منهج الصياد أم المزارع؟ وفي الفصل الأخير سيتبين بأن لأسلوب المزارع في الحياة وقيمه السامية وإيثاره وحبه لعمل الخير والتعاون فوائد كبيرة، وربما هو اليوم ضروري جداً وأكثر من أي وقت مضى لسعادتنا كأفراد، ولاستتباب السلام بين الشعوب، وربما لبقاء البشرية جمعاء.

الفصل الثامن
هل ستكون الحياة أفضل لو ازداد عدد المزارعين؟

كتب الفيلسوف الفرنسي ميشيليه:
بعد هذا التنائي الطويل لعل الإنسان سيتوصل إلى مصالحة مفرحة مع بقية بني البشر ومع الطبيعة، واتمنى زوال كل أنواع التكبر...

دون كيهوت للروائي الإسباني سرفانتس:
لا الخير ولا الشر سيبقيان للأبد، وما دام الشر قد استمر لفترة طويلة فلا بد أن يكون الخير على الأبواب.

بعد قراءة الفصول السابقة لا بد للقارئ أن يدرك الآن منهجه في الحياة، إن كان أقرب للصياد أم المزارع، ومن المؤمل أن تثير هذه المعرفة سؤالاً داخل عقله: هل هذا هو أفضل منهج لحياتي؟ وهل أبقى صياداً أطمح وأبذل قصارى جهدي لأكون واحداً من الصيادين القلة المحظوظين الذين يمتلكون القوة والثروة والمكانة الاجتماعية المرموقة والاستمتاع بفوائدها ومباهجها؟ أم أسلك سبيل المزارع مستهدفاً سعادتي الذاتية والآخرين من خلال التعاون معهم من أجل الأمن والرخاء للجميع؟ إن غالبية البشر صيادون أو أقرب إلى منهج الصياد، وقد يواجهون صعوبات جمة لو أرادوا الاقتراب من منهج المزارع، إذ ليس من السهل تغيير منهج الحياة المعتاد والمترسخ في النفس، كما قد يتطلب التغيير التضحية ببعض مزايا حياة الصياد، ولكن توجد فوائد لمنهج المزارع تشمل الفرد والمجتمع، مما يقود إلى التساؤل إن كانت حياة البشر ستكون أفضل مما هي عليه لو ازداد عدد المزارعين.

الصيادون أكثرية مهيمنة

يختار أكثرية البشر منهج الصياد، وهم مقتنعون تماماً بأنه النمط الوحيد الممكن والعقلاني والسوي، لذا فموقفهم محسوم سلفاً، بعد أن تربوا في عوائلهم على ذلك، وتعلموه في المدارس، وعودتهم عليه مجتمعاتهم، ورسخته تجاربهم الشخصية في نفوسهم، وهو المنهج الذي يشجعهم أصدقاؤهم وزملاؤهم ورؤساؤهم في العمل على اتباعه، لذا هو القاعدة السائدة، ومنهج المزارع هو الاستثناء، وعلى الأغلب فإن أباءنا وأصدقاءنا وأزواجنا وأولادنا على هذه الشاكلة، ويتوقعون منا أن نكون مثلهم، ونسير على خطاهم، ويضغطون علينا بشتى الطرق والوسائل لنلتزم بذلك، فالحشر مع الناس عيد كما يقول المثل، وبالتالي فلو أراد الفرد تعزيز جانب الصياد في شخصيته، واكتساب المزيد من المهارات اللازمة لذلك فسيشجعه ويثني عليه الصيادون الآخرون، حتى ولو شعروا بعدم الارتياح لتخوفهم من المنافسة، وعندما نكون صيادين نطبق قيمنا الثقافية وأعراف مجتمعاتنا، ولو لم نفعل ذلك فسنصنف مع غير الملتزمين والمارقين والناشزين على المجتمع، وقد نتعرض للرفض والتقريع والمقاطعة.
لهذه الأسباب يطمح الغالبية العظمى من الناس وفي كل المجتمعات لأن يكونوا صيادين ناجحين، يمتلكون الثروة والمكانة الاجتماعية والجمال والشهرة وكل الأشياء المرغوبة التي تعزز من قوتهم، وسواء كانوا يقبعون في أدنى المراتب الاجتماعية، أو يشغلون موقعاً مريحاً في

الطبقة الوسطى من المجتمع، أو يتربعون على قمة الهرم الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي لا يكتفي الصيادون بما بحوزتهم من قوة، وليس هنالك من سقف لطموحاتهم وتطلعاتهم إلى المزيد منها، ويمكن القول ومن دون مبالغة بأنها حاجة غير قابلة للإشباع أبداً.

الأدلة على شدة توق البشر لأن يكونوا صيادين ماهرين كثيرة، وتكفينا الإشارة إلى العدد الهائل من الكتب والمقالات والأفلام التي تنشر سنوياً بهدف تزويد الصيادين بالاتجاهات الفكرية والمهارات العملية اللازمة لحصولهم على مبتغاهم من القوة متعددة الأشكال، أي المناصب العليا والثروة والنجاح والنفوذ والشهرة وغيرها، ويجني المحاضرون المحترفون في هذا المجال مبالغ طائلة سنوياً مقابل البرامج التدريبية التي ينفذونها، ويحضرها الألاف من الصيادين المتعطشين للقوة والمزيد منها، ويعد مؤلفو هذه المصادر ومنفذو البرامج التدريبية قراءهم ومتدربيهم بإرشادهم الى أفضل وأقصر الطرق وأيسر وأضمن الوسائل للحصول على القوة التي يطمحون لها بشرط تبني الاتجاهات الفكرية المناسبة وبذل الجهد والوقت المطلوبين.

تقييم إجمالي لمنهج الصياد

وكما تبين في الفصول السابقة يعتقد أنصار منهج الصياد في الحياة بأنه ضروري لشحذ غريزة البقاء فينا وإذكاء استعدادنا للتنافس وتحريك دوافعنا للتطوير والتحسين والإبداع، وقد يراه البعض متأصلاً في الطبيعة البشرية، مثل الغرائز التي تدفع الحيوانات كالقرود لتنظيم أنفسها في جماعات هرمية، أساسها التباين في القوة بين أفراد الجماعة الواحدة، وفيما عدا ثباته على طلب القوة يبدي الصياد مرونة كبيرة في اختياره للفكر والقيم والطرق والوسائل الموصلة لذلك، ويراهن الصيادون المعاصرون على العلم والتقنيات الحديثة واقتصاد السوق الحر في تحقيق كل ما يصبون إليه، وهم متيقنون بأن المنهج العلمي والعقلاني كفيل بإيجاد الحلول لكل المشاكل التي ما زالت تعصف بالمجتمع البشري من حروب وجرائم وتلوث للبيئة، وبالنتيجة ستمكنه من بناء الجنة على الأرض، والتي وإن لم يكتب فيها الخلود للناس، فسيتمتعون فيها بحياة طويلة ومعافية وسعيدة.

لا يشاطر الجميع أنصار الصياد في ثقتهم المطلقة بنمط حياتهم وأساليبهم، وعلى سبيل المثال يصف أيزنك (1973) Eysenck تاريخ البشرية وعبر ألاف السنين بالتخبط والعشوائية، ولم يحسن هذا التاريخ الطويل للجنس البشري من قدرته على التعامل مع مشاكله الفردية والاجتماعية، ويتفق معه كين (2010) Kane في أن البشر في حيرة من أمرهم، ولم يعد باستطاعتهم التيقن من معتقداتهم وأفكارهم، ويصعب عليهم الاختيار بين أنماط العيش السائدة في محيطهم، ويصف ديوز (2008) Dews بدقة هذه المحنة التي يواجهها البشر: فهم منجذبون بالفطرة لتبني القيم الفاضلة ويتمنون تطبيقها، لكنهم في الوقت ذاته يفشلون في تحقيق ذلك أو يعملون عمداً بالنقيض منها.

وفي الفصول السابقة من هذا الكتاب أدلة كثيرة على أن عالمنا المحكوم بالصياد وقيمه ونمط حياته أبعد ما يكون عن المثالية والوضوح، وكان من المفترض أن تكون حياة الأكثر تطوراً و"تحضراً" من بني البشر آمنة وسعيدة، لكن الواقع خلاف ذلك، فقد عانى أباء وأجداد الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين المعاصرين من ويلات حربين عالمتين طاحنتين خلفتا وراءهما أكثر من مائة مليون قتيل، كما احتلوا دولاً أخرى واضطهدوا شعوبها، واضطروهم غالباً لاستعمال العنف للتخلص من استعمارهم واستغلالهم، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يخلو عقد من الزمن من حرب كبرى واحدة أو أكثر، كما ما يزال مئات الملايين من البشر يشكون الفقر والجوع والمرض، ويتحمل وزر هذه الفظائع والظلم جانب الصياد في نفوس البشر، والمتصف بالعدوانية والأنانية المفرطة والجشع وتبلد الإحساس.

من المفترض أن يعزز منهج الصياد فرديتنا ويمنع طغيان الجماعة على شخصياتنا، فهل هذه الفردية حقيقية أم زائفة خاصة وأن مجتمع الصيادين زاخر بالخداع والزيف؟ نجد الإجابة لدى

بيريلمان (2003) Perelman الذي يؤكد بأن المساواة بين الفردية الممارسة في مجتمعاتنا وحرية الاختيار مجرد وهم، وفي الواقع فإن هامش الاختيار الذي تتيحه لنا هذه الفردية ضيق جداً، لأن المؤسسات الكبرى في مجتمعاتنا تتحكم بقراراتنا، ولا تترك لنا سوى مجال بسيط ومحدود جداً للاختيار، وبهذه الطريقة نحن نتوهم بأننا نختار ما يعجبنا من مرشحين للمناصب السياسية أو الملابس أو الأطعمة في المتاجر، ونحن منخدعون بهذا الوهم، الذي يبقينا فرديين ومتنافسين ومتفرقين، خدمة لأغراض المؤسسات المتحكمة فينا، ولو تخلينا عن وهم الفردية، وتضافرت جهودنا، فعندئذ سنحصل على حرية اختيار حقيقية.

ويلاحظ أيرفاين (2009) Irvine بأن غالبية البشر يبحثون عن الثروة والشهرة ولو خيروا بينها وبين راحة البال لاختاروا الثروة والشهرة، ويقودنا هذا إلى التساؤل: هل من المعقول أن تكون الغالبية مخطئة؟ ولو استندنا إلى قاعدة أن الأكثرية على حق، في أغلب الحالات على الأقل، لاستنتجنا أن طالبي راحة البال هم المخطئون، ولكن ذلك ليس صحيحاً بالضرورة، إذ يؤكد أيرفاين بأن المفكرين ورجال الدين الذين درسوا الحالة البشرية مقتنعون تماماً بأن الأكثرية اللاهثين وراء الثروة والشهرة هم فاقدو البوصلة.

وعلى الرغم من امتلاك بعض الصيادين المشهورين للقوة والثروة أحاقت المخاطر بحياتهم وعكر صفوها الخوف والقلق، وغالباً ما انتهت بالعنف، فكم من بيننا مستعدون لمبادلة المواقع مع بعض الصيادين مثل الطاغية الروماني كاليغولا أو الملك الإنكليزي هنري الثامن أو نابليون أو هتلر أو موسوليني أو حتى بالمشاهير المحبوبين مثل الرئيس الأمريكي كندي والأميرة ديانا؟ ويلاحظ الكاتبان باخ وتوربت (1983) Bach and Torbet بأن هؤلاء الذين نحسدهم لأنهم يمتلكون كل ما هو مرغوب يشكون غالباً من البؤس والقلق، وهم بذلك لا يختلفون كثيراً عن الأقل حظاً وتوفيقاً وشهرة وثروة منهم، وقد توصلا إلى هذه النتيجة المذهلة من أعداد مرضاهما من أصحاب المهن الناجحة والوظائف المرموقة والعائلات الكبيرة والأصدقاء الكثر، الذين قصدوا عيادتيهما طلباً للعلاج النفسي من أمراض الكآبة والدونية والزيف، وهؤلاء الناجحون التعساء محتارون في فهم وتفسير وادراك أسباب حالاتهم النفسية، التي لا ينبغي أن يحسدهم الأصحاء عليها.

هل البشرية بحاجة للمزيد من المزارعين؟

في الوقت الذي يسعى الكثيرون منا لتنشيط وتقوية جانب الصياد فيهم يتعاملون مع جانب المزارع في نفوسهم بالإهمال والكبت، لذا فمن النادر أن نجد مزارعاً ملتزماً بصورة كاملة، علماً بأن المزارع وحده يستطيع العيش بأمان واطمئنان ووئام مع بقية الناس، لأن علاقاته بهم لا يعكرها وينغصها التنافس الحاد وطلب القوة والشكوك، كما يستنكف عن استغلالهم لقضاء مآربه.

يولد الإنسان على الفطرة السوية الخالية من الشرور، ولكن العائلات والمؤسسات والضغوط الاجتماعية تفسد هذه الفطرة، وتجنح بها إلى الأنانية المتطرفة والظلم والعنف، ويرى الفيلسوف ميشيليه (1846:121) Michelet بأن لا خلاص من هذا الفساد البشري إلا بالموت في قوله: " عندما نتحسر على طفولتنا لا نقصد بذلك الحياة والسنين التي انقضت آنذاك، بل نحن نتحسر على النبل الذي كنا نمتلكه وعلى الألفة البسيطة، وعلى المساواة مع الجميع، فالكل جميل والجميع أحرار، فلنكن صبورين، لأن ذلك سيعود، فالفوارق وعدم المساواة هي باقية في حياتنا فقط، أما المساواة والحرية والنبل فستعود لنا مع الموت"، ويشاطر المزارع رأي الفيلسوف ميشيليه في كون الطبيعة البشرية سوية وخيرة، ويتفق معه بأن الانحراف والتشوه نتاج العادات الاجتماعية، ولكنه يختلف معه في إمكانية الحفاظ على هذه الطبيعة السوية وبلورتها وتنميتها ونشرها في الحياة لا الممات، ولولا ذلك لاختفى جانب المزارع فينا منذ زمن بعيد، وما بقاء واستمرار هذا الجانب على الرغم من ضعفه سوى دليل ساطع على صلابته وتجذره في النفس البشرية.

في كل يوم يحتفى الناس والحكومات والمؤسسات بصيادين ناجحين، ونادراً ما يكافئ مزارع، فهل الصياد أكثر استحقاقاً من المزارع بالتكريم؟ تاريخنا حتى اليوم من صنع الصياد، ويمكن وصفه بالتاريخ الحلو والمر، ومن الصعب الاتفاق إن كان حلوه أو مره أكثر، ولو رجحت كفة المزارع ولو بدرجات قليلة فهل ستقل المرارة في حياتنا الشخصية ومجتمعاتنا؟ بالتأكيد لن تتوقف عجلة الحياة والعمل والإنتاج عن الدوران، ولن يزداد عدد الاتكاليين والطفوليين في العالم، الذين لا يفعلون الشيء الكثير لتحقيق احتياجاتهم معتمدين على إيثار المزارعين، ولكن ستقل الحروب والفروق الطبقية الحادة والاستغلال، وسيشعر الجميع بالطمأنينة نتيجة العدالة والمساواة.

يجمع الصياد القوة أو الطاقة بمختلف أشكالها ويكنزها لنفسه وللمقربين منه، فهو يستهلك ويدخر ويحتكر، ولا يعطي سوى القليل، ولولا هذه الصفات لما استطاع أن يحوز على كل هذه القوة والطاقة، هو أشبه بما يسميه علماء الفلك بالثقوب السوداء التي تجتذب كل شيء من حواليها، وتغيبه في باطنها، وتمتص طاقته، أما المزارع فيبث الطاقة من خلال التعاون والمودة إلى المحيطين به ولمجتمعه، وهذه الطاقة ضرورية لتمتين العلاقات والروابط بين الأفراد والجماعات ومنع حدوث الكثير من الكوارث والظلم وتحقيق العدالة الاجتماعية، لهذه الأسباب توجد حاجة للمزيد من المزارعين في مجتمعاتنا.

التحول إلى منهج المزارع

يوجد افتراض بأن معجزة أو حدث جلل وحده يمكن أن يدفع الناس لإعادة النظر في نمط حياتهم، وعادة ما يردد هذا الكلام الأفراد الذين يعانون من الإدمان على التدخين أو الكحول أو المخدرات أو الشراهة في الأكل، ويرى مورس Morse (1992) بأننا "لا نرى النور"، ونفكر بتغيير طريقة حياتنا، إلا إذا أصابنا مرض وبيل أو حادث مؤلم يوصلنا لحافة الهلاك، ويروي قصة أحد مرضاه، وهو رجل أعمال في أوائل الستينات من عمره، تعافى من أزمة قلبية حادة، وينقل عنه القول التالي: " الشيء الذي تعلمته عند مفارقتي الحياة (ويقصد توقف قلبه عن النبض) بأننا جميعاً أجزاء من كون حي واحد، وكل من يظن بأن باستطاعته إيذاء إنسان أو مخلوق حي آخر من دون ان يتأذى هو يكون مخطئاً"، وهذا القول يلخص دعوى المزارع وفلسفته في الحياة، ونجد موقفاً مشابهاً في شخصية الملك لير في مسرحية شكسبير الشهيرة، فبعد فقدان عرشه وتعرضه للإهانة استيقظت في نفسه مشاعر التعاطف مع الفقراء ومسلوبي الحيل والقوة فراح ينصح الأقوياء والاثرياء بعلاج أنفسهم من خلال إغداق الهبات على الأقل حظاً ونصيباً من الدنيا من حولهم.

أغلب الظن لن يمر أحدنا بأزمة حادة أو مرض خطير إلا في السنوات الأخيرة من العمر، عندما تضعف قواه، ويصبح عرضة للأمراض الخطيرة والنكبات الاجتماعية، ولو حفزته هذه الاحداث على التغيير فسيكون ذلك متأخراً جداً وغير كافياً، لذا ينبغي التفكير بالتغيير من دون انتظار لصدمة كبيرة أو أرذل العمر، ولو اقتنع الفرد بالتحول نحو منهج المزارع، أو الاقتراب منه بدرجة أو أخرى فعليه تهيئة الظروف المناسبة لتحقيق ذلك، فلا بد أولاً من الاقتناع بجدوى ذلك، ومن ثم التغلب على حواجز الخوف والتردد والأسوار المحيطة به، والتي تجبره على الاستمرار بنمط حياته الحالي، وهذا يتطلب المثابرة والتصميم والصبر، وبدرجة كافية لتحمل كل أنواع الضغوط المضادة والمعارضة الشديدة من الصيادين حوله، والذين لن يروق لهم أبداً مغادرته لصفوفهم.

التغيير المنشود هنا صعب، ولكنه لا يتسم بالتعقيد، إذ لا تستدعي الحاجة اكتساب مهارات محددة من خلال التعلم أو التمرين، ومن المؤكد بأن لدى المزارعين الآخرين معلومات هامة ومفيدة، وهم بالطبيعة مستعدون لتقديم العون السخي والنصائح المخلصة، ولكن مساعدتهم ليست ضرورية، وبإمكان أي واحد منا وبالتصميم والصبر تحقيق النجاح في التغيير بإمكانياته الذاتية.

أين تكون البداية؟ هنالك أكثر من طريق للوصول إلى النتيجة المنشودة، فالأنبياء العظام اعتكفوا في الكهوف أو الجبال للتفكر في الخلق وشؤونه قبل الحصول على الهدي والتعاليم الربانية، ويمكن لكل فرد عادي الاستفادة من التفكر وسبر الذات لأننا جميعاً مزدوجو الهوية، صيادون ومزارعون في نفس الوقت، وإن طغى شق الصياد على فكرنا وسلوكنا، وباستطاعتنا استكشاف هذا الجانب المهمل أو المعطل من شخصيتنا من خلال التفكر والتذكر.

تغليب صوت المزارع

هنالك صوتان داخل عقل كل فرد منا: أحدهما يتكلم بلغة الصياد، والآخر يمثل المزارع، لذا ينبغي التمييز بينهما، وهذه خطوة مهمة للبدء بعملية التغيير ونجاحها، ولكي يتمكن الفرد من تعزيز صوت المزارع والتعبير عنه فعلياً، ويمكن التعرف على هويتي الصوتين من خلال مضمون الرسائل التي يبثانها، داخل العقل أو بصوت مسموع، وفيما يلي عرض موجز لبعض الأفكار والمبادئ الأساسية التي يرددها صوت المزارع وما يقابلها لدى الصياد:

المزارع: الطبيعة البشرية خيرة وصالحة وقابلة للتحسن والإصلاح.
الصياد: الطبيعة البشرية أنانية وجشعة، فلندع مهمة إصلاحها وتقويمها للغير إن كان ذلك ممكناً.

المزارع: كلنا شركاء في الخلق وننتمي للجنس البشري الواحد.
الصياد: كلنا بشر ولكن لنا أيضاً انتماءات وولاءات للعنصر والدولة والجماعة والعائلة.

المزارع: كل البشرأعوان في بلوغ المصالح المشتركة.
الصياد: البشر أما حلفاء أو منافسون أو غرباء.

المزارع: ينبغي الاهتمام بشؤون الخلق أجمعين، والتفاعل معهم ومشاركتهم مشاعرهم، والفائدة التي تعم الجميع سينال الفرد نصيب منها.
الصياد: الأفضل أن يعتني الفرد بشؤونه ومصالحه الذاتية، ولا يهدر وقته وجهده فيما لا يعنيه، ولو أحسن للناس فمن يضمن له بأنهم سيقابلون الإحسان بمثله أو لن يستغلوه.

المزارع: على الفرد أن يتحرى الأصالة في الفكر والموقف ويرفض التقليد الأعمى والسير مع القطيع.
الصياد: يؤدي التمادي في مفارقة الجماعة إلى الوقوع في التيه ويعرض الفرد للمقاطعة.

المزارع: القيم والأخلاق مثل العدل والمساواة والحق في الحياة ثابتة وتسري على الجميع.
الصياد: ليست كل القيم والمبادئ الأخلاقية ثابتة، وأحياناً تقتضي المصلحة التهاون في تطبيق بعضها.

إذا أراد الفرد الاقتراب أكثر من نمط المزارع فلا بد له من مراجعة أفكاره ومواقفه، والتخلي عن الأفكار والاتجاهات التي كان يتبناها في حياته وفقاً لمنهج الصياد، واستبدالها بأفكار واتجاهات المزارع، وهنا تظهر أهمية إبراز الشخصية المتميزة للمزارع واختلافه عن الغالبية العظمى من البشر، وللتذكير يتبنى الصياد الاعتقاد بأن طبائع الناس جميعاً واحدة، وغير قابلة للتغيير، وهذه الطبيعة المكتسبة بالفطرة أو التطبع تفرض علينا أن نكون أنانيين، وأن نسعى وراء مصالحنا الذاتية بدون هوادة، ولكي نقترب من نمط المزارع ينبغي علينا التخلي عن هذا الافتراض واستبداله بقاعدة أن البشر مجبولون على الخير والصلاح، وهم أكثر استعداداً للإيثار

من الأنانية، وحتى لو حرفتنا الحياة عن ذلك فباستطاعتنا تغيير أنفسنا بالإرادة والتصميم، ومن المؤكد بأن المزارع يعتقد بأن كل واحد منا قادر على التحول من صياد إلى مزارع.

التقليد هو أسرع الطرق لتعزيز شخصية الصياد، لذا فمن الضروري التحرر من ربقة التقليد لكي ينطلق الفرد من دنيا الصياد إلى عالم المزارع، فبالنسبة للصياد كلنا مستنسخون من أصل واحد تقرره مجتمعاتنا وثقافاتنا، وإن وجدت بعض الفروقات الفردية بيننا، والالتزام بهذا الأصل واتباع السبل التي يرسمها الصيادون الأقوياء المهيمنون على مجتمعاتنا هو الطريق الأمثل لبلوغ النجاح والرضا، أما المزارع فيخالف هذه الرؤيا إذ يتفق مع الكاتبين باخ وتوربرت Bach and Torbet (1983) في تحذيريهما من إن ثمن الالتزام الأعمى باهض، لأننا لو ابتعدنا كثيراً عن ذاتنا الحقيقية والأصيلة، ولو تنازلنا عن الكثير، وتعودنا على ازدراء صفاتنا المتميزة فسنخسر أنفسنا بصورة تامة، ولكن المطلوب ليس استقلالية الفرد كما هو معروف وشائع في أمريكا، والتي يرى ماكوبي Maccoby (1976) بأنها تشجع الأمريكيين على العناد والشك وعدم التعاون، فالاستقلالية المطلوبة هنا والخاصة بالمزارع هي كما يصفها الشاعر رالف والدو ايمرسون إنسانية تسيرها أحكام الضمير، كما يجب أن تكون متحررة من سلطة الرأي العام أو اعتبارات السوق والشغف بالنجاح، ومن خلال ترفع الفرد من أن يكون مجرد نسخة عن الغير أو توسله رضا الأقوياء والقوى المهيمنة يستطيع تكوين شخصيته الأصيلة المستقلة وتطبيق مبادئه وقيمه.

تنطبق مقولة: لا يعيش الإنسان مثل جزيرة وسط محيط مقولة على الصياد والمزارع على حد سواء، وإن ليس بنفس الدرجة، والمزارع بالذات لا يستطيع تحقيق ذاته واستكمال نضجه وتطوير نفسه إلا داخل الجماعة، والمرحلة الثانية من التحول إلى مزارع تنطوي على تغيير الاتجاهات والسلوكيات تجاه المجتمع والعلاقات مع أفراده، فبينما يحتاج الصياد للجماعة لكي يحقق أهدافه الشخصية داخلها ومن خلالها، يوثق المزارع صلاته مع الجماعة لتحقيق احتياجاته للتآلف والتعاون، وعندما تسأله عن سبب اهتمامه الكبير بالشؤون العامة في مجتمعه يجيبك بأن مصلحته الشخصية مرتبطة بمصلحة المجتمع، وعندما يكون المجتمع سليماً ومتطوراً فسيستفيد هو شخصياً، ولو اضطرب المجتمع أو تخلف فسيكون ذلك وبالاً على جميع أفراده، وهو يقرّ بأن اهتمامه بالمجتمع وشؤونه أناني، وكلنا لا نخلو من الأنانية، ولكنها أنانية مختلفة عن أنانية الصياد المسيرة بالمصالح الذاتية، لذا تكون مشاركة الصياد في شؤون الجماعة على قدر استفادته منها بينما يشارك المزارع لتحقيق الفائدة العامة التي ستكبر وتمتد لينال هو نصيبه منها.

يعمل الصياد وفقاً لقاعدة إن لم يعنيني الأمر فلا مصلحة لي في التدخل فيه، ويكتفي بالتفرج أو حتى يدير ظهره وينصرف، وقبل سنوات مررت بتجربة مؤلمة، تصرفت فيها بأسلوب الصياد، فأثناء إقامتي القصيرة في عاصمة دولة صحراوية غنية بالنفط شاهدت في أحد شوارعها شباباً طائشين، يعتدون على سائق سيارة أجرة أجنبي مثلي، الذي تلقى صفعاتهم وشتائهم بصبر وصمت، فانبرى صوت المزارع داخل عقلي ليطالبني بالتدخل لتوجيه النصح لأولئك الشباب القساة، ودعوتهم للكف عن ضرب وإهانة السائق الأجنبي، وأصبت بالحيرة، فمن جهة صوت المزارع يحثني على نصرة المظلوم وإحقاق الحق، ولكن صوت الصياد اعترض بشدة، ونصحني بعدم التدخل فيما لا يعنيني، لئلا أتعرض لاعتداء هؤلاء الأوغاد، ولو اشتبكت معهم في عراك فستقذف بي سلطات بلدهم في السجن، ويبعدونني من دولتهم، فأخسر وظيفتي ومعاش عيالي، في أقل من دقيقة دار هذا الحوار بين الضدين في رأسي، وكانت النتيجة انتصار صوت الصياد إذ سارعت الخطى مبتعداً، وطعم المرارة في فمي، والشعور بالمهانة والعجز يثقل على نفسي، ولعنت الحاجة التي اضطرتني للعمل في هذه الدولة والسكوت على ظلم بعض أفرادها، وعندما يتدخل المزارع لنصرة مظلوم وكف يد الظالم لا يفعل ذلك لكي ينال سلطة الزعامة أو شهرة البطل وإنما اعتقاداً منه بأن العدل وحده كفيل ببقاء وازدهار المجتمع وأفراده، والبطولات الفردية ليست برأيه الطريقة المناسبة لضمان ذلك، بل يجب أن تكون تلك مهمة المؤسسات

الاجتماعية من حكومة وقضاء وقوة شرطة وغيرها، ولكن قد يضطر مزارع لتكبيل يديه بجذع شجرة والتعرض للتوقيف لمنع اقتلاع غابة تمهيداً لفتح طريق أو تشييد مبنى.

ويتطلب التحول من طريق الصياد إلى منهج المزارع أيضاً تغيير النظرة لبقية البشر، فبدلاً من اعتبارهم منافسين ومزاحمين أو حلفاء ينبغي القبول بهم كشركاء متساوين في الحقوق والواجبات، ولا فضل لأحد على آخر إلا بما يقدمه من منفعة للغير، ويتطلب ذلك التخلص من كل الأفكار والآراء السلبية تجاههم بسبب الاختلاف في العرق أو اللون أو الدين أو الطائفة أو المواطنة، وما يرتبط بها أو ينجم عنها من مشاعر سلبية، قد تكون متطرفة أحياناً وحادة، فلابد هنا من الاتفاق مع هندي Hinde (2007) في أن الانتماءات الضيقة تقود الفرد عادة إلى التحيز في القواعد العامة لصالح الجماعة التي ينتمي إليها، وكل انتماء أدنى من الانتماء للبشرية هو في نظر المزارع ضيق، ويعبر الفيلسوف والحاكم الروماني ماركوس أوريليوس عن هذا المفهوم بدقه في قوله: بالنسبة لي أنا أنتونيوس مدينتي وموطني هي روما أما أنا الإنسان فإن موطني هو العالم بأكمله، ولا يعني ذلك تنصل المزارع من هويته الثقافية، بل هو حريص عليها كل الحرص، ولكن من دون تحيز أعمى أو على حساب القيم الإنسانية العليا، ويكاد لا يخلو مجتمع من تنوع ثقافي ولغوي وديني وعرقي، لذا يمكن القول بأن معظم المجتمعات هي تعددية، وقيم واتجاهات الصياد، وخاصة المتشددين منهم، تقيم الحواجز بين الجماعات وتعكر العلاقات بين أفرادها، وقد يؤدي بها التنافس والتصارع إلى تغليب مصلحة جماعة أو أكثر على حساب غيرها، مما يخل بمبدأ العدالة والمساواة الأساسيين في قاموس المزارع.

كما لا يقبل المزارع بأن تكون انتماءاته الضيقة الأساس الذي تبنى عليه علاقاته مع الآخرين يرفض أن ينتفع هو على حساب غيره، ويزعجه المثل القائل بأن مصائب قوم عند قوم فوائد، والذي يعبر عن حالة التنافس في مجتمع الصياد، والشاهد عليه إفلاس الألاف من الشركات سنوياً في اقتصاديات السوق الحرة لتحل محلها شركات جديدة، ويشمئز المزارع من توزيع الثروات غير العادل، حيث يمتلك نفر من الناس حصة الأسد من موارد الأرض، فيما يموت الملايين سنوياً من قلة الغذاء والدواء وشروط السكن والعمل الصحية، وهكذا يشارك المزارع الآخرين أحزانهم وأفراحهم، فلا يحسدهم ولا يتمنى لهم سوى الخير، ولا يمكن أن يصدر منه أذى متعمد للغير، ولكن في الوقت نفسه يشعر بالاستياء من المتسلطين والظالمين والمستغلين، مما يدفعه ليس فقط للاهتمام والتأمل في الوضع وإنما أيضاً إلى اتخاذ خطوات عملية وفعالة لمناوئتهم وحماية ضحاياهم.

قد يحرم المزارع نفسه من الكثير من مباهج الصياد الأنانية نتيجة اهتمامه ومتابعته للقضايا المحلية والعالمية، ولكن المزارع يحصل على المتعة من هذا الاهتمام وما ينتج عنه من نتائج، وليس من قبيل المبالغة الرومانسية أو الشاعرية أن يشعر عامل إغاثة إنسانية بالسعادة الغامرة لمرأى ولو شبح ابتسامة على وجه طفل تناول وجبة كاملة لأول مرة بعد أيام من قلة الغذاء، وكل هذه الاختلافات بين الصياد والمزارع نابعة من التباين في قيمهما، والتحول من صياد إلى مزارع يستدعي تغييراً جذرياً في القيم والقواعد الأخلاقية، وإلا فسيكون تغييراً سطحياً بل وفاشلاً وغير حقيقي، ولنتذكر أن قيم الصياد نسبية ومتغيرة، فما هو مقدس وفرض واجب بالأمس قد يصبح ممجوجاً ومرفوضاً اليوم، لسبب بسيط، وهو انتفاء المصلحة، أو تغير الأذواق أو العادات، وعندما يصرح رئيس دولة عظمى بأن سياسة دولته تقدم مصالحها الوطنية في الأولوية على القيم والمبادئ أحياناً – بما في ذلك الديمقراطية والحرية والعدالة- يتأكد لك بأنه يتكلم بلسان الصياد، وهذا موقف مرفوض من قبل المزارع، الذي يعتقد بأن هذه القيم ثابتة وغير قابلة للتحول، وهو يتفق تماماً مع جيرت Gert (2006) في تأكيده على أن القول بتعدد نظم القيم وانتفاء وجود نظام عالمي للقيم غير صحيح، كما لا يقبل على نفسه التضحية بهذه القيم الشاملة ولو وقتياً في سبيل مصلحة أنانية، فلا أحد فوق العدل بما في ذلك أقرب الناس للمزارع ونفسه كذلك، والعدل هو أساس نظام قيم المزارع، فهو يتفق مع رأي أرسطو بأن العدل يختزل كل

الفضائل، ومع راولز (1971) Rawls في اعتقاده بأن العدالة هي الفضيلة الأولى للمؤسسات الاجتماعية وشرط ضروري لتحقيق التعاون والرفاهية في المجتمع.

يدرك كل واحد منا ماهية وأهمية العدالة، ولا نحتاج للتدريب على كيفية تطبيقها وممارستها، على أنفسنا أولاً قبل الغير، ولكن من الضروري أن يكون الإحساس بالعدالة مرهفاً، وهذا ما يحرص عليه المزارع ويخصص له ما يلزم من جهده ووقته، لذا تجده وقبل إبداء رأيه وموقفه من قضية يتأكد من خلوه من أي ظلم مباشر أو غير مباشر، لنفسه أو للغير.

لا يظلم المزارع نفسه والآخرين، ولكن ما هو ظلم النفس؟ اعتبر باخ وتوربت (1983) Bach and Torbet الإدمان على المسكرات أو المخدرات والسادية والسلوك الإجرامي وأمراض الوهم والانتحار عدواناً على النفس، ووصف أريك فروم (1947) Fromm كل الرذائل بأنها مشوهة للذات، وكل فعل يتسبب بالأذى للنفس بشكل أو أخر هو ظلم للنفس، فعندما تقدم أم على الانتحار تظلم نفسها وأفراد عائلتها، وقد بررت فتاة محاولتها الانتحار بالقول بأن والدتها توفيت منتحرة، وهي أرادت تقليدها، لذا يعتبر شرع المزارع الانتحار ظلماً للنفس والغير، وبالمقابل نجد اليوم وفي بعض المجتمعات دعوات متكررة وقوية لتشريع مساعدة المنتحرين. والتدخين أيضاً هو ظلم مزدوج، يتحمل وطأته المدخن وأفراد عائلته وزملاؤه وكل من يتضرر بدخان سجائره، كما يجني المدخن على أبنائه لأنه يشجعهم بسلوكه على التدخين، والخيانة الزوجية ظلم أيضاً، وضحاياها الزوج المغبون أو الزوجة المخدوعة والأبناء ومؤسسة الزواج والمجتمع برمته، وتتفاوت ردود فعل الصياد تجاهها بين عدم الاكتراث إن كان غير معني بها أو الغضب والانتقام لو كان هو أو هي الطرف المخدوع، نتيجة الإحساس بأن الفعل تعدي على "كيانه" واستلاب لأملاكه، أما نظرة المزارع للخيانة الزوجية فتنطلق من اعتبارها ظلماً وتعدياً على أطراف عدة، تكون له غالباً أثار سلبية طويلة المدى، يصعب محوها أو تناسيها، ولهذه الأسباب التي قد تكتسب شرعية دينية أو قيمية أخلاقية يمتنع المزارع عن الخيانة الزوجية، والبرهان الحسي على تحول الفرد إلى مزارع يكون بنبذه كل الأفكار والتحيزات والعادات والسلوكيات المنطوية على ظلم للنفس أو الغير أو كليهما.

ينبغي على المزارع الجديد تحمل المسؤولية عن أي ظلم بدر منه في الماضي، ومعالجة أثاره وكما يتمنى من الذين أساء إليهم في الماضي عمداً أو من غير قصد العفو عن إساءاته عليه غفران إساءاتهم لهم، ومن خلال الالتزام بالعدل والقيم الأخرى والتسامح وطلب المغفرة فقد نتمكن من التوصل إلى التصالح المنشود بين البشر، والذي حلم به الفيلسوف ميشيليه، وأن يتحقق ذلك في هذه الدنيا، لا بعد الموت، وهكذا سيأتي أخيراً عهد انتشار قيم المزارع الذي حرمنا منه نتيجة سيطرة الصياد على مجتمعاتنا وفرضه أسلوب حياته وقيمه ومبادئه علينا.



المراجع

المراجع باللغة العربية

ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م.

ابن مسكويه، أبي علي أحمد بن محمد. **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**. بغداد: دار الجمل، 2011م.

جواد، مصطفى، 1958. الفتوة وأطوارها وأثرها في توحيد العرب والمسلمين. **مجلة المجمع العلمي العراقي**، المجلد الخامس 46-81.

السيف، محمد بن إبراهيم. 2005. **ورقة عمل مقدمة لندوة المجتمع والأمن المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض من 2/21 حتى 2/24 من عام 1425هـ** . من دون بيانات نشر.

المحارب، ناصر إبراهيم .2005. **علاقة المعاملة الوالدية القاسية والمناخ المدرسي بالسلوكيات الجانحة لدى طلبة المدارس المتوسطة والثانوية في المملكة العربية السعودية : علاقة عامة أم علاقة نوعية؟**، الرياض :جامعة الملك سعود.

المراجع باللغة الإنجليزية

Abul Komsan, N., Shoukry, A., and Hassan, R.M. 2008. **Clouds in Egypt's Sky: Sexual Harassment From verbal Harassment to Rape, a Sociological Study**, Egyptian Center for Women's Rights (ECW).

Abul Komsan, Nehad, ed. **Sexual Harassment in the Arab Region: Cultural Challenges and Legal Gaps, Findings from the Conference on Sexual Harassment as Social Violence, and its Effect on Women.** The Egyptian Center for Women's Rights.

Adler, Alfred. 1979. **Superiority and Social Interest**. Toronto, Canada: W.W. Norton & Company.

Adler, Alfred. 1937. **What Life Should Mean to You**. New York: Little, Brown and Company.

Aladjem, Terry K. 2008. **The Culture of Vengeance and the Fate of American Justice**. Cambridge: Cambridge University Press.

Al-Atrushi, H. H., Al-Tawil, N. G., Shabila, N. P., and Al-Hadithi, T. S. 2013. Intimate partner violence against women in the Erbil city of the Kurdistan region, Iraq. **BMC Women's Health**, 13(37).

Al Helal, MD. Abdullah. 2013. Extra marital affair and family discord: Way-out in Islam. **International Journal of Islamic Thoughts**, 2: 35-44.

Ali, Nujood and Minoui, Delphine. 2010. **I am Nujood Aged 10 and Divorced**. New York: Broadway Books.

Almosaed, Nora. 2004. Violence against women: A cross-cultural

perspective, **Journal of Muslim Affairs**, 24 (1).
Alvard, Michael S. and Gillespie, Allen. 2004. Good Lamalera whale hunters accrue reproductive benefits, in Michael Alvard, ed. **Socioeconomic Aspects of Human Behavioral Ecology** (Research in Economic Anthropology, Volume 23) London: Emerald Group Publishing Limited, pp.225-247.
Amato, P. R. 2001.Children of divorce in the 1990s: an update of the Amato and Keith (1991) meta-analysis. **Journal of Family Psychology**, 15(3):355-70.
Andersen, Christopher. 1996. **Jack and Jackie: Portrait of an American Marriage**. New York: William Morrow and Company.
Aronson, Elliot. 2007. **The Social Animal**. New York: Worth Publishers.
Atkins, David C., Baucom, Donald H. and Jacobson, Neil S. 2001. Understanding infidelity: Correlates in a national random sample. **Journal of Family Psychology**, 15(4): 735-749.
Axelrod, Robert. 1981 The emergence of cooperation among egoists .**The American Political Science Review**, 75(2): 306-318.
Babiak, Paul and Hare, Robert D. 2007. **Snakes in Suits: When Psychopaths Go to Work.** New York: Harper Collins**.**
Bach, George R. and Goldberg, Herb.1974. **Creative Aggression**. New York: Doubleday & Company, Inc.
Bach George R. and Torbet, Laura.1983. **The Inner Enemy: How to Fight Fair with Yourself**. New York: Berkley Books.
Bacon, Francis. 1908. **The Essays**. New York: Charles Scribner's Sons.
Barasch, D.P. 1980. Human reproductive strategies: A sociological overview, In J.S. Lockard, ed. **The Evolution of Human Social Behavior**. New York: Elsevier.
Baughman, Holy M., Dearing, Sylvia, Giammarco, Erica, and Vernon, Philip A. 2012. Relationships between bullying behaviors and the Dark Triad: A study with adults. **Personality and Individual Differences**, 52: 571–575.
Bateson, Patrick. 2000. The biological evolution of cooperation and Trust, In Gambetta, Diego, ed. **Trust: Making and Breaking Cooperative Relations,** electronic edition, Department of Sociology, University of Oxford, chapter 2, pp. 14-30.
Batson, Daniel. 2011. **Altruism in Humans**. New York: Oxford University Press.
Beck, Allen J., Kline, Susan A. and Greenfeld, Lawrence A. 1978. **Survey of Youth in Custody**. U.S. Bureau of Justice Statistics.
Becker, Gary S. 1991. **A Treatise on the Family**. Cambridge, MA: Harvard University Press.
Benson, Mark J. and Buehler Cheryl. 2012. Family process and peer deviance influences on adolescent aggression: Longitudinal effects

across early and middle adolescence. **Child Development**, 83(4): 1213–1228.

Bentham, Jeremy. 1823. **Introduction to the Principles of Morals and Legislation**. Oxford: Clarendon Press.

Berenson, Alex and Pollack, Andrew. 2007. Doctors reap millions for anemia drugs. **New York Times**, May 2nd.

Blackburn, Simon. 2001. **Ethics: A Very Short Introduction**. New York: Oxford University Press.

Boak, Arthur E. R., and Sinnigen, William G. 1969. **A History of Rome to AD 565**. London: The MacMillan Company.

Bobbi S. Low. 2000. **Why Sex Matters: A Darwinian Look at Human Behavior**. Princeton, New Jersey: Princeton University Press.

Bogus, Carl T.1996. The death of an honorable profession. **Indiana Law Journal**. 71(4): 910-947.

Botting, Ellen H. 2006. **Family Feuds: Wollstonecraft, Burke, and Rousseau on the Transformation of the Family**. New York: State University of New York Press.

Bowers, William J.1964. **Student Dishonesty and its Control in College**. New York: Bureau of Applied Social Research, Columbia University.

Boyce, W. Thomas and Ellis, Bruce E. 2005. Biological sensitivity to context: I. An evolutionary–developmental theory of the origins and functions of stress reactivity. **Development and Psychopathology**, 17: 271–30.

Budinsk, Ronald A., and Trovato, Frank. 2005. The effect of premarital cohabitation on marital stability over the duration of marriage. **Canadian Studies in Population,** 32(1): 69-95.

Burger, Warren. 1995. The decline of professionalism. **Fordham Law Review**, 63(4): 949-958.

Burke, Edmund. 1990. **Miscellaneous Writings**. Indianapolis: Liberty Fund, Inc.

Bushman, Bard J. and Baumeister, Roy F. 1998. Threatened egotism, narcissism, self-esteem, and direct and displaced aggression: Does self-love or self-hate lead to violence? **Journal of Personality and Social Psychology**, 17(1): 219-229.

Buss, David M., and Schmitt, D.P. 1993. Sexual strategies theory: An evolutionary perspective on human mating. **Psychological Review**, 100: 204-232.

Buss, David M. and Shackelford, Todd K. 1997. Susceptibility to infidelity in the first year of marriage. **Journal of Research in Personality**, 31: 193–221.

Buss, David M. 2006. Strategies of human mating. **Psychological Topics**, 15 (2): 239-260

Buss, David M. and Shackelford, Todd K. 2008. Attractive women want it all: Good genes, economic investment, parenting proclivities, and emotional commitment. **Evolutionary Psychology**, 6(1):134-146.

Campbell, W. Keith. 1999. Narcissism and romantic attraction. **Journal of Personality and Social Psychology**, 77(6): 1254-1270.

Carcopino, Jerome. 2003. **Daily Life in Ancient Rome: The People and the City at the Height of the Empire**. New Haven, CT: Yale University Press.

Carr, Alan. 2006. **Family Therapy: Concepts, Process and Practice.** 2nd ed. NY: John Wiley.

Cartledge, Paul (2002), **Sparta and Lakonia: A Regional History 1300 to 362 BC.** 2nd. Ed., Oxford: Routledge.

Centers for Disease Control and Prevention. 2014. **Youth Risk Behavior Survey Data – United States, 2013**. Surveillance Summaries, vol. 63, no.4.

Childe, Gordon. 1942. **What Happened in History**. Harmondsworth, Middlesex: Penguin Books.

Clagnon, Napoleon A. 1983. **Yanomamo: The Fierce People**. New York: Holt, Rinehart, and Winston.

Clatterbaug, Kenneth.1990. **Contemporary Perspectives on Masculinity**. Boulder, Col.: Westview Press.

Collins, Randall and Makowsky, Michael.1984. **The Discovery of Society**. 3rd Ed. New York: Random House.

Collins, Randall. 1975. **Conflict Sociology: Toward an Exploratory Science**. New York: Academic Press.

Comte, August. 2009. **The Positive Philosophy of August Comte**. London: Cambridge University Press.

Conn, J.M, Annest, J.L., Gilchrist, J. and Ryan, G.W. 2004. Injuries from paintball game related activities in the United States, 1997-2001. **Injury Prevention: Journal of the International Society for Child and Adolescent Injury Prevention**, 10: 139-143.

Corvisier, Andre.1979. **Armies and Societies in Europe: 1494-1789**. Bloomington: Indiana University Press.

Coward, Howard. 2008. **The Perfectibility of Human Nature in Eastern and Western Thought**. New York: State University of New York Press.

Dalal, K., Lawoko, S. and Jansson, B. 2010. The relationship between intimate partner violence and maternal practices to correct child behavior: a study on women in Egypt. **Journal of Injury and Violence Research**, 2(1):25–33.

Daly, Martin and Wilson, Margo.1990. Killing the competition. **Human Nature**, 1(1): 81-107.

Dawkins, Judith. 1995. Bullying in schools: Doctors' responsibilities. **British Medical Journal,** 30 (6975): 275-276.
Dawkins, Richard.1989. **The Selfish Gene**. Oxford: Oxford University Press.
De Angelis, Barbara. 1992. **Are You the One for Me? Knowing Who's Right and Avoiding Who's Wrong**. New York: Island Books.
De Koning, Anouk. (2009). **Global Dreams: Class, Gender and Public Space in Cosmopolitan Cairo**. Cairo: The American University of Cairo Press.
Dershowitz, Alan M. 1992. **Contrary to Popular Opinion**. New York: Pharos Book.
Desmond, Morris. 1962. **The Naked Ape**. New York: McGraw Hill.
Dews, Peter. 2008. **The Idea of Evil**. MA: Blackwell Publishing.
Dion, K. K., Berscheid, E., and Walster, E. 1972.What is beautiful is good. **Journal of Personality and Social Psychology**, 24:285-290.
Docker, John. 2008. **The Origins of Violence: Religion, History and Genocide.** London: Pluto.
Durkheim, Emile. 2009. **Socialism and Saint-Simon.** London: Routledge and Kegan Paul Ltd.
Dutton, Donald G. 2007. **The Psychology of Genocide, Massacres, and Extreme Violence: Why ''Normal'' People Come to Commit Atrocities**. London: Praeger Security International.
Dwairy, Marwan and Achoui, Mustafa. 2006. Introduction to three cross-regional research studies on parenting styles: Individuation, and mental health in Arab societies. **Journal of Cross-Cultural Psychology**, 37(3): 1-9.
Eastman, Lloyd E.1988. **Family, Fields and Ancestors**. New York: Oxford University Press.
Ebrahim, S. 2000. Do not resuscitate decisions: flogging dead horses or a dignified death? : Resuscitation should not be withheld from elderly people without discussion. **British Medical Journal**, 320(7243), 1155–1156.
Eron, Leonard D., Walder, Leopold O., Togo, R. and Lafowitz, Monroe M.1970. "Social class, parental punishment for aggression and child aggression," In Thomas D. Spencer and Norman Kass, eds. **Perspectives in Child Psychology: Research and Review**. New York: McGraw Hill Book Company, pp. 250-259.
Evans, G. W. and Wachs, T. D. 2010. **Chaos and its influence on children's development.** Washington, DC: American Psychological Association.
Eysenck, Hans J.1973. **The Inequality of Man**. Glasgow: William Collins.
Fanelli, Daniele. 2009. How many scientists fabricate and falsify

research? A systematic review and meta-analysis of survey data. **PLOS ONE,** 4(5).
Fang, Ferric C. and Casadeval, Arturo. 2013. Why we cheat, **Scientific American Mind**. May-June, 31-37.
Ferrill, Arther. 1997. **The Origins of War: From the Stone Age to Alexander the Great**. Colorado: Westview Press.
Firestone, Shulamith. 1984. “Love: A Feminist Critique,” In Robert Baker and Frederick Elliston ed. **Philosophy and Sex**. New York: Prometheus Books.
Fourier, Charles. 1971. **Design for Utopia: Selected Writings of Charles Fourier**. New York: Shocken Books.
Fishbein, Diana H.1992. The psychology of female aggression. **Criminal Justice and Behavior**, 19 (2):99-126.
Freud, Sigmund. 1959. **Collected Papers of Sigmund Freud**. New York: Basic Books.
Friedrichs, David O. 2010. **Trusted Criminals: White Collar Crime in Contemporary Society**, 4th ed. Belmont, California: Wadsworth
Fromm, Eric.1947. **Man for Himself: An Inquiry into the Psychology of Ethics**. New York: Holt Rinehart and Winston.
Fromm, Eric.1956. **The Art of Loving**. New York: Harper & Row.
Fukuyama, Francis. 1999. **The Great Disruption: Human Nature and the Reconstitution of Social Order**. New York: The Free Press.
Gaertner, L., Iuzzini, J., and O’Mara, E. M. 2008. When rejection by one fosters aggression against many: Multiple-victim aggression as a consequence of social rejection and perceived groupness. **Journal of Experimental Social Psychology**, 44(4): 958–970.
Gat, Azar.2006 .**War in Human Civilization**. Oxford: Oxford University Press.
Geis, Gilbert. 2011. **White Collar and Corporate Crime: A Documentary and Reference Guide**. Santa Barbara, California: Greenwood.
Gert, Bernard. 2005. **Morality: Its Nature and Justification**. Oxford: Oxford University Press.
Gil, Eliana. 1983. **Outgrowing the Pain: A Book for and about Adults Abused as Children**. New York: Dell Publishing.
Gilder, George.1973. **Sexual Suicide**. New York: Bantam Books.
Gilder, George.1986. The princess problem. **National Review**, February 27:28-32.
Glover, Robert A. 2001**. No More Mr. Nice Guy! A Proven Plan for Getting What You Want In Love, Sex and Life**. Barnes and Noble Digital.
Godwin, William. 1793. **Enquiry Concerning Political Justice and Its**

Influence on Morals and Happiness. London: G. G. J. and J. Robinson. Goldberg, Carl.1996. The demonic development of the malevolent personality. **Journal of Humanistic Psychology**, 35(3); 7-36.

Goldhagen, Daniel J.1997. **Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust**. New York: Random House

Goleman, Daniel.1994. **Emotional Intelligence**. New York: Bantam Books.

Goulter, Barbara and Minninger, Joan.1993. **The Father-Daughter Dance**. New York: G.P. Putnam's Sons.

Greene, Robert. 2000. **The 48 Laws of Power**. London: Profile Books

Greenwald, Jerry.1973. **Be the Person You Were Meant to be**. New York: A Dell Book.

Grossman, Brian A.1988. **Corporate Loyalty: A Trust Betrayed**. Markham, Ontario, Canada: Viking.

Hammond, Ross A. and Axelrod, Robert. 2006. The evolution of ethnocentrism. **The Journal of Conflict Resolution**, 50(6): 926-936.

Hansson, R.O, O'Conner, Jones, W.H. and Blocker, T.J. 1981. Maternal employment and adolescent sexual behavior. **Journal of Youth and Adolescence**, 10:55-60.

Hardin, Garrett.1968. The tragedy of the commons. **Science**, 162:1243-1248.

Harris, Marvin. 1977. **Cannibals and Kings: The Origins of Culture.** New York: Vintage Books.

Hartley, Richard D. 2008. **Corporate Crime: A Reference Handbook**. Santa Barbara, California: ABC-CLIO Inc.

Hegel, Georg. 2001. **Philosophy of Right**. Kitchener, Ontario: Batoche Books.

Hendrick, Clyde and Hendrick, Susan. 1986. A theory and method of love. **Journal of Personality and Social Psychology**, 50(2): 392-402.

Herbert, Frank. 1964. **Dune**. New York: Berkley Books.

Herlihy, David.1970.**The History of Feudalism**. London: Humanities Press.

Hinde, Robert A. 2007. **Morality in the Modern World: From Relationships to Politics and War.** Oxford: Oxford University Press.

Hirschborn, L. and Gilmore T.N.1989. The psychodynamics of a cultural change: Learning from a factory. **Human Resources Management**, 28:211-233.

Hirst, Margaret E. 1923. **The Quakers in Peace and War**. London: The Swarthmore Press.

Hobbes, Thomas. 2012. **Leviathan**. Oxford: Oxford University Press.

Hogan, Neal C. 2003. **Unhealed Wounds: Medical Malpractice in the Twentieth Century**. New York: LFB Scholarly Publishing LLC.

Holt-Lunstad J, Smith T. B., and Layton B. 2010. Social relationships and mortality risk: A meta-analytic review. **Public Library of Science Medicine**, 7(7).

Hospers, John. 1982. **Human Conduct: Problems of Ethics**. New York: Harcourt Brace Jovonovich, Inc.

Hume, David. 1960. **Treatise of Human Nature**. Oxford: Oxford University Press.

Ignatieff, Michael. 1984. **The Needs of Strangers**. New York: Viking.

Irvine, William B. 2009. **A Guide to the Good Life: The Ancient Art of Stoic Joy**. Oxford: Oxford University Press.

Irwin, Robert. 2004. "Futuwwa": Chivalry and gangsterism in Medieval Cairo. **Muqarnas**, 21:161-170

Johnson, Dominic and Bering, Jesse. 2006. Hand of God, mind of man: Punishment and cognition in the evolution of cooperation. **Evolutionary Psychology**, 4: 219-233.

Jonason, Peter K. and Kavanagh, Philip. 2010. The dark side of love: Love styles and the Dark Triad. **Personality and Individual Differences**, 49: 606–610.

Jonason, Peter K., Valentine, Katherine A., Li, Norman P. and Harbeson, Carmelita L. 2011. Mate-selection and the Dark Triad: Facilitating a short-term mating strategy and creating a volatile environment. **Personality and Individual Differences** 51: 759–763.

Jonason, Peter K. Slomski, Sarah, and Partyka, Jamie. 2012. The Dark Triad at work: How toxic employees get their way. **Personality and Individual Differences**, 52: 449–453.

Jonason, Peter K. Webster, Gregory D., Crysel, Laura, Schmitt, David P., and Li, Norman P. 2012. The antihero in popular culture: Life history theory and the Dark Triad personality traits. **Review of General Psychology**, 16(2): 192–199.

Jung, Carl G. 1977. **Two Essays on Analytical Psychology**. Princeton, New Jersey: Princeton University Press.

Kahn, Herman and Wiener, Anthony J. 1967. **The Year 2000: A Framework for Speculation on the Next Thirty-Three Years**. New York: MacMillan.

Kaiser, Robert G. 1976. **Russia: The People and the Power**. New York: Atheneum.

Kant, Immanuel. **Principles of Politics**. Edinburgh: Clark.

Kane, Robert. 2010. **Ethics and the Quest of Wisdom**. New York: Cambridge University Press.

Kaplan, Paul S. 1986. **A Child's Odyssey: Child and Adolescent Development**. New York: West Publishing Company.

Kazez, Jean. 2007. **The Weight of Things Philosophy and the Good Life**. Malden, MA: Blackwell Publishing.

Keal, Paul. 2003 **European Conquest and the Rights of Indigenous Peoples: The Moral Backwardness of International Society**. Cambridge: Cambridge University Press.
Keeley, L. H. 1996. **War before Civilization**. New York: Oxford University Press.
Keynes, John Maynard. 1963. **Essays in Persuasion**. New York: W.W. Norton and Company.
Khallad, Yacoub. 2005. Mate selection in Jordan: Effects of sex, socioeconomic status, and culture. **Journal of Social and Personal Relationships**, 22(2): 155–168.
Kilday, Anne-Marie. 2013. **A History of Infanticide in Britain *c.* 1600 to the Present**. Hampshire, UK: Palgrave Macmillan.
Kilduff, Martin and Day, David. 1994. Do chameleons get ahead? The effects of self-monitoring on managerial careers. **Academy of Management Journal**, 37: 1047-1060.
Klasgbrun, Francine.1985. **Married People: Staying Together in the Age of Divorce**. New York: Bantam Books.
Klose Donald A. (1995). M. Scott Peck's Analysis of human evil: A Critical Review. **Journal of Humanistic Psychology**, 35 (3): 37-66.
Kluckhohn, Clyde.1949. **Mirror for Man**. New York: McGraw-Hill Book Co.
Kohn, George C. 1986. **Dictionary of Wars**. New York: Facts on File Publications.
Korda, Michael. 1975. **Power, How to Get it, How to Use it**. New York: Random House.
Kropotkin, Peter. 1972. **Mutual Aid: A Factor of Evolution**. New York: University Press.
Lakoff, Robin T. 1990. **Talking Power: The Politics of Language in Our Lives**. New York: Basic Books.
Lair, Jess.1977. **Ain't I a Wonder and Ain't You a Wonder Too: Winning Freedom through Acceptance**. New York: Fawcett Crest.
Langlois, J. H. Kalakanis, L., Rubenstein, A. J., Larson, A., Monica H., and Smoot, M. 2000. Maxims or myths of beauty? A meta-analytic and theoretical review. **Psychological Bulletin**, 126(3):390-423.
Leape, Lucian L. 1994. Error in medicine. **The Journal of the American Medical Association**, 272(23): 1851-7.
Leary, M. R., Kowalski, R. M., Smith L., and Phillips, S. 2003. Teasing, rejection, and violence: Case studies of the school shootings. **Aggressive Behavior**, 292:202–214.
LeBlanc, S. A., & Register, K. E. (2003). **Constant Battles: The Myth of the Peaceful, Noble Savage**. New York: St. Martin's Press.
Leinberger, Paul and Tucker, Bruce. 1991. **The New Individuals: The Generation after the Organization Man**. New York: Harper Collins.

Lenski, G. E. and Lenski, J.1978. **Human Societies: An Introduction to Macrosociology**, 3rd ed., New York: McGraw Hill.
Lerner, Harriet. 1985. **The Dance of Anger**. New York: Harper & Row, Publishers.
Lerner, Harriet.1989. **The Dance of Intimacy: A Woman's Guide to Courageous Acts of Change in Key Relationships**. New York: Harper Collins.
Locke, John. 1988. **Essays on the Law of Nature**. London: Clarendon Press.
Long, William J. and Brecke, Peter. 2003. **War and Reconciliation Reason and Emotion in Conflict Resolution.** Cambridge, Massachusetts: MIT Press.
Lopreato, Joseph.1984. **Human Nature and Biocultural Evolution**. Boston: Allen and Unwin.
Lorenz, Konrad.1966. **On Aggression**. London: Methuen.
Maccoby, Michael.1976. **The Gamesman: The New Corporate Leader**. New York: Simon and Schuster.
Machiavelli, Niccolo. 1992. **The Prince**. New York: Dover Publications.
MacNeesh, Richard S. 1992. **The Origins of Agriculture and Settled Life**. Norman: University of Oklahoma Press.
Malthus, Thomas. 1798. **An Essay on the Principle of Population**. London: J. Johnson.
Mannheim, Karl. 1954. **Ideology and Utopia: an Introduction to the Sociology of Knowledge**. London: Harcourt, Brace and Company Inc.
Marcus, Rebecca B. 1980. **Survivors of the Stone Age: Nine Primitive Tribes Today**. New York: Hastings House.
Marcuse, Herbert. 1964. **One-Dimensional Man**. Boston: Beacon Press.
Martinson, Brian C., Melissa S. Anderson, and De Vries, Raymond. 2005. Scientists behaving badly. **Nature**, 435:737–738.
Marx, Karl. 1904. **A Contribution to the Critique of Political Economy**. Chicago: Charles H. Kerr and Company.
Maslow, Abraham. 1943. A Theory of human motivation. **Psychological Review**, 50 (4) 370–96.
Maslow, Abraham. 1965. **Eupsychian Management: A Journal**. Homewood, Ill.: Richard D. Irwin, Inc.
Mayo, Elton. 1960. **The Human Problems of an Industrial Civilization**. New York: Viking Press.
Maziak W. and Asfar, T. 2003. Physical abuse in low-income women in Aleppo, Syria. **Health Care Women International**. 24(4):313-26
McCabe, D. L., and Trevino, L. K. 1993. Academic dishonesty: Honor codes and other contextual influences. **Journal of Higher Education**, 64(5): 522–538.
McCabe, Donald L., Butterfield, Kenneth D. and Trevino, Linda K. 2006.

Academic dishonesty in graduate business programs: Prevalence, causes, and proposed action. **Academy of Management Learning and Education**, 5(3): 294–305.

McGregor, Douglas.1960. **The Human Side of Enterprise**. New York: McGraw Hill.

McRae, Hamish. 1995. **The World in 2020: Power, Culture and Prosperity.** Cambridge, Mass.: the Harvard Business School.

Menotti, Gian Carlo.1953. A plea for the creative artist. In Fernando Puma, ed. **The 7 Arts**. New York: Doubleday, pp. 39-40.

McClelland, David C.1975. **Power: The Inner Experience**. New York: Irvington Publishers.

McLanahan, Sara, and Sandefur, Gary. 1994. **Growing Up With a Single Parent: What Hurts, What Helps**. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Mead, Margaret. 1970. **Culture and Commitment**. New York: The American Museum of Natural History.

Mesquida, Christian G. and Wiener, Neil I. 1999. Male age composition and severity of conflict. **Politics and the Life Sciences**, 18(2), 181-189.

Michelet, Jules.1846. **The People**. New York: D. Appleton and Company.

Milgram, S. 1963. Behavioral study of obedience. **Journal of Abnormal and Social Psychology**, 67(4): 371-378.

Miller A. 1990. **For Your Own Good: Hidden Cruelty in Child-Rearing and the Roots of Violence**. New York: The Noonday Press.

Mills, John Stuart. 1929. **Principles of Political Economy**. London: Longman.

Milner, Larry S. 2000. **Hardness of Heart/Hardness of Life: The Stain of Human Infanticide**. Lanham, MD: University Press of America.

Milton-Edwards, Beverly.2006 **. Islam and Violence in the Modern Era**. New York: Palgrave Macmillan.

Mohsin, Mohammed and Bauman, Adrian E. 2015. Socio-demographic factors associated with smoking and smoking cessation among 426,344 pregnant women in New South Wales, Australia. **BMC Public Health,** 5(2005): 138. PMC. Web.

Mokhiber, Russell.1988. **Corporate Crime and Violence: Big Business Power and the Abuse of the Public Trust**. San Francisco: Sierra Club Books.

Monastersky, Richard. 2002. Atomic lies: How one physicist may have cheated in the race to find new elements. **The Chronicle of Higher Education**, August 16.

Montaigne, Michael de. 1877. **Essays of Michael de Montaigne**. London: Reeves and Turner.

Morgenthau, Hans. 1946. **Scientific Man versus Power Politics**.

Chicago: University of Chicago Press.
Morris, Desmond. 2010. **The Naked Ape: A Zoologist's Study of the Human Animal**. New York: Random House.
Morse, Melvin.1992**. Transformed by the Light: The Powerful Effect of Near-Death Experiences on People's Lives.** New York: Villard Books**.**
Mumford, Lewis.1961. **The City in History: Its Origins, its Transformation and its Prospects**. New York: Harcourt, Bruce and Word Inc.
Mundy, Alicia. 2001. **Dispensing with the Truth: The Victims, the Drug Companies, and the Dramatic Story Behind the Battle over Fen-Phen**. New York: St. Martin's Press.
Nader, Ralph. 1965. **Unsafe at any Speed: The Designed-In Dangers of the American Automobile.** New York: Grossman Publishers.
Nelson, Phillip J. and Greene, Kenneth V. 2003. **Signaling Goodness: Social Rules and Public Choice**. Ann Arbor: University of Michigan Press.
Nietzsche, Friedrich W. 1967.**Thus Spoke Zarathustra**. New York: The Heritage Press.
Nogales, Anna and Bellotti, Laura G. 2009. **Parents Who Cheat: How Children and Adults Are Affected When Their Parents Are Unfaithful.** Deerfield Beach, Florida: Health Communications, Incorporated.
Null, Gary, Dean, Carolyn, Feldman, Martin and Rasio, Debra. 2005. Death by Medicine. **Journal of Orthomolecular Medicine**, 20(1): 21-34.
Nye, Ivan and Hoffman, Lois. 1963. **The Employed Mother in America.** Chicago: Rand McNally.
Oakley, Barbara. 2008**. Evil Genes: Why Rome Fell, Hitler Rose, Enron Failed, and My Sister Stole My Mother's Boyfriend**. New York: Prometheus Books.
Oliner, S.P. and Oliner, P.M.1988. **The Altruistic Personality**. New York: The Free Press.
Olive, David. 1987. **Just Rewards: The Case for Ethical Business**. Toronto, Ontario: Key Porter Books.
Ornstein, Robert and Ehrlich, Paul.1989. **New World, New Mind: Changing the Way We Think to Save Our Future**. London: Methuen.
Paine, Thomas. 2011. **The Age of Reason**. Peterborough: Broadview Press.
Pareto, Vilfredo. 1935. **The Mind and Society**. New York: Harcourt, Brace and Company.
Peck, Morgan S. 1983. **People of the Lie**. New York: Simon & Schuster.

Perelman, Michael. 2005**. Manufacturing Discontent: The Trap of Individualism in Corporate Society**. London: Pluto Press.
Pfeiffer, John E. 1972. The **Emergence of Man**. New York: Harper and Row.
Plamentaz, John. 1992. **Man and Society**. London: Longman.
Platek, Steven M. and Shackelford, Todd K. 2006**. Female Infidelity and Paternal Uncertainty: Evolutionary Perspectives on Male Anti-Cuckoldry Tactics**. London: Cambridge University Press.
Pope, Alexander. 1881. **An Essay on Man**. Oxford: Clarendon Press.
Prinstein, M. J., and Cillessen, A. H. N. (2003). Forms and functions of adolescent peer aggression associated with high levels of peer status. **Merrill-Palmer Quarterly**, 49, 310–342.
Prinz, Jesse J. 2007. **The Emotional Construction of Morals.** Oxford: Oxford University Press.
Proudhorn, Pierre J. 1840. **What is Property? An Inquiry into the Principle of Right and of Government**. New York: Humboldt Publising Co.
Rawls, John.1971. **A Theory of Justice**. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
Reade, Winwood.1945. **The Martyrdom of Man**. London: Watt & Co.
Reich, Charles A.1970. **The Greening of America**. New York: Bantam Books.
Reiser, Paul 1994. **Couplehood**. New York: Bantam Dell Publication Group.
Renton, David, Seddon, David and Zeilig, Leo. 2007. **The Congo: Plunder and Resistance**. London and New York: Zed Books.
Rhodes, R. and Strain, J. J. 2004.Whistleblowing in academic medicine. **Journal of Medical Ethics**, 30:35–39.
Ricardo, David. 2005. **The Works and Correspondence of David Ricardo**. Indianapolis: Liberty Fund.
Richerson, Peter J., Collins, Dwight and Genet, Russell M. 2006. Why managers need an evolutionary theory of organizations. **Strategic Organization**, Vol. 4(2): 201–211.
Riesman, David. 1950. **The Lonely Crowd: A Study of the Changing American Characte**r. New haven and London: Yale University Press.
Ringer, Robert J. 1977. **Looking Out for Number One**. New York: Funk and Wagnalis.
Robarchek, Clayton A. and Robarchek, Carole J. 1998. Reciprocities and realities: World views, peacefulness, and violence among Semai and Waorani. **Aggressive Behavior**, 24:123-133.
Roberts, Wess.1991. **Straight A's Never Made Anybody Rich**. New York: Harper Collins Publishers.
Robin, Baker R. and Bellis, Mark A. 1995. **Human sperm competition:**

Copulation, masturbation, and infidelity. London: Chapman and Hall.
Rodkin, Philip C., Farmer, Thomas W., Pearl, R. and Acker R.V. (2000) Heterogeneity of popular boys: Antisocial and prosocial configurations, **Developmental Psychology**, 36(1): 14-24.
Rousseau, Jean Jacques. 1762. **Emile**. Harmondsworth, Midlesex: Penguin Books.
Rousseau, Jean Jacques. 1762. **The Social Contract**. Harmondsworth, Midlesex: Penguin Books.
Roux, George.1964. **Ancient Iraq**. Harmondsworth, Midlesex: Penguin Books.
Roy, Benjamin. 1995. The Tuskegee syphilis experiment: biotechnology and the administrative state. **Journal of the National Medical Association**, 87(1): 56-67.
Saint Augustine, 1909. **The City of God**. Edinburgh: John Grant.
Saint Simon, Henri de. 1975. **Selected Writings on Science, Industry and Social Organization.** London: Croom Helm.
Sartre, Jean-Paul. 2004. **Critique of Dialectical Reason.** New York: Verso.
Sayer, Liana C., England, Paula, Allison, Paul and Kangas, Nicole. 2011. She left, he left: How employment and satisfaction affect men's and women's decisions to leave marriages. **American Journal of Sociology,** 116(6): 1982–2018.
Schur, Edwin M. 1973. **Radical Non-Intervention: Rethinking the Delinquincy Problem**. Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall, Inc.
Sedgwick, John. 1985. **Rich Kids**. New York: Morrow.
Serran, Geris and Firestone, Philip. 2004. Intimate partner homicide: A review of the male proprietariness and the self-defense theories. **Aggression and Violent Behavior**, 9(1): 1-15.
Sheridan, Lorraine, North, Adrian, Maltby, John and Gillett, Raphael. 2007. Celebrity worship, addiction and criminality. **Psychology, Crime and Law**, 13(6): 559-571.
Sherif, M., Harvey, O.J, White B. J., Hood W. R., and Sherif, C.W. 1961. **Intergroup Conflict and Cooperation: The Robbers Cave Experiment.** Oklahoma: University Book Exchange.
Sloan, Frank A. and Chepke, Lindsey M. 2008. **Medical Malpractice**. Cambridge, Massachusetts: The MIT Press.
Somach, Susan D. and Abou Zeid, Gihan. 2009. **Egypt Violence against Women Study**: **Literature Review of Violence against Women.** USAID**.**
Sonn, Richard D. 2010. **Sex, Violence, and the Avant-Garde Anarchism in Interwar France.** Pennsylvania: The Pennsylvanis State University Press.
Spencer, Herbert. 2003. **Social Statics.** Hawaii: University Press of the

Pacific.
Spencer, Herbert. 1864. **The Principles of Biology**. London: Williams and Norgate.
Spinoza, Benedict. 2002. **Complete Works**. Cambridge, Indianapolis: Hacket Publishing Company, Inc.
Smith, Adam. 1776. **The Wealth of Nations**. London: W. Strahan and T. Cadell.
Smith, Denise. 1981. **Mussolini**. London: Weidenfeld.
Smith, Whitney I. 1993. A survey of the nature and extent of bullying in junior/middle and secondary schools. **Educational Research**, 35; 3-5.
Stewart, Frank H. 1994. **Honor**. Chicago: Chicago University Press.
Suetonius. 1931. **The Lives of the Twelve Caesars**. New York: Modern Library.
Sumner, William G. 1876. **The Forgotten Man and Other Essays**. Online Library of Liberty Fund.
Sumner, William G. 1992. **On Liberty, Society and Politics: The Essential Essays of William Graham Sumner**. Indianapolis: Liberty Fund.
Sussman, Robert W. and Cloninger, Robert C. Eds. 2011. **Origins of Altruism and Cooperation**. New York: Springer.
Taylor, A.J. P.1945. **The Course of German History**: **A Survey of the Development of German History since 1815**. London: Hamish Hamilton.
Thomas, Hugh. 1979. **An Unfinished History of the World**. London: Hamish Hamilton.
Thompson, Allan. 2000. Haunted by Rwanda.**The Toronto Star**.
Tiger, Lionel and Fox, Robin.1971. **The Imperial Animal**. New York: Henry Holt and Company.
Tobias, Carmelita R., Pary, Raymond and Lippmann, Steven. 1992. Preventing suicide in older people. **American Family Physician**, 45(4):1707-1713.
Tolstoy, Leo. 1894. **The Kingdom of God is Within You**. New York: Cassell Publishing.
Toynbee, Arnold.1947. **A Study of History**. New York: Oxford University Press.
Trueman, John H. and Trueman, Dawn C. 1982. **The Enduring Past: Earliest Times to the Twentieth Century**. Toronto: McGraw-Hill Ryerson Limited.
Twenge, Jean M., Konrath, Sara, Foster, Joshua D., Campbell, W. Keith and Bushman, Brad J. 2008. Egos inflating over time: A cross-temporal meta-analysis of the narcissistic personality inventory. **Journal of Personality**. 76(4): 875-901.
Vangelisti, Anita L. and Perlman, Daniel. 2006. Personal

relationships: An introduction, In Vangelisti, Anita L. and Perlman, Daniel. Eds. **The Cambridge Handbook of Personal Relationships**. New York: Cambridge University Press, pp.1-7.
Viano, Emilio C. and Cohn, Alvin W.1975. **Social Problems and Criminal Justice**. Chicago: Nelson-Hall.
Von Furer-Heimendorf, Christoph. 1967. **Morals and Merit: A Study of Values and Social Controls in South Asian Societies**. London: Weidenfeld and Nicolson.
Washburn, Jennifer. 2005. **University Inc.: The Corporate Corruption of Higher Education**. New York: Basic Books.
Weber, Max. 1964. **The Theory of Social and Economic Organization**. New York: The Free Press.
Weber, Max. 1978. **Econonmy and Society**. Berkeley: University of California Press, Ltd.
Webber, Marlene. 1991. **Street Kids: The Tragedy of Canada's Runaways**. Toronto: University of Toronto Press.
White, Ronald C. Jr. and Hopkins, C. Howard. 1976. **The Social Gospel: Religion and Reform in Changing America.** Philadelphia: Temple University Press.
Wiener, Martin J. 2004. **Men of Blood Violence, Manliness and Criminal Justice in Victorian England.** New York: Cambridge University Press.
Wilson, James Q.1993. **The Moral Sense**. New York: The Free Press.
Wrangham, Richard; Dale Peterson (1996). **Demonic Males: Apes and the Origins of Human Violence.** Houghton Mifflin.
Wright, Robert.1994. **The Moral Animal**. New York: Vintage Books.
Yussen, Steven R. and Santrock, John W.1978. **Child Development: An Introduction**. Dubuque, Iowa: W.C. Brown Co.
Yutang, Lin. 1937. **The Importance of Living**. New York: The John Day Company.
Zarnaghash, Maryam, Goodarzi, Mohammad Ali and Mohseni, Meisam. 2010. Comparing the perceptions of Heroin-abusers and non- busers from their parental discipline. **Procedia Social and Behavioral Sciences**, 5: 74–77
Zizek, Slavoj. 2008. **Violence: Six Sideways Reflections**. New York: Picador.

